مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية
King Faisal Center for Research and Islamic Studies

متابعات إفريقية

العدد (٤٢) شوال ١٤٤٦هـ - إبريل ٢٠٢٥م

تحرير: الدكتور محمد السبيطلي

د. آدم بمبا - أ.د. كوني بمان
د. كبا عمران
د.كوناتي موسى عمر
د. مامادو بسير دامبلي
د.جيهان عبد السلام عباس

د. مروة صبحي منتصر
هايدي الشافعي
د. جارش عادل
د. حكيم ألادي نجم الدين
د. أحمد عسكر

د. إيمان عبد العظيم سيد أحمد
د. شيرين جابر
أحمد الحبشي
أ.د. جمعة بن زروال
د. رشيد أثر رحمة الله

www.kfcris.com

متابعات إفريقية

العدد (٤٢)

المحتويات

الهيئة الاستشارية العلمية

أ.د. كبا عمران – غينيا
أ. د. كوني بمان – ساحل العاج
أ. د. محمد يحيى باباه – موريتانيا
أ. د. بومدين بوزيد – الجزائر
أ.د. كمال جاه الله – السودان
أ. د. عمر عبد الفتاح – مصر
د. فهد الشريف – المملكة العربية السعودية
د. كزافيي لوفين – بلجيكا | Dr. Xavier Luffin – Belgium
د. زكرياء درامى – السنغال
د. وداد نائبي – بينين
د. فطومة أحمد – كينيا
د. خديجة الراجي – المغرب
د. أندريا بريغاليا – إيطاليا | Dr. Andrea Brigaglia – Italy

ضوابط ومعايير النشر

أن تكون المادة ضمن الاهتمامات العلمية للمجلة
أن تستوفي المادة الشروط العلمية
ألا تكون المادة قد نشرت مسبقا كليا أو جزئيا الكترونيا أو ورقيا
أن تكون المعطيات العلمية المعتمدة والتوثيق حديثا
ترتيب المصادر والمراجع ألفبائيا في نهاية النص
أن تكون الرسوم البيانية والخرائط من وضع ورسم كاتب المادة
يمنع إعادة نشر أي مادة من المواد المنشورة بالمجلّة دون إذن مسبق
تخضع المواد المنشورة بالمجلة لتحكيم سرّي

متابعات إفريقية

سلسلة أوراق متخصصة ومحكمة يضمها تقرير فصلي يصدر عن مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض. تتناول السلسلة الملفات والقضايا الثقافية والسياسية والاقتصادية والأمنية المختلفة التي تهم سُكّان القارة الإفريقية وانعكاساتها الإقليمية والدولية من خلال مقاربات متعددة التخصصات وزوايا النظر.

للتواصل: afrstudies@kfcris.com

الدراسات:

١- **المقترضات العربيَّة في لغات الشُّعوب المسلمة بإفريقيا جنوب الصَّحراء**
د. آدَمَ بَـمْبا، جامعة إفريقيا الإسلاميَّة، أبيدجان.
أ.د. كوني بَـمانْ، جامعة إفريقيا الإسلاميَّة (UMA)، أبيدجان..... ١٠

٢- **مكانة اللغة العربية في إفريقيا الغربية بين الأمس واليوم**
د. كبا عمران، أستاذ التعليم العالي وعميد كلية الآداب وعلوم اللغة في جامعة الجنرال لانسانا كونتي في سنفونيا، كوناكري..... ٣٢

٣- **رحلة الحج في الشّعر العربي الإفريقي: دراسة وصفية تحليلية**
د. مامادو بسير دامبلي، أستاذ التّعليم العالي، جامعة السّاحل وجامعة التّعاون، بماكو. ٦٠

٤- **واقع وسيناريوهات العلاقات الاقتصادية بين جنوب إفريقيا والولايات المتحدة الأمريكية في ظل انعكاسات سياسات "ترامب"**
د.جيهان عبد السلام عباس، أستاذ الاقتصاد المساعد، كلية الدراسات الأفريقية العليا، جامعة القاهرة، القاهرة..... ٧٨

التقارير:

١- **المستعربون في جمهورية غينيا وإشكالية الاندماج**
د.كوناتي موسى عمر، باحث في تاريخ الأديان والحضارة الشرقية والإفريقية، جامعة الجنرال لانسانا كونتي، كوناكري..... ٩٨

٢- **التغير المناخي والصراع على الموارد في غرب إفريقيا: سياقات متشابهة وتحديات محتملة**
د. مروة صبحي منتصر، مدرس العلوم السياسية، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة، القاهرة. ١١٩

٣- **العملات المشفرة في إفريقيا: دوافع الاهتمام والمخاطر المرتقبة**
هايدي الشافعي، باحثة بالمركز المصري للفكر والدراسات الاستراتيجية، القاهرة. ١٣٠

٤- **السباق نحو التسلح في إفريقيا: المسببات والمأزق الأمني**
د. جارش عادل، أستاذ محاضر في العلاقات الدولية والدراسات الاستراتيجية، المدرسة الوطنية العليا للعلوم السياسية، الجزائر. ١٤٦

٥- **مهددات الاستقرار السياسي في نيجيريا وتداعياته المحتملة**
د. حكيم ألادي نجم الدين، باحث نيجيري، أبوجا..... ١٥٧

٦- **محفزات وتحديات توسع تحالف دول الساحل**
د. أحمد عسكر، باحث بمركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية، القاهرة. ١٦٩

عروض الكتب:

١- **إفريقيا واحدة: تاريخ موجز لحركة الوحدة الإفريقية**
د. إيمان عبد العظيم سيد أحمد، مدرس العلوم السياسية بكلية الدراسات الإفريقية العليا، جامعة القاهرة، القاهرة. ١٨٠

٣- **الهوية الإفريقية والمشاريع الاستعمارية**
د. شيرين جابر، باحث أول، مركز الدراسات الاستراتيجية، مكتبة الإسكندرية، الإسكندرية. ١٨٧

٤- **تاريخ القبائل العربية في الصحراء الكبرى**
أحمد الحبشي، باحث متخصص في التاريخ المعاصر، تطوان. ١٩٣

٥- **الهجرات المغاربية نحو المشرق العربي**
أ.د. جمعة بن زروال، أستاذة التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة باتنة ١، باتنة. ١٩٩

٦- **التصوف المغربي وامتداداته الإفريقية**
د. رشيد أثر رحمة الله، باحث في التاريخ، جامعة ابن زهر، أغادير..... ٢٠٥

هيفاء المطوع

تحرير

د. طارق باكير

مراجع لغوي

إخلاء مسؤولية

تعكس هذه المقالات ومحتوياتها تحليلات الكاتب وآراءه، ولا ينبغي أن تُنسب وجهات النظر والآراء الواردة فيها إلى مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، والكاتب وحده هو المسؤول عما يرد فيها من استنتاجات أو إحصاءات أو أخطاء.

رقم الإيداع بمكتبة الملك فهد الوطنية:

١٤٤٤/١٠٩

ردمد: ١٦٥٨-٩٤٢٤

كلمة المحرر

تضمّن هذا العدد الجديد بين دفتيه ملفّات وقضايا إفريقية متنوّعة، سواء في المجال الثقافي والتاريخي، أو الاقتصادي والجيوسياسي. واستجابت أوراق العدد لاهتمامات المجلة، في مثل: التفاعل الثقافي العربي الإفريقي في التاريخ، والحضور القوي للغة العربية، وتأثيرها في اللغات الإفريقية المحلية. ولكن اهتمّت مواد العدد – أيضًا – بالأوضاع المهنية والاجتماعية لخريجي المدارس والمعاهد العربية في إفريقيا، ولعموم حاملي الشهادات العربية في مجتمعاتهم.

فقد قاومت اللغة العربية الاستعمار الغربي الثقافي للشعوب الإفريقية، باعتبارها جزءًا مهمًّا من الهويات الوطنية للمجتمعات، وكان وجودها واستمرارها يعدّ أحد مظاهر صمود الثقافة الإفريقية عمومًا، في وجه الطغيان الثقافي الأوروبي للمستعمر، كما كان حاملوها وروّادها الأفارقة، من أبرز الوجوه الوطنية المنافحة عن أوطانها، ضد الاستعمار في كل أوجهه وميادين نشاطه. إلَّا أنَّها بعد حصول الدول الإفريقية على استقلالها، لم تحظ بالمكانة التي كان يتمناها أبناؤها الأفارقة؛ نظرًا لهيمنة لغة المستعمر في التعليم، والمعاملات الإدارية، وبالتالي الوظائف، وإن اختلفت الأوضاع نسبيًّا من بلد إلى آخر.

وفي هذا العدد، تتصدى بعض الأوراق لاستعراض وضع اللغة العربية في غربي إفريقيا، في الماضي والحاضر، وكذلك تطرح وتنظر في المقترضات العربيَّة، في لغات الشُّعوب المسلمة بإفريقيا جنوب الصَّحراء، وتستعرض أيضًا وضع المستعربين في غينيا.

في الملف السياسي والأمني، تشهد بعض دول القارة استمرار وضع انعدام الاستقرار، واستعصاء بعض حالات العنف المسلح الداخلي، أو العابر للحدود، ممَّا أدّى إلى زيادة التوجّه نحو المزيد من التسلّح، بما يعنيه ذلك من استنزاف للثروات، والأرواح البشرية. وفي هذا السياق جاءت ورقة «السباق نحو التسلح في إفريقيا"، وكذلك ورقة "مهدّدات الاستقرار السياسي في نيجيريا». ومن جهة أخرى، يتواصل طرح السؤال حول مستقبل تحالف دول الساحل، واتجاهات تطور علاقاته مع مجموعة دول «إكواس"، وحدود توسّعه.

وفي الملف الاقتصادي، تصدّت بعض الأوراق لتطور العلاقات الإفريقية الأمريكية، في ظل توجهات الرئيس ترامب الجديدة، ولا سيّما تجاه دولة جنوب إفريقيا، باعتبار أنها من بين أهم القوى الاقتصادية في القارة. كما تم الاهتمام بسوق العملات المشفرة في إفريقيا، والمخاطر التي تواجهها، وطرح دوافع الاهتمام المتزايد بها.

ويبقى أن أهم ما يتهدّد سكان القارة الإفريقية، هو التغيّر المناخي، والذي بدوره يحفز الصراعات حول الموارد، وعلاقة ذلك بالانقلابات العسكرية، والحروب بين بعض الدول المتجاورة، واستعار النزاعات الداخلية بين الإثنيات، ذات النمط الاقتصادي المختلف (مربو الماشية في مواجهة المزارعين ...)

كما تضمن العدد مجموعة مهمة من عروض الكتب، المتعلقة بالهويات الثقافية في إفريقيا.

دراسات

المقترضات العربيَّة في كبرى لغات الشُّعوب المسلمة بإفريقيا جنوب الصَّحراء

د. آدَمَ بَمْبا، جامعة أفريقيا الإسلاميَّة (UMA)، أبيدجان.
أ.د. كوني بَمانْ، جامعة أفريقيا الإسلاميَّة (UMA)، أبيدجان.

هذه دراسة استطلاعيَّة للكشف عن مدى تأثير اللُّغة العربيَّة في اللُّغات الإفريقيَّة، عبر المفردات العربيَّة المقترضة في تلك اللُّغات، ولتحقيق هذا الهدف كان اختيارُ ثلاث لغاتٍ رئيسة بإفريقيا، وهي: السواحيليَّة في شرقي إفريقيا، والمانْدينغ، والـهَوْسا في الغرب. ومن خلال طرح سؤالٍ محوريٍّ لمعرفة النِّسبة التّقريبيَّة للمقترضات العربيَّة في اللُّغات الإفريقية الكبرى، واتِّباع منهجٍ وثائقيٍّ وإحصائيٍّ تحليليٍّ لثلاثة معاجم أساسيَّة لتلك اللُّغات، تبيَّن أنَّ للغة العربيَّة تأثيرًا عميقًا في اللُّغات الإفريقيَّة، وذلك بوفرة المقترضات في كلِّ لغةٍ على حدة، واشتراك تلك اللُّغات في اقتراض مفرداتٍ أساسيَّة؛ فقد بلغت المقترضات في اللُّغات الثَّلاث (٣٩٢٩) مفردة، والمقترضات المشتركة بينها (٢٣٥). واحتلَّ مجالُ الدِّين أعلى نسبةٍ لاقتراض اللُّغات من العربيَّة، وهذا مُنسَجمٌ مع الظُّروف التَّاريخيَّة لاحتكاك العربيَّة باللُّغات الإفريقيَّة. وقد خلُصَت الدِّراسة إلى أنَّ المقترضات العربيَّة في اللُّغات الإفريقيَّة، يمكن الاستفادة منها في تيسير تعلُّم اللُّغة العربيَّة للنَّاطقين باللُّغات الإفريقيَّة، وبناءً على ذلك، فقد اقترحت الدِّراسة الحاليَّة المبادرة لوضع معجمٍ مُشْترك بيْنيّ، للمقترضات العربيَّة في اللُّغات الإفريقيَّة؛ لأنَّ ما بأيدينا من مفردات، لا تمثِّل النِّسبة الحقيقيَّة للمفردات العربيَّة المقترضة باللُّغات الإفريقيَّة، وأنَّ ما توصَّلت الدِّراسةُ الحاليَّةُ إليه من إحصاءاتٍ، إنَّما هي نسبةٌ يسيرة للكميَّة الفعليَّة لما اقترضَتْه اللُّغات الإفريقيَّة من العربية، ولا تزال. فالحاجة إذَنْ ماسَّةٌ لدراساتٍ مُستقبليَّة أكثرَ استيعابًا للمقترضات العربيَّة باللُّغات الإفريقية.

١- مقدِّمة: اللُّغات الإفريقية والاقتراض من العربيَّة

للُّغة العربيَّة تأثيرٌ موسَّعٌ وعميقٌ في شبكة اللُّغات حول العالم؛ فلا تكادُ لغةٌ تخلو من مفردات عربيَّة، سواءٌ

أكان ذلك بطريقةٍ مباشرةٍ أم غير مباشرة. واللُّغة العربيَّة كذلك، قد أخذتْ مفرداتٍ من اللُّغات التي احتكَّت بها في فترةٍ من الفترات، كالآراميَّة، والسِّريانيَّة؛ إذْ تُعدُّ عمليَّة الأخذ والعطاء، من الظَّواهر اللُّغويَّة الحتْميَّة بين اللُّغات، وهو ما يُصْطلح عليه بـ»الاقتراض»، ويُعرَّف في مثل قول الباحث كامْبيل بأنَّه: «المفردة التي أُخذتْ من لغةٍ إلى لغةٍ أخرى، وعادةً يَعْتَري الكلمة المقْتَرَضَة تطوُّرٌ صوتي، أو مورفولوجي، أو تركيبي، أو دلالي؛ لتنسجم مع نظام اللُّغة المقتَرِضَة».[١]

وإذا كانت ثمَّة دراسات قد تناولت تأثير اللُّغة العربيَّة في لغاتٍ مثل: التُّركيَّة، والفارسيَّة، والأرديَّة، وتأثيرها في لغات جنوب شرقي آسيا، كالملايويَّة، فإنَّ بعض اللُّغات، التي تُعرف بلغات الشُّعوب المسلمة في آسيا وإفريقيا، لم تَنَلْ حظَّها من الدِّراسة، واستقصاء التَّأثيرات العربيَّة فيها.[٢]

وفي هذا السِّياق، تجدر الإشارة إلى أنَّ اللُّغات الإفريقية، تُعدُّ من أكثر اللُّغات تأثُّرًا بالعربيَّة، خاصَّة لغات المنطقة الغربيَّة، أو ما يُعرف بالسُّودان الغربي؛ فهي منطقةٌ ذات تشابُكٍ وتداخُل لغويٍّ نشط؛ إذْ بِهَا كُبريات اللُّغات الإفريقية، كلغة الـهَوْسا، والفولاني، واليوربا، والمانْدينْغ. وتفيد الإحصاءاتُ أنَّ تعداد لغات العالم يبلغ حوالي (٦٧٠٠) لغة، وأنَّ في إفريقيا وحدها أكثر من (٢٠٠٠) لغة، أي حوالي (٣٠٪) من نسبة اللُّغات في العالَم، وفي الوقت نفسه يبلغ تعداد اللُّغات بغربي إفريقيا حوالي (١٢٠٠) لغة، وتوجد بين تلك اللُّغات لغاتٌ توصف بلغات ذات كثافةٍ كبرى، مثل: (الـهَوْسا، واليوربا، والفولاني، والمانْدينْغ)، ويفوق المتحدِّثون بها مُجتَمعةً (١٢٠) مليون نسمة.[٣]

هذا، ونتيجةً لظروفٍ تاريخيَّة واجتماعيَّة كثيرة، فإنَّ اللُّغات الإفريقية جنوب الصَّحراء، قد احتكَّ بعضها ببعض، وتفاعلت بفعل التِّجارات البينيَّة، عبر طُرق ومراكز تجاريَّة مبثوثة على امتداد المنطقة؛ فمثلًا، تنتشر لغة الـهَوْسا في نيجيريا، وبنين، وبوركينا فاسو، وغانا، والنيجر، ومالي، وكذلك لغة الفولْبي (الفُلْفُلدي، بولار) في بوركينا، وغينيا، ومالي، والنيجر، ونيجيريا، وسنغال، وغامبيا، وكاميرون، ولغة المانْدينْغ (البَمْبارا)، هي لغة الأغلبيَّة في مالي، وكوت ديفوار، وبوركينا فاسو، وغينيا، وغامبيا، وتنتشر في السِنغال، وغينيا بيساوْ، وسيراليون، وليبريا؛ لذلك توصف معظم اللُّغات بإفريقيا، أو بغربيِّها تحديدًا، بأنَّها لغات عابرة للحدود، أو لغات واسعة الانتشار (Languages of wider communication)، أو كما وصَفَ الباحثُ فردريكْ (٢٠١١م) هذا التَّفاعل اللُّغويَّ بـ «حدود إثنيَّة ولغويَّة متقاطعة متداخلة» (Cross-cutting ethnic and linguistic borders).

وبناءً على هذا الوضع الفريد لطبيعة اللُّغات بإفريقيا جنوب الصَّحراء، فإنَّ تأثير اللُّغة العربيَّة في واحدةٍ منها، كان إيذانًا بالتَّأثير غير المباشر في شبكة اللُّغات المتفاعلة بالمنطقة، وحتى اللُّغات الصُّغرى التي كانت تُعدُّ نسبيًّا بمعزلٍ تامٍّ عن اللُّغة العربيَّة، فإنَّها قد تأثَّرت بالعربيَّة عبر اللُّغات الكبرى.

وعلى سبيل المثال، فقد وجد الباحث غاسْتون، أنَّ نسبة (٥٢,٥٠٪) من المفردات التي قام بتحليلها في لغة موريهْ (More/Mossi) ببوركينا فاسو الحاليَّة، هي مقترضَةٌ من العربيَّة عبر اللُّغات الوسيطة، كلغة السونِنْكي، والمانْدينْغ، والفولاني[٤]. وفي دراسة للباحث بروكس[٥] حول الألفاظ المقترضة بلغة كيسي (Kissi) بالمنطقة الغربيَّة من غينيا كوناكري، شملت (٥,٨٠٠) كلمة مقترضة بتلك اللُّغة، تبيَّن أنَّ أكثر من (٢٠٠) منها، هي مقترضةٌ من لغة المانْدينْغ في مجال التِّجارة، والدِّين، والسِّياسة، وأنَّ معظم تلك المفردات هي عربيَّة[٦]. كما وجد الباحثُ[٧] مفرداتٍ عربيَّةً كثيرةً في لغة اليوربا، دخلَتْها عن طريق لغة الــهَوْسا، والمادينْغ، والكانوري، والصونْغاي.

لذلك، لم يُغالِ الباحثُ سلاوُو، حين وَصَفَ التَّأثير العربيَّ في لغات إفريقيا بــ»طوفان» من المفردات (Flood of words)، فقال: «هناك شعوبٌ تعيش خارج مِحْوَر اللُّغة العربيَّة، مِمَّنْ دخلوا الإسلام بكثرة. ومن أولئك: الــهَوْسا، وفولاني، والمانْدينْغ، والسواحيلي، والصُّوماليُّون، وبحضور الإسلام بتلك المجتمعات، فإنَّ طوفانًا من المفردات العربيَّة قد دَخَلَتْ إلى لغاتها»[٨].

هذا، ويتَّضح أنَّ نشاط التَّلاقي بين العربيَّة واللُّغات الإفريقية بجنوب الصَّحراء، قد بدأ منذ فترةٍ مبكِّرة، سابقة لدخول الإسلام إلى تلك المنطقة، وقد سجَّل لنا المؤرِّخون مرحلةً أوَّليَّة من احتكاك التُّجار العرب بسكان مناطق متفرِّقة ببلاد السُّودان، فيما يُعرف بالتِّجارة الصَّامتة، التي أشار إليها كثيرٌ من المؤرِّخين العرب[٩]، وذلك أن يأتي التُّجار العرب بأمْتِعَتهم، فيضعونها على ساحل البحر، أو في حدُودِ الصَّحراء، ثم يختفون، ويأتي السُّودانيُّون فيضعون إلى جانب كلِّ بضاعةٍ مقدارًا من الذَّهب التِّبر، ويختفون بِدَوْرهم.

بعد تلك المرحلة من الاحتكاك الخَجِل بين الفَريقَيْنِ، وتطوُّر العلاقات، دعت الحاجة إلى تَشافُهِ الفَريقَين عبر المترجِمين، وقد حدَّثنا البكري (ت٤٧٥هـ/١٠٨٢م) عن نشاط التَّرجمة بين ملك إمبراطوريَّة غانة، وبين التُّجار الوافدين عليه، وبينهم وبين التُّجار الآخرين. قال: «وتَرَاجُمَةُ الملك من المسلمين، وكذلك صاحِبُ بيتِ مَالِهِ وأكثَرُ وُزَرائه»[١٠]، وبحسب ما انتهى إليه باحثون مؤرِّخون أمثال: موراي لاسْت (Murray Last)، ولويس برينير (Louis Brenner)، ودافيد روبنْسونْ (D. Robinson)، وتال تماري (Tal Tamari)، وديل أيْكلمان (Dale Eicklman)، فإنَّ نشاط التَّرجمة ببلاد السُّودان الغربيِّ، كانت أهمَّ وسيلةٍ لنقل المعارف الإسلاميَّة، والتَّفاعُل النَّشط بين اللُّغات الإفريقية واللُّغة العربيَّة.

وعلى الرُّغم من هذا التَّفاعُل النَّشط بين اللُّغات الإفريقية والعربيَّة، ودخول كثيرٍ من المفردات العربيَّة تلك اللُّغات، عبر الدِّين والتِّجارة بامتياز، فإنَّ الإشكال الأوَّليَّ في هذا المجال، هو أنَّ واقع المعاجم اللُّغويَّة الموجودة بين أيدينا، لا يُتَرجم نشاط أخْذِ اللُّغات الإفريقية من العربيَّة؛ ففي المعاجم الحديثة قصورٌ

واضحٌ، في الإشارة إلى المقترضات العربيَّة باللُّغات الإفريقية، وقد أشار الباحث زابا إلى هذا الإشكال في لغة المانْدينْغ، وخاصَّة في المجال الدِّيني؛ حيث لا يُشارُ في القواميس إلى المفردات الدِّينيَّة بتلك اللُّغة على أنَّها مقترضاتٌ[١١].

وتجدُرُ الإشارةُ إلى أنَّ خُلوَّ المعاجم الإفريقية من الإشارة إلى المقترضات العربيَّة، أو ضعف إشارتها، قد يكون ناشئًا عن قلَّة إلمام كثيرٍ من المعجميِّين بالعربيَّة[١٢]، أو نتيجةً لصُعُوبَاتِ التَّعرُّف على المقترضات العربيَّة في اللُّغات الإفريقية؛ وذلك لما طَرَأ على بعضها من تطوُّرٍ صوتيٍّ عميق، خاصَّةً عندما يكون الاقتراضُ غير مباشرٍ من العربيَّة. ومن أمثلة ذلك، كلمة «حجامة»، فهي في لغة اليوريا (Gbazamo) مقترضة من لغة الــهَوْسا (Wanzami)، وقد اقترضَتْها الــهَوْسا من جارتها الصونْغاي (Wanjam)، ولعلَّ الصونغايْ اقترضتْها من لغة الكانوري (Wanzamma)، وقد تكون الكانوري اقترضَتْها من لغة وسيطة، وهكذا فإنَّ الكلمة العربيَّة تشهد حلقةً من الرِّحلة بين اللُّغات، ويتعمَّقُ تطوُّرها الصَّوتي - وربَّما الدِّلالي- تبعًا لطول رحلتها.

وبعيدًا عن تلك الأسباب المقبولة، في ضعف إشارة المعاجم الإفريقية إلى المقترضات العربيَّة باللُّغات الإفريقية، فإنَّ واضعي المعاجم الإفريقية، وجُلُّهم من الأوروبيِّين، قد سَلَكوا سياسةً إقصائيَّة بتهميشهم اللُّغة العربيَّة، والتَّقليل من الأثر العربيِّ بإفريقيا لحساب اللُّغات الاستعماريَّة. بل التَّكتُّم عليه[١٣]. إنَّ هذا ما يجعل الإشكال المشار إليه إشكالًا حقيقيًّا، خاصَّةً وأنَّ كثيرًا من المفردات العربيَّة المقترضة تخضع لعمليَّة «وَأد»، واستبدال مفرداتٍ حديثة من اللُّغات المسْتَعمِرة بها.

وانطلاقًا من هذه المفارقة بين وفرة اقتراض اللُّغات الإفريقية من العربيَّة، وضعف أو غياب إشارة المعاجم إلى تلك المقترضات، فإنَّ الدِّراسة الحاليَّة، تنبري للإجابة عن سؤال جوهريٍّ، وهو: تُرى، ما النِّسبة التَّقريبيَّة لاقتراض اللُّغات الإفريقية الكبرى من العربيَّة، طبقًا لما تُصوِّره المعاجم القليلة المتوفَّرة بين أيدينا؟

ومن هذا السُّؤال المحوريِّ تنْبَثِقُ أربعةُ أسئلة فرعيَّة، هي:

- ما المقترضات العربيَّة المشتركة بين كبريات اللُّغات الإفريقية: السواحيلي، والمانْدينْغ، والــهَوْسا؟
- ما أهمُّ المجالات الدِّلاليَّة للمقترضات العربيَّة باللُّغات الإفريقية؟
- ما أهميَّة المقترضات في تعليم العربيَّة للنَّاطقين بلغاتٍ إفريقيَّة؟
- كيف يمكنُ الاستفادةُ من المقترضات في وضْع معجمٍ مشتركٍ للُّغات الإفريقية؟

وللإجابة عن هذه الأسئلة، فإنَّ الدِّراسة الحاليَّة قد سَلَكتْ منهجًا وثائقيًّا وإحصائيًّا تحليليًّا، وذلك بجمع المفردات العربيَّة المقترَضَة، بثلاث لغاتٍ كُبرى بإفريقيا، وهي: اللُّغة السواحيليَّة، والمانْدينْغ، والــهَوْسا.

٢- نبذة عن اللُّغات الكبرى في الدِّراسة الحاليَّة

تتميَّز اللُّغات الثَّلاث المختارة بكونها لغاتِ شعوبٍ مسلمة بامتياز، وبكَوْنها واسعة الانتشار، وذوات تاريخٍ عريقٍ في علاقتها باللُّغة العربيَّة، وبكونها أيضًا لغاتٍ متَّصلة، تمتدُّ من أقصى شرق إفريقيا حتى أقصى غربيِّها.

(ينظر: خريطة لكبريات اللغات الإفريقية، والعائلة اللغوية التي تنتمي إليها كلُّ لغة).

خريطة١: اللغات الكبرى بإفريقيا

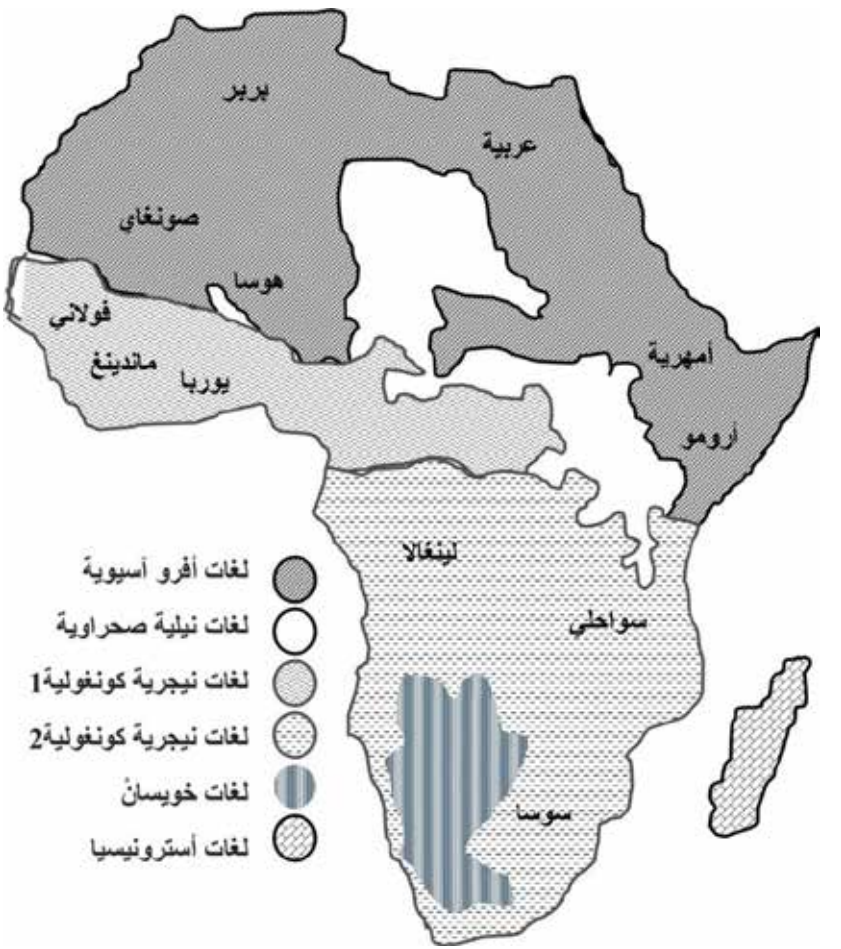

المصدر: إعادة رسم وتعريب الباحِثَين.

Sergio Baldi and Rudolf Leger, "Arabic Loans in Bole-Tangale," *in Studies on Language and African Linguistics in Honor of Marcello Lamberti*, edited by Luca B. et al. (Milano: QUASARSRL, 2011), 3-14.

٢-١ اللغة السواحيليَّة (Kiswahili)

تنتمي لغة السواحيليَّة لعائلة اللُّغات البانْتُويَّة، ضمن مجموعة اللُّغات النيجر كونْغوليَّة، وتنتشر بمنطقة شرقي إفريقيا ووسطها[١٤]، في كينيا، وتنزانيا، وجزر القمر، وأوغندا، ورواندا، وبروندي، وفي الكونغو الدِّيمقراطيَّة، ويقاربُ عددُ متحدِّثيها لغةَ أمٍّ[١٦] مليون نسمةً، كما يُقدَّر عدد المتحدِّثين بها لغةً ثانية بما بين (٨٠ و١٠٠) مليون نسمة[١٥].

ونتيجةً لتفاعلاتٍ تاريخيَّة طويلةٍ، بين السواحيليَّة وغيرها من اللُّغات، فإنَّها غدَتْ لغةً غنيَّة بالمفردات؛ ممَّا جعلها لغةً مشتركةً لمساحاتٍ واسعةٍ بإفريقيا، ولغة تجارة، وإعلام، وأدب[١٦]، وهي تُمثِّل اليوم أكثر اللُّغات الإفريقية تطوُّرًا وغنًى في مفرداتها، حيث يندُرُ وجود مصطلح في أيِّ مجالٍ علميٍّ لا يمكن التَّعبيرُ عنه بالسَّواحيليَّة[١٧].

أمَّا عن نسبة المقترضات العربيَّة بالسواحيليَّة فقد قدَّرها الباحثان[١٨] بأكثر من (٣٠٪) من مجموع المعجم السّواحيليّ، وارتفعت هذه النِّسبة في دراسة لاحقةٍ لبالْدي إلى (٣٣٪)[١٩]. ويبدو أنَّ المجال الاقتصاديَّ يَسْتَحْوِذُ على جُلِّ تلك المقترضات؛ فقد رجَّح الباحث بوشا، أنَّ أكثر من (٧٠٪) من المفردات في مجال الاقتصاد باللُّغة السواحيليَّة، هي مقترضةٌ من العربية، وكذلك أكثر من (٥٠٪)، من المفردات في المجال السِّياسيِّ[٢٠].

٢-٢ لغة البَمْبارا (المانْدينْغ)

تنتمي لغة المانْدينْغ لعائلة لغات النيجر- كونْغوليَّة، وتنتشر في مساحاتٍ واسعة بغرب إفريقيا: مالي، وغينيا، وكوت ديفوار، وبوركينا فاسو، وغامْبيا، وغينيا بيساوْ، والسنغال، وليبريا[٢١]. وتصلُ تفرُّعاتها اللُّغويَّة إلى خمس عشَرَةَ مجموعة لغويَّة[٢٢]. وتبعًا لهذا الانتشار الواسع، فإنَّ من الصَّعب التَّكهُّن بتعداد متحدِّثي المانْدينْغ، وعلى الرُّغم من انتمائها لعائلة لغويَّة، لا علاقةَ بين أصولها وبين اللُّغات السَّامية، وبُعدها النِّسبيِّ عن مجال العربيَّة، فإنَّها قد أخذت الكثير من المفردات العربيَّة.

في هذا السِّياق، ذهب موريس دولافوسْ منذ عشرينيَّات القرن الماضي، إلى أنَّ المقترضات العربيَّة في لغة المانْدينْغ، تُراوَحُ بين (١٥ و٢٠٪)، من مجموع كلمات هذه اللُّغة[٢٣]، وتلك نسبةٌ عالية في طبيعة الاقتراض بين اللُّغات. وقد دَخَلَ الكثِيرُ من تلك المفردات لُغَةَ المانْدينْغ عبر التِّجارة[٢٤].

بالإضافة إلى ذلك، فقد غدت لغةُ المانْدينْغ رافدًا مباشرًا، وجسْرًا عابرًا للعربيَّة، إلى لغاتٍ كثيرةً بغرب إفريقيا[٢٥]. وقد حدا هذا التَّأثير البالغ للغة المانْدينْغ، في جاراتها من اللُّغات الصُّغرى، بمنطقة غرب إفريقيا بالباحث بروكس[٢٦]، إلى وصف لغة المانْدينْغ وثقافتها بـ«إمبرياليَّة ثقافيَّة» (Mande cultural imperialism).

٢-٣ لغة الـهَوْسا

تنتمي لغة الـهَوْسا إلى عائلة اللُّغات الأفرو - آسيَويَّة، وهي اللُّغة المشتركة بمنطقة وسط إفريقيا شماليَّ نيجيريا والنيجر، وفي كثيرٍ من بلاد غرب إفريقيا مثل: النيجر، وتشاد، وبنين، والكاميرون، وغانا[٢٧]. ويقدَّر متحدِّثو الـهَوْسا لغةَ أمّ، ما بين (٣٥ و٥٠) مليون نسمة، و(٢٥) مليون نسمة لغةً ثانية[٢٨].

تتميَّز لغة الـهَوْسا بكثرة اقتراضها من العربيَّة؛ فقد وجد الباحثُ بالْدي، أنَّها أكثر لغات غرب إفريقيا اقتراضًا من العربيَّة، وعلَّل ذلك بِكَوْنِ الـهَوْسا لغةً مُشْتَرَكَةً للتِّجارة، بين مجموعاتٍ مُتوزَّعة على امتداد بلاد إفريقيا الغربيَّة، وانتهى إلى إحصاء مجموع (١٢٤٥) كلمةً مُقْتَرَضَة من العربيَّة، منها (١٠٥١) اسمًا، و(١٦٥) فعلًا، و(٢٩) كلمات أخرى، وتلك نسبةٌ لا يُستهانُ بها بإزاء عدد متحدِّثي الـهَوْسا[٢٩]. وتتَمَحْوَرُ تلك المفردات في مجال الدِّين والفكر.

٣- أدوات الدِّراسة ومنهجيَّة الجمع والتَّصنيف

اعتمَدَت الدِّراسة الحاليَّة على ثلاثة كُتُب أساسيَّة لجمع مادة هذه الدِّراسة، وهي:

أ- كتاب «معجم الألفاظ العربية في لغة الهَوْسا»، إعداد مصطفى حجازي، بدأه بمُقَدِّمَةٍ نظريَّة حول لغة الـهَوْسا ونظامها الصَّوتي، وما يطرأ على الكلمة العربيَّة من تطوُّرٍ صوتي لدى الـهَوْسا، وبلغت صفحاته (٣٩٤).

ب- معجم الألفاظ العربيَّة المقترضة بلغات شرق إفريقيا (بالإنجليزية)، جَمَعَهُ الباحث بالدي، ويتكوَّن من (٣١٤) صفحة، ما عدا الملاحق التي أورد فيها ترجمة المفردات بالفرنسيَّة والإنجليزيَّة.

ج- المفردات العربيَّة المقترضة بلغة المانْدينْغ (غير منشور): إعداد الباحثَين، جُمعت المفردات العربيَّة المقترضة بهذا المعجم، اعتمادًا على خبرة الباحثين الشَّخصيَّة، بوصفهما مُتَحَدِّثَيْنِ أصليَّيْن بهذه اللُّغة، واستشارتهما بعض الباحثين من النَّاطقين الأصليِّين بالمانْدينْغ.

٣-١ قاعدة بيانات إلكترونيَّة

بعد جمع المفردات المقترضة من المصادر الثَّلاثة الآنفة الذِّكر، كان تصميم جَدْوَل بيانات في تطبيق (MS Excel ٢٠١٦)، من أجل إدخال البيانات، وإجراء عمليَّات الفرز والتَّرتيب والتَّصنيف عليها، وكذلك العمليَّات الإحصائيَّة البسيطة في الجمع، وحساب التِّكرارات، وحساب المتوسِّطات، والنِّسب المئويَّة، وتكوَّن الجدول العامُّ من خمس خانات، هي: جذر الكلمة، الكلمة، النَّوع (اسم، فعل، حرف، تركيب)، المجال الدلالي، اللُّغة، رقم التَّصنيف.

واعتمدت هذه الدِّراسة في تحديد المجالات الدِّلاليَّة التِّسع، التي حدَّدها الباحثان[٣٠] للمقترضات العربيَّة باللُّغات الإفريقية، وهي:

أ- مجال الدِّين والاعتقاد: ويشمل ذلك العقائد الإسلاميَّة، والطُّقوس، والأخلاق والتَّصرُّفات، والمساجد، وأمكنة العبادة الإسلاميَّة[٣١].

ب- الأعمال اليوميَّة، والأدوات الحضاريَّة، ويشمل ذلك أدوات التِّجارة، والزِّراعة، والطَّبخ، والملابس، وما يُستعمل في العمارة وغيرها، وما يقوم به النَّاسُ من تجاراتٍ، وأعمال إداريَّة، وأنشطة ثقافيَّة[٣٢].

ج- الاجتماع والعلاقات الإنسانيَّة: يدخل في هذا المجال المفردات المتعلِّقة بعلاقات النَّاسِ ببعضهم، والألقاب، وما يتعلَّق بالزَّواج، والتَّربية، وغيرها[٣٣].

د- الأموال والمقاييس.

هـ- الأوقات والأزمنة.

و- البيئة الجغرافيَّة والطَّبيعة: ويشمل ذلك المفردات المتعلِّقة بعناصر الكون، من سماء، وأرض، وكائنات حيَّة، ونبات.

ز- الصِّحة والمرض.

ح- حروف المعاني، والأدوات اللُّغويَّة، والألفاظ الجاهزة.

ط- مفردات متفرِّقة.

ss	steem	word-L	Word-A	lang	type	semanti
1	ءسس	ʼassa	آسى	SW	ف	9
2	ءءل	alaye	آل	HU	س	3
3	ءءي	hayan	آية	MA	س	1
4	ءبب	ab	أب	SW	س	3
5	ءبب	uba	أب	HU	س	3
6	ءبد	ʿabada	أبدا	SW	س	5
7	ءبد	abad	أبد	SW	س	5
8	ءبد	abadan	أبدا	SW	س	5
9	ءبد	abadī	أبدي	SW	س	5
10	ءبد	abadaa	أبدا	HU	س	5
11	ءبد	abadan	أبدا	MA	س	5
12	ءبر	ʿibra	إبرة	SW	س	2
13	ءبي	abba	أبى	SW	ف	9
14	ءجر	ajara	أجَر	SW	ف	9
15	ءجر	ajīr	أجير	SW	س	9
17	ءجز	ajzāḥānā	أجزاخانة	SW	س	2
18	ءجل	ajal	أجل	SW	س	9
19	ءجل	ajali	أجل	HU	س	9
20	ءجل	lajali	أجل	MA	س	9

Swahili	SW
Hausa	HU
Mande	MA

ف = فعل
س = اسم
ح = حرف
ر = تركيب

Code-S	Semantic
1	دين
2	أعمال وأدوات
3	مجتمع أسرة
4	أموال مقاييس
5	أوقات أزمنة
6	بيئة جغرافية
7	صحة ومرض
8	حروف وألفاظ
9	متفرقات

جدول١: السجلات العشرون الأولى لشاشة إدخال بيانات المفردات عبر تطبيق إكسل.

٣-٢ تحليل البيانات والنتائج

من الإحصاءات التي نَتَجت عن تحليل بيانات المفردات المدخَلَة في تطبيق إكسل ما يأتي:

بالنِّسبة للسُّؤال الجوهريِّ حول المجموع التَّقريبيِّ للمقترضات العربيَّة باللُّغات الإفريقية، فقد تبيَّن في الإحصاءات، أنَّ مجموع المفردات المقترضة المجمَّعة من اللُّغات الثَّلاث المختارة، قد بلغ (٣,٩٢٩)، وهذا قبل حذف الاشتقاقات المتعدِّدة للكلمة الواحدة في كلِّ لغة. أمَّا بعد حذف المشتقَّات للكلمة، فقد تقلَّصت الكلمات إلى (١٦٧٦) كلمة، وهذا هو العدد الفعليُّ للمقترضات العربيَّة باللُّغات الثَّلاث مجتمعةً في هذه الدِّراسة. وقد جاء حظُّ كلِّ لغة من المقترضات على النَّحو الآتي:

اللغة	عدد المفردات	عدد الجذور	النسبة ٪
السواحيلية	٢,٧٦٤	٧٧٩	٪٢٨,١٨
المانْدينْغ	٣٤٤	٣٠٦	٪٨٨,٩٨
الـهَوْسا	٨٢١	٥٩١	٪٧١,٩٨
المجموع	**٣,٩٢٩**	**١٦٧٦**	

جدول٢: تعداد المفردات المقترضة في كل لغة من اللغات الثلاث.

يُلاحظُ هنا أنَّ السواحيلية، هي أكثر اللُّغات في عدد المفردات المقترضة؛ إذ بلغت مفرداتها المقترضة (٢,٧٦٤) أي بنسبة (٧٠,٣٤٨٪). ويعود هذا التَّفوُّق إلى عامِلَين أساسَين هما: اقتراض اللُّغة السواحيليَّة للكلمة العربيَّة مع مشتقَّاتها، واقتراض مفردات كثيرةٍ من العربيَّة اقتراضًا غير مباشر، أي إنَّها مفرداتٌ هي في الأصل من لغاتٍ أخرى، اقترضتها العربيَّة من لغاتٍ أخرى، ومن ثمَّ اقترضتها السواحيليَّة من العربيَّة، فمن تلك المفردات العربيَّة باللُّغة السَّواحيليَّة: من اليونانية: إزميل، وإسْفنْج، ومن الإنجليزيَّة: برلمان، ومن الإيطاليَّة: بطارية، وجمارك، ومن الفرنسية: بنزين، وترومْبيل، وخرطوشة، ومن التُّركية: إبزيم، وبشكير، وبطاطير، وبنديرة، وتمباك، وخابور، وطربيزة، وعربون، وقرقوشة، ومن الفارسيَّة: شطرنج، وشواويل، وصاروج.

وبالعكس، فإنَّ هذا النَّوع من اقتراض المفردات ذات الأصل غير العربيِّ نادرٌ في لغة المانْدينْغ والـهَوْسا؛ فقد أحصينا منها عشر كلمات فحسب بلغة المانْدينْغ، وهي: (بَرزَخ، ودِرْهم، ودينار، وفردَوس، وكافور، ومرجان، وزبَرجد، وكيمياء، ونعناع، وياسمين)، وهي – بعدُ- مفرداتٌ قديمة مُعرَّبة، وستٌّ منها هي قرآنيَّة.

٣-٣ مقترضاتٌ مشتركة بين اللُّغات الإفريقية الثَّلاث

كشفت بياناتُ المفردات، عن اشتراك اللُّغات الثَّلاث في (٢٣٥) مقترضة، (ينظر الملحق ١)، ويُمثِّل هذا العدد نسبة (٥,٩٨١٪) من مجموع المفردات المقترضة في اللُّغات الثَّلاث، وقد سبق أنَّ عددها (٣,٩٢٩) مفردة.

٣-٣-١ مقترضات مشتركة بين لغتَين من اللُّغات الثَّلاث

كشفت التَّحليلات عن وجود مفرداتٍ مُتَوَارَدَة في لغتَين من اللُّغات الثّلاث، وهي على النَّحو الآتي:

أ- السواحيليَّة والـهَوْسا: اشتركت اللُّغتان: السواحيليَّة والـهَوْسا في مجموع (١٢٦) كلمة. هذا بعد حذف المشتقات المتعدِّدة للكلمة الواحدة في كلٍّ من اللُّغتَين، أي إنَّهما قد اشتركتا في جذور هذا العدد من المفردات، وهي على النَّحو الآتي:

إشارة	تاجر	حكاية	رخيص	سمعا	ضمير	قطع
إلا	ترتيب	حلاوة	رشوة	سواك	طابور	قنديل
أب	تسعة	خائن	رعد	سياسة	طب	كفن
أحد	تسعون	خصومة	رمضان	سياسي	ظُهر، صلاة	كما
أمَّا	تعزية	خطر	ريال	شأن	عاقبة	كيس
أهل	تلاوة	خنزير	زنديق	شر	عبادة	لا بد
باسور	جائزة	دائرة	زيَّن	شطرنج	عجب	لعن
بحث	جريدة	دفتر	زيت	شعراء	عجمي	لغة
بحر	جفاء	دقيقة	ساعة	شعير	عدة، وفاة	لفظ
بخار	جملة	دية	سبعين	شكر	عرَضَ	لوط
بدَل	جمهورية	ذِكر	سبيل	شمعة	عفريت	مخلوق
بصل	جناية	ذراع	ستين	شؤم	عقوبة	مغرب
بصير	جنس	ذريَّة	سدس	صحن	عيد	منظار
بعد	جوهر	ذلة	سرج	صف	غرض	نصف
بندقية	حِمل	ذنب	سعيد	صندل	غلَب	ورقة
بنديرة	حتى	رأسًا	سلسلة	صندوق	فجأة	وصيَّة
بيت	حدّ	رحمة	سلطة	صوفي	فقير	وضوء
بيت المال	حدود	رخَّص	سماء	ضامن	فهرس	

جدول٣: المقترضات العربيَّة المشتركة بين السواحيلية والـهَوْسا.

ومجمـوع الأفعـال في هذا المسـتوى ثمانيـة، وأدوات المعاني خمسـة، وهـي: (إلّا، أمَّا، بعد، حتّـى، كمَا)، وبقيَّتها أسـماء.

ب- السواحيليَّة والمانْدينْغ: اشتركت اللُّغة السواحيليَّة والمانْدينْغ في ثلاثٍ وعشرين كلمةً، وهي على النَّحو الآتي:

S	Arbic	Mande	Swahili
١	آية	āya	āya
٢	باطل	batara	bāṭil
٣	تبغ	Taba	tabgât
٤	جهنم	Jahanama	jahannam
٥	حرز	Kirisi	ḥirz
٦	ذات	jāti	zāt
٧	ربا	Iriba	riban
٨	صبر	Sabari	ṣabar
٩	صوفي	ṣūfī	ṣūfī
١٠	ضعف	Lufu	ḍaʿīf
١١	عقل	Hakili	ʿaql
١٢	قسَمَ	kɛsɛmu	qasama

S	Arbic	Mande	Swahili
١٣	قمح	Alkama	qamḥ
١٤	قياس	Qiyasu	qiyās
١٥	كحل	Kale	kuḥl
١٦	كوفية	Kufiya	kūfīya
١٧	لؤلؤ	Lulu	luʾluʾ
١٨	مجوسي	Majusi	majūs
١٩	نفع	Nafa	nafʿ
٢٠	وصف	Sufa	wassaf
٢١	ياسمين	Yasimin	yasmīn
٢٢	ياقوت	Yakutu	yāqūt
٢٣	يأجوج	yajuju	yājūj

جدول٤: المقترضات العربية المشتركة بين السواحيلية والمانْدينْغ.

ج- المانْدينْغ والـهَوْسا: اشتركت لغتا: المانْدينْغ والـهَوْسا في مجموع (١٤٨) كلمة، بلغت الأسماء فيها (١٢٥) والأفعال (١٤)، والبقيَّة: حرفان، وتراكيب جاهزة، مثل: «سبحان الله، تبارَك الله، دار السَّلام، عالِمُ كلِّ فن».

٣-٤ الحقول الدِّلاليَّة

لقد نَتَجَ عن توزيع المفردات المقترضة على الحقول التِّسعة المشار إليها سابقًا، تفَوُّق بعض الحقول على الأخرى، في عدد المفردات المنْدَرِجَة تحتها، ففي المانْدينْغ مثلًا، تفوَّق مجال الدِّين على المجالات الأخرى بمجموع (١٢٢)، أي بنسبة (٣٥,٦٢٪).

٣-٤ ملحوظات عامَّة

بالإجمال، يمكن تسجيلُ عدَّة ملحوظاتٍ حول الاقتراض، في اللُّغات محلِّ الدِّراسة بإفريقيا جنوب الصَّحراء.

أ- **غلبة الأسماء:** تُظهر النَّتائج، أنَّ الأسماء هي أكثر أنواع المقترضات في كلِّ لغةٍ من اللُّغات الثَّلاث، تليها الأفعال. فمثلًا، بلغت الأسماء المقترَضَة في المانْدينْغ (٣٠٧)، بمقابل (٢٧) فعلًا، والأسماء في قائمة الـهَوْسا (٧٢١)، بمقابل (٧٠) فعلًا، و(٣٠) حرفًا أو تركيبًا. أمَّا السواحيليَّة فقد أحصينا فيها (١٤١٠) أسماء، من مجموع (٢٧٦٠) مفردة؛ لكنْ تجدر الإشارة إلى أنَّنا قد طرحنا هنا من العدِّ كلماتٍ كثيرة؛ لكونها مشتقاتٍ للأصل الواحد. وعلى كلِّ حالٍ، فإنَّ الأسماء هي الغالبة في جميع القوائم.

ب- غلبة الاقتراض في المجال الدِّيني: تبيَّن أنَّ المقترضات في المجال الدِّيني هو الغالب؛ ففي المفردات المشتركة بين اللُّغات الثَّلاث، التي سبقت الإشارة إلى أنَّ عددها (٢٣٥) كلمة، ظهر أنَّ الحقول الدِّلاليَّة فيها تتوزَّعُ كالآتي:

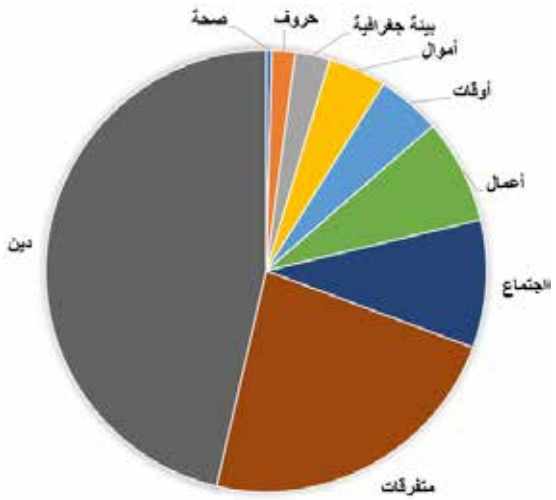

مجال	تكرار	نسبة %
دين	109	46%
متفرقات	54	23%
اجتماع	22	9%
أعمال	18	8%
أوقات	11	5%
أموال	10	4%
بيئة جغرافية	6	3%
حروف	4	2%
صحة	1	0%

شكل١: النسب المئوية للحقول الدلاليَّة للمقترضات العربية باللُّغات الثَّلاث.

كذلك نجد أنَّ مجال الدِّين، هو الغالب في المفردات التي اشتركت فيها لغتا المانْدينْغ والـهَوْسا؛ فقد بلغ (٨٣) كلمة بين مجموع (١٨٣)، أي بنسبة (٤٥,٣٥٪). وهذه النَّتيجة مُنْسَجِمةٌ لما انتهى إليه الباحث[٣٤]، وأنَّ معظم المقترضات الإفريقية للمفردات العربيَّة شائعةٌ في مجال الدِّين، والإدارة، والتِّجارة، والأنشطة اليوميَّة. وبالمقابل، فإنَّ اللُّغة السَّواحيليَّة تنفرد بغلبة الاقتراض فيها، في مجال الأنشطة اليوميَّة، والأدوات الحضاريَّة، مقارنةً بالمقترضات في لغات غرب إفريقيا، التي يغلب عليها المجال الدِّينيُّ بشكلٍ طاغ.

ج- اقتراضٌ حرفي وتركيبي: وردت عدَّةُ مقترضات للحروف، وأدوات المعاني، وبعض التَّراكيب، وهي أكثرُ بلغة الـهَوْسا، ثم السواحيلية، ثم المانْدينْغ، وهذا النَّوع من الاقتراض، دليلٌ على الاحتكاك المطوَّل بين اللُّغة العربيَّة واللُّغات الإفريقية، وجُلُّها في المجال الدِّيني، فمن الأدوات والحروف: إلى، أمَّا، إنْ، أيْن، ومن التَّراكيب: حمد الله، سبحان الله، بِشقِّ الأنفُس، قيلَ وقال.

وإذا كان التَّعرُّضُ للظَّواهر الصَّوتيَّة في المقترضات العربيَّة باللُّغات الإفريقية خارجًا عن حدود الدِّراسة الحاليَّة، فلا بأس من الإشارة إلى وجود اختلافٍ صَوتيٍّ بائنٍ بين اللُّغات، عند اقتراضها للكلمة العربيَّة الواحدة، خاصَّة بين لغات غرب إفريقيا؛ لذلك ليس من اليسير تمييزُ المقترضات العربيَّة في بعض اللُّغات الإفريقية خاصَّة عندما تتعدَّد اللُّغات والوسائط، التي دخلَتْ عَبْرَها المفْرَدَةُ العربيَّة إلى اللُّغة الإفريقية؛ فكلمة «سوق» العربيَّة، قد دخلت معظم اللُّغات الإفريقية بصُوَرٍ مختلفة، فهي بلغة المانْدينْغ «sugu»، و«kasuwa» بلغة الـهَوْسا، و«gasogbi» بلغة كُوتوكو، و«kasku» بلغة الكانوري، و«soko» بلغة الغيكويو، و«su, soko» بلغة المادي، و«soko» بالسّواحيليَّة[٣٥]. وأيضًا، تُقترض كلمة «قُبَّة» بمعنى «ضريح»، بلغة الفلفُلدي بـ (kubbāje)، والكلمة نفسها بلغة الـهَوْسا هي: (hubbārè).

ولا بأس من الإشارة - أيضًا - إلى ظاهرة تطوُّر الدِّلالة؛ فمن نتائج الاقتراض من العربيَّة في اللُّغات الإفريقية، تطوير دلالات الكثير منها، وعلى سبيل المثال: فقد طرأ على كلمة «زمان» عند المانْدينْغ تطوُّرٌ دلالي؛ فأصبحت تعني: بلاد، أو هي مرادفة لكلمة «دَوْلة»، فيقال: Makan Jamana، أي: بلاد مكَّة، ومثلها كلمة «منافق»، وتعني عندهم «نمَّام»، و«خليفة»، بمعنى «وديعة»، و«بُرج»، بروج بمعنى سلسلة النَّسب، وتختصُّ دلالة «درس» عندهم في الحفظ والاستذكار. وعند الـهَوْسا ضاقت دلالة «خط» إلى رسم خطوطٍ في الرَّمل؛ لقراءة الطَّالع، وكلمة «حدث» تختصُّ بحفظ شيءٍ وتسميعه، وكلمة «سلسلة» تختصُّ أيضًا عند الـهَوْسا بسلسلة النَّسب. وهكذا.

وأحيانًا، يتعمَّق تأثير المقترضات العربيَّة ويتوسَّع؛ بحيث تحلُّ الكلمة العربيَّة محلَّ بعض الكلمات، وبالتَّالي تتطوَّرُ معاني تلك الكلمات الأصليَّة باللُّغات الإفريقية، وقد أشار الباحث بالدي، إلى أنَّ ذلك يشيع في مجال المحظور اللُّغوي (taboo)، فكلمة «Azakari» (العضو الذُّكوري) العربيَّة - مثلًا - قد حلَّت محلَّ (Buuraa)

في اللُّغات التشاديَّة، وأصبح إطلاقُ تلك الكلمة الأخيرة محظورًا ممجوجًا في تلك اللُّغات. ومثل ذلك في لغات الفُلفُلدي، والكانوري، والمانْدينْغ والوُلوفْ[٣٦].

وفوق ذلك، فإنَّ الاقتراض من العربيَّة أداةٌ فعَّالة في الإثراء اللُّغوي، وتوليد مفرداتٍ جديدة باللُّغات الإفريقية، وعلى سبيل المثال، فقد عدَّدنا حوالي ثلاثين مفردةً جديدةً، مشتقَّة من كلمة «صلاة» (Sali/seli)، المقترضة بلغة المانْدينْغ، منها: seli-ba, seli-kalo, seli-kilila, seli-daga, seli-golo, seli-juru, seli-fana أي: عيد الأضحى، ذو الحجة، مؤذِّن، ميضَأة، سجَّادة، صلاة فائتة، صلاة الظُّهر... على التَّوالي.

٤ - المقترضات وتعليم اللُّغة العربيَّة ونشرها بإفريقيا

للمقترضات أثرٌ كبيرٌ في تعلُّم اللُّغة الثَّانية؛ لأنَّها تقوم بتسهيل عمليَّة التَّعليم، بوصفها جسرًا واصلًا بين اللُّغة الأمِّ واللُّغة الهدف، ولأنَّها تضطلِعُ بمهمَّة ردْمِ بعض الفواصل والفجوات بين اللُّغات، وتعزيز ثقة الدَّارس بنفسه، وتبديد حاجز الخوف والغُربة، التي قد يَشعُرُ بها عند اقتحامه لغةً جديدة.

وفي هذا السِّياق، أكَّدتْ دراساتٌ كثيرةٌ أهميَّة المقترضات، في تسهيل عمليَّة تعلُّم المفردات في اللُّغة الثَّانية، ومنها على سبيل المثال: دراسة (Jonathan Ferries, 2022)[٣٧]، ودراسة (Nguyen & Kim, 2021)[٣٨]، ودراسة (Jensen, B. 2023)[٣٩]، وهي جميعًا تؤكِّدُ فاعليَّة المفردات المقترضة في اكتساب المفردات. كما اختصَّت دراساتٌ أخرى ببيان فاعليَّة المقترضات من اللُّغة الإنجليزيَّة للنَّاطقين بلغاتٍ محدَّدة، ومن ذلك دراسة: (Inagawa, M. 2014)[٤٠]، حول النَّاطقين باليابانيَّة، ومنها دراسة (Kent, D. 2016)[٤١] حول المقترضات الإنجليزيَّة باللُّغة الكوريَّة. ودراسة (Zhang, Y., 2022؛ Wang, J., 2023)[٤٢]، للصِّينيِّين. وفي الجانب الأوروبي توجد دراسة (Janurik, S. 2010؛ Fedorova, K. & Nikitina, 2022)[٤٣]، للدَّارسين الرُّوس، ودراسة (Smead, Robert N., 1998)[٤٤]، للنَّاطقين بالإسبانيَّة. ومن الدِّراسات في الشَّرق الأوسط وإفريقيا: دراسة (Al-Tamimi, A. Y., 2015؛ و Al-Athwary, A. A. H. 2017)[٤٥]، للنَّاطقين بالعربيَّة، ودراسة (Ali U. Muhammad. & Muhammad A. 2016)[٤٦]، للنَّاطقين بالهَوْسا، ودراسة (Mwangaza, J. 2021؛ Anna J. M. Kishe, 2003)[٤٧]، للنَّاطقين بالسواحيليَّة. فهذه الدِّراسات وأمثالها قد أكَّدت فاعليَّة المقترضات في اكتساب اللُّغة الثَّانية، وبالتَّحديد تعليم الإنجليزيَّة (ESL).

هذا، وتنطلق إستراتيجيَّةُ اعتماد المقترضات في تعلُّم المفردات، من مُسلَّمة كون الدَّارس أقرب إلى فهم المعلومات، التي لها ارتباطٌ بما هو مُستَقَرٌّ لديه من معلومات مُسبقة. وبتعبيرٍ آخر: إنَّها تقوم على مبدأ «الانطلاق من المعلوم إلى المجهول»[٤٨]، وأنَّ ربط المعلومة الجديدة بالسَّابقة يُعزِّز الفهم، ويُخفِّف من المجهود الذِّهني لدى الدَّارس.[٤٩]

وفي مجال تعلُّم المفردات بخاصَّة، فإنَّ المقترضات تقوم بوظيفة تسهيل ربط لغة الدَّارس باللُّغة الجديدة، وذلك حين يتعرَّفُ الدَّارسُ على مفرداتٍ مُشَابِهَةٍ لما عَهِدَهُ في لغته؛ فيشُعر بشَيْءٍ من الارتياح في عمليَّة التَّعلُّم. وبتعبير الباحث (Rinbowm, 2007)[٥٠] فإنَّ «المقترضات قد تُمدُّ الدَّارسَ بحسٍّ من الألفة، وتُخَفِّفُ عنه الوطأة النَّفسيَّة، وتُروِّج له اكتساب اللُّغة».

وكذلك، فإن من البَدَهي أنَّ نسبة القرب والبُعد بين اللُّغة الأمِّ واللُّغة الهدف تؤثِّرُ مباشرةً في مدى الجهد المبذول لتعلُّم اللُّغة الهدف، ومُهِمَّة المفردات المقترضة التَّخفيف من هذا المجهود الذِّهني على الدَّارس؛ إذْ تقوم بتسهيل عمليَّة التَّعلُّم، بحيث تُمكِّن الدَّارسَ من القيام بعمليَّة استنتاج عقليٍّ مُبَاشِرٍ لسياق الكلام، وإنْ لم يكن عارفًا بمعظم المفردات الواردة في التَّركيب. وفي ذلك تخفيفٌ عليه في العمليَّة الذِّهنيَّة التي يقوم بها، إزاء المفردات الجديدة عليه بالجملة. كما أنَّ احتفاظ معظم المفردات ببعض خَصَائِصِها الصَّوتيَّة الأصليَّة يُعزِّز من هذا التّخفيف في عمليَّة اكتساب المفردات[٥١].

وبالإضافة إلى ذلك كلِّه، فإنَّ المقترضات «تُمَثِّلُ جزءًا مُهِمًّا من المعجم اللُّغويِّ للمجتمع؛ ممَّا يجعلها أداةً ضروريَّة للتَّواصل الوظيفيِّ»[٥٢]، فالمقترضات إنَّما اكتَسبَت ميزة الاقتراض لحاجة المجتمع المقتَرِض إليها، ولكَثْرَةِ دوَرَانها في الخطاب الوظيفي اليومي.

هذا، ومن المعلوم أنَّ الدَّعوة إلى اعتماد المقترضات في تعلُّم المفردات لا يُرادُ بها الاعتماد الكليُّ على المقترضات؛ إذ قد يؤدِّي هذا الاعتماد الكليُّ إلى ما يُعرَف بالتَّعلُّم السَّطحي (Superficial Learning)؛ حيث قد يجهل الدَّارس الظِّلال المعنويَّة والسِّياقات الاجتماعيَّة المرتبطة بالمفردة؛ فيقع في التَّعميم الخاطئ[٥٣]؛ بإسقاط النُّطق الذي عهِدَهُ في لغته الأمِّ للكلمة المقترضة، على النُّطق الصَّحيح الأصلي[٥٤]؛ لكنَّ هذا التَّحدِّي الصَّوتيَّ قد يكون مرتكزًا لدى المدرِّسين، لتعزيز وعي الدَّارس بالاختلافات والتَّشابهات الصَّوتيَّة، بين لغته واللُّغة الهدف[٥٥].

أمَّا على المستوى الدِّلاليّ فإنَّ في المقترضات خصائِصَ ليست في غيرها؛ إذ يمكن بها تعريف الدَّارس بالسِّياقات الاجتماعيَّة والثَّقافيَّة للكلمة المقترضة، ومقارنة ما قد يَعْتَرِي الكلمة من انزياحٍ دلاليٍّ بين أصله، واللُّغة المقتَرِضَة.

٥- معجم مقترح للمقترضات العربيَّة في اللُّغات الإفريقية

بناءً على ما سبق، فإنَّ الحاجة ماسَّةٌ لوضع معْجَمٍ، أو قاعدة بياناتٍ، للمفردات العربيَّة المقترضة باللُّغات الإفريقية، وإعطاء تلك المفردات الأولَويَّة، في برامج تعليم العربيَّة للنَّاطقين بلغاتٍ أخرى بإفريقيا. وبما أنَّ وضع خطَّة مفصَّلة لمثل هذا المشروع خارجٌ عن حدود الدِّراسة الحاليَّة، فالكفايةُ هنا بِوَضْعِ الخطوطِ العريضة، والتَّصوُّر العامِّ لهذا المعجم، أو قاعدة البيانات المنشودة.

أ- **تحديد اللُّغات الإفريقية المستهدَفَة:** يمكن اختيارُ كبريات اللُّـغات في كلِّ منطقةٍ إفريقيَّة، وذلك باتِّباع التَّوزيع اللُّغوي المعهود بالقارَّة جنوب الصَّحراء، على أنْ يشمل هذا الاختيار لغةً أو أكثر من كلِّ فصيلةٍ لغويَّة (خمس أُسَرٍ لغويَّة)، وأنْ تكون الأولويَّة للُّغات ذات الأكثريَّة المسلمة؛ لكَوْنِ الاقتراض فيها أكثَرَ من غيرها.

ب- **توسيع مصادر الجمع:** من الأفضل ألَّا تتوقَّف وسِيلَةُ جمع مادة هذا المعجم، على المعاجم والكتُب المطبوعة، وإنَّما يُستَحَسَنُ توسيع مصادر الجمع؛ لتشمل النُّصوص الأدبيَّة، والشَّفويَّة، والإعلاميَّة، والمصادر التي تُعرف بـ»عَجمي»، وهي النُّصوص التي كُتِبَت بلغةٍ غير عربيَّة، ولكنْ باستخدام حروفٍ عربيَّة[٥٦]، وغير ذلك من المصادر المحتَمَلة للمقترضات العربيَّة.

ج- **تصميم قاعدة بياناتٍ مفصَّلة:** ينبغي أن يعتمد إعدادُ هذا المعجم على قاعدة بياناتٍ إلكترونيَّة جيِّدة التَّصميم، تشمل جميع الخصائص المُمْكِنَةِ للمفردة المقترَضَة، مثل: خصائصها الصَّرفيَّة العربيَّة، ونطقها باللُّغات الإفريقية، والتَّغييرات الصَّوتيَّة والصَّرفيَّة والدِّلاليَّة التي طرأت عليها، وربَّما تاريخها وسياقات استخدامها، وغير ذلك من خصائص المفردة.

د- **مراجعة محتوى المعجم وتحديثه:** ينبغي إخضاعُ محتوى المعجم المنشود للمراجعة من قِبَل لغويِّين مُتَخَصِّصين عرب وأفارقة، وتحديثه باستمرارٍ؛ لأنَّ المفردات المقترضة حيَّةٌ فاعلة، وقد تظهرُ مقترضاتٌ جديدةٌ بين حينٍ وآخر، وقد تكتسب دلالاتٍ طارئة كذلك.

وقبل ذلك كلِّه، فإنَّ اقتراح وضع هذا النَّوع من المعاجم، والتَّأكيد على أنَّه وسيلةٌ لتسهيل تعليم العربيَّة للنَّاطقين بلغاتٍ إفريقيَّة، يقوم على مُسلَّماتٍ وحقائق كثيرة حول اللُّغة العربيَّة بإفريقيا، ومنها على سبيل المثال:

أ- **علاقة عُضويَّة طبيعيَّة:** تلتقي اللُّغة العربيَّة في علاقةٍ عضويَّة بعددٍ من اللُّغات الإفريقية، وخاصَّة اللُّغات التي تنتمي لعائلة اللُّغات الأفرو - آسيويَّة (Afro-Asiatic): ومنها: الأوروميَّة، والصُّوماليَّة، والأمهريَّة، وعن طريق تلك اللُّغات، تلتقي اللُّغة العربيَّة بعلاقةٍ غير مباشرةٍ، بسائر اللُّغات الإفريقية[٥٧].

ب- **العربيَّة عامل تنمية:** اللُّغة العربيَّة عنصرٌ جوهريٌّ في تنمية الدُّول الإفريقية؛ بوصفها لغةً دبلوماسيَّة، ولغة علاقات دُوَليَّة، وكونها أهمَّ مصدرٍ مكتوبٍ لتاريخ كثيرٍ من الشُّعوب الإفريقية؛ وعليه فإنَّ اللُّغة العربيَّة، هي جزءٌ ركيزٌ في تاريخ كثيرٍ من الشُّعوب الإفريقية وهُوِيَّتها. ولعلَّ توجُّس أصحاب القرار اللُّغويِّ بإفريقيا من اللُّغة العربيَّة ناشئٌ عن جَهْلِهِمْ بتلك الخصائص والحقائق حول العربيَّة، يُضافُ إلى ذلك بعضُ الحساسيَّات العِرقيَّة والدِّينيَّة لدى بعضهم، وقد

أشار الباحثُ (Ayuba, M.A. 2012:193)[٥٨] إلى ذلك، وذكَرَ أنَّ الارتباط الوثيقَ بين اللُّغة العربيَّة والإسلام قد أفضى بالحكومات الإفريقية إلى تجاهُل الإمكانات التَّنمويَّة في اللُّغة العربيَّة.

ج- **سعة الانتشار:** تتميَّزُ اللُّغة العربيَّة بكونها أكثر لغات إفريقيا انتشارًا؛ حيث تفيد إحصاءات عام (٢٠١١م)، أنَّ حوالي (١٧٪) من سُكان إفريقيا يتحدَّثون العربيَّة. بينما لا يتحدَّث بالسواحيليَّة – مثلًا – إلّا حوالي (١٠٪)، وبالـهَوْسا إلّا (٥٪)، وهما اللُّغتان الأكثر انتشارًا بالقارَّة. وفي الوقت الحاضر، فإنَّ اللُّغة العربيَّة تكتَسِبُ مزيدًا من الأهميَّة في دُوَلٍ مثل: السنغال، ومالي، والنيجر، ونيجيريا، وبوركينا فاسو، إلخ... بسبب الانتشار الإسلامي في تلك البلدان، وبنشوء طبقةٍ من المتعلِّمين خريجي الجامعات العربيَّة، وتأثير تلك الطَّبقة العميق في مجتمعات إفريقيا الحديثة. كما يعودُ نُشُوءُ الكثير من المقترضات العربيَّة على أيدي طبقات: الوعاظ، والقُصَّاص، والمذكِّرين، وخاصَّة الشَّباب المؤثِّرين على شبكات التَّواصل الاجتماعيِّ من خريجي الجامعات العربيَّة والمثقَّفة. فالعربيَّة في نيجيريا – مثلًا – هي لغة التَّعليم الرَّسميَّة، إلى جانب الإنجليزيَّة والفرنسيَّة، وهي بلا شكّ – في الواقع العمليِّ– أقوى وأكثر انتشارًا من الفرنسيَّة بنيجيريا.

٦- خاتمة ونتائج وتوصيات

لقد قامت الدِّراسة الحاليَّة حول إشكالٍ محوَرِيٍّ، هو ضعف الإشارة إلى المقترضات العربيَّة في معاجم اللُّغات الإفريقية. وعليه، فإنَّ هذه الدِّراسة قد اسْتَقصت التَّأثير العربيَّ في اللُّغات الإفريقية، في مستوى الاقتراض اللُّغويِّ، واختارت ثلاث لغاتٍ لهذا الاستقصاء، وهي: (السواحيلي، والمانْدينْغ، والـهَوْسا). وعليه، فقد تبيَّن من خلال هذه الدِّراسة، أنَّ العربيَّة قد تَرَكَتْ بصماتٍ واضحةً على معظم اللُّغات الإفريقية بمنطقة جنوب الصَّحراء، وذلك نتيجةً للاحتكاك المطوَّل بين العربيَّة واللُّغات الإفريقية، عبر التِّجارة الصَّحراويَّة والحضارة الإسلاميَّة، ويتمَظهَرُ ذلك في اللُّغات التي تُعرَفُ عادةً بلغات الشُّعوب المسلمة مثل: السواحيلي، والفولاني، والـهَوْسا، والمانْدينْغ، والوُلُوفْ، فقد ظهر أنَّ نسبة اقتراض بعض تلك اللُّغات من العربيَّة قد تجاوزت (٣٠-٤٠٪).

أمَّا عن المقترضات في اللُّغات الثَّلاث محلِّ الدِّراسة فقد تبيَّن أنَّها تحظى بنِسَبٍ عاليَةٍ من المقترضات العربيَّة، وجاءت السَّواحيليَّة في المرتبة الأولى، ثم الـهَوْسا، ثم المانْدينْغ. كما وُجِدَتْ أكثر من مائتَيْ مفردة عربيَّة مشتركة بين تلك اللُّغات الثَّلاث، وأنَّ المجال الدِّينيَّ يمثِّل أعلى مستوى في اقتراض اللُّغات الإفريقية من العربيَّة، وتفوَّقت لغتا الـهَوْسا والمانْدينْغ على السواحيلي في هذا المستوى من الاقتراض، في المجال الدِّيني.

ولكن، يُلاحَظُ أنَّ السواحيليَّة تتفوَّق تفوُّقًا واضحًا على اللُّغتَين المذكورتَين، في المجال التِّجاري والسِّياسي، وذلك نتيجةٌ طبيعيَّة للتَّلاقي التَّاريخيِّ المطوَّل بين العربيَّة والسّواحيليَّة عبر التِّجارة. وهنا يذهب الباحث (Bosha, 1993: 31)[٥٩] إلى أنَّ أكثر من ٧٠٪ من المفردات السواحيليَّة في المجال الاقتصاديِّ، وأكثر من ٥٠٪ في المجال السِّياسي عربيَّة الأصل.

وبالإضافة إلى غلبة اقتراض اللُّغات من العربيَّة في المجال الدِّيني، فإنَّ الدِّراسة الحاليَّة قد رصدت ثمانية مجالاتٍ أخرى، للمفردات العربيَّة المقترضة باللُّغات الإفريقية، ومنها: مجال الأعمال اليوميَّة، والأدوات الحضاريَّة، والتِّجارة، والزِّراعة، والعلاقات الإنسانيَّة، والبيئة، والجغرافيا. وعليه، فإنَّ السُّؤال المحوريَّ، والأسئلة الأربعة المطروحة أوَّلَ هذه الدِّراسة قد أجيبَتْ بشكلٍ إيجابي.

ومن جانبٍ آخر، فإنَّ الدِّراسة الحاليَّة قد تعرَّضت للنَّتائج الإيجابيَّة للمقترضات في تعلُّم اللُّغة العربيَّة ونشرها بإفريقيا.

واستنادًا لهذه الحقائق والنَّتائج المشار إليها أعلاه، فإنَّ الدِّراسة الحاليَّة توصي بجملةٍ من الإجراءات، وهي:

أ- وضع معجمٍ متخصِّص في المقترضات: ويستهدف هذا المعجم توثيق المفردات العربيَّة المقترضة باللُّغات الإفريقية، بشكلٍ علميّ دقيقٍ وشاملٍ، لما أمْكَنَ من المجالات الدِّلاليَّة، بحسب كلِّ لغة.

ب- تدريب المعجميِّين: وهذا إجراءٌ ضَروريٌّ لنجاح خُطَّة وضع معجمٍ متخصِّص، ويستهدف هذا البرنامج تدريب مجموعاتٍ من النَّاطقين الأصليِّين باللُّغات الإفريقية، وذوي كفاءة لا بأس بها بالعربيَّة، ومن خرِّيجي الجامعات العربيَّة بخاصَّة، على مهارات عمل المعاجم، من تحليل مفردات، وتصنيفها، وشرحها شرحًا علميًّا.

ج- تشجيع الدِّراسات المعجميَّة العربيَّة حول اللُّغات الإفريقية: فمن الظَّاهر أنَّ الأعمال المعجميَّة حول اللُّغات الإفريقية ضعيفة؛ مقارنةً بالمجالات البحثيَّة الأخرى، مثل: الدِّراسات الشَّرعية، والأدبيَّة، والتَّاريخيَّة؛ فالمعاجم العربيَّة للُّغات الإفريقية نادرةٌ، والمتوفر منها، إنَّما جاء من مبادراتٌ فرديَّة غير متخصِّصة؛ فلا وجود – مثلًا – لمعجمٍ عربيٍّ للغة المانْدينْغ، على الرُّغم من مكانة هذه اللُّغة، وعلاقتها الوثيقة بالعربيَّة.

ملحق١: المفردات المقترضة المشتركة بين السواحيلي، والمانْدينْغ، والـهَوْسا.

اثنين	إحسان	أدب	برزخ	تسبيح	تيمم	جنازة
اجتهاد	إمام	آخرة	بركة	توبة	جزء	جنة
الله	إيمان	آية	بسم الله	توحيد	(مصحف)	جهنم
إبليس	أجل	بدعة	بعدَ	توكل	جنابة	حاج

حج	صلاة	مكروه	شك	معلم	مرحبا	شرط
حديث	صوفي	ملائكة	صابون	وليمة	هكذا	شغل
حرام	صوم	منافق	طاسة	أوقية	يا (إما)	صوُرَ
حلال	ضحية	منبر	طوبة	بيت المال	اتفق	عدل
خطبة	ضرورة	مولد	فصيح	تاجر	إذن	فائدة
دعاء	طريقة	مؤمن	قاعدة	خسارة	إشارة	فهم
دين	طواف	ميقات	لقمة	درهم	أصل	قبر
ربا	عصر	نافلة	لؤلؤ	دينار	أمر	قدْر
رزق	غنيمة	نبي	نحو (علم)	زمان	بدَلٌ	(درجة)
ركعة	فاسق	نص	بُرٌّ	قسم (عدد)	بلَغ	قرأ
ركوع	فتوى	نصارى	طالب	ميزان	بلاء	قصة
روحاني	فجر	واجب	أب	ورق (مال)	تأخير	قصيدة
زكاة	فداء	وتر (شفع)	أمين	أبدا	ثبات	كذا
زيارة	(موت)	وعظ	بابا، والد	أحد	جرب	لزوم
سبحان	فريضة	ولي	جاهل	أربعاء	جهد	مثَّل
سجود	فسر	يوم القيامة	جماعة	أربعين	حاجة	مثال
سلم	قنوت	أذان	حسد	تاريخ	حزن	مصيبة
(مسلم)	قيامة	درجة	حكمة	ثلاثاء	حضر	معنى
شرك	كافر	(قدَر)	خليفة	خميس	حق	(قصة)
شريعة	كامل	دليل	دولة	دائم	حقيقة	مقام
شريف	كتاب	صحيح	ذرية	دنيا	حكم	مني
شفع (وتر)	كرامة	نور	زنا	رجب	حيض	نعمة
شهادة	كفارة	نية	ظالم	سنة	خبر	نقص
شهوة	كلمة	ألَّف، تأليف	عادة	بحر	خير	هلك
شهيد	لوح	ألف	عرب	زبيب	ذات	هيبة
شيخ	مجوسي	(حرف)	عيب	زيتون	رحمة	وسواس
شيطان	محراب	بيان	فتنة	طبيعة	سبب	وكيل
صدقة	مسجد	بيت	قبيلة	ليمون	ستر	يأجوج
صراط	مشرك	جيب	مجلس	مرجان	سرّ	
صف	معجزة	خاتم	محبة	باسور	سفر	
صفة	مكة	سُكر	مسكين	إلا	شرح	

الهوامش والإحالات

(1) Lyle Campbell, *Historical linguistics: An introduction, 2nd ed.* (Cambridge, MA: The MIT Press, 2004), 61.

(2) Kees Versteegh, "Heavy and light borrowing of Arabic verbs," In *The Word in Arabic*, edited by Giuliano Lancioni and Lidia Bettini (Leiden: BRILL, 2011), 215.

(3) Bernd Heine and Derek Nurse, *African Languages: An Introduction* (Cambridge: Cambridge University Press, 2000), 1.

(4) Gaston Canu, "Remarques sur quelques emprunts lexicaux en Moore," *Journal of West African Language*, 5:1, 1968, 25-34.

(5) Brooks George, A provisional historical schema for Western Africa based on seven climate periods (ca. 9000 BC to the 19the Century). Cahiers d'Etudes Africaines 26: 1986, 43-62.

in: G. Tucker Childs. 2002. Borrowing into Kisi as evidence of Mande Espansionist. Journal of West African Languages. xxix, No.2, pp.89-120.

(6) George Tucker, "Borrowings into Kisi as Evidence of Mande Expansionism and Influence," *Journal of West African Languages*, 29: 2, 2002, 89-120.

(7) Abubakre R.D, "Survival of Arabic in Difficult Terrains," *The Fifth-Eight Inaugural Lecture Delivered*, (Ilorin: University of Ilorin, 2002).

(8) Adewuni Salawu, "The Spread of revealed religions in West Africa and its implications for the Development of Translation," *Journal of Translation*, 3:2, 2007, 30.

(٩) زكرياء القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، (بيروت: دار صادر، د.ت)، ١٩.
- إسحاق ابن الحسين، آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كلِّ مكان، ت: فهمي سعد، (بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م)، ١٠٤.
- أبو الحسن المسعودي، أخبار الزَّمان، (بيروت: دار الأندلس، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م)، ٨٨.

(١٠) أبو عبيد البكري، المسالك والممالك (د.م، د.ن، ٤٧٥هـ/١٠٨٢م)، ص١٤٥٧.

(11) Francesco Zappa, "When Arabic resonates in the words of an African Language: Some Morphological and Semantic Features of Arabic Loanwords and Calques in Bambara," In *The Word in Arabic*, 62, edited by Giuliano Lancioni and Lidia Bettini (Leiden: BRILL, 2011), 230.

(12) Sarah Thomason and Terrence Kaufman, *Language Contact, Creolization, and Genetic Linguistics* (Oakland, CA: University of California Press, 1988), 217.

(13) Ali Mazrui and Alamin Mazrui, *The Power of Babel: Language and Governance in the African Experience* (Chicago: University of Chicago Press, 1998), 112.

(14) Derek Nurse and Thomas Hinnebusch, *Swahili and Sabaki: A Linguistic History* (Oakland, CA: University of California Press, 1993), 1.

(15) Paul Lewis, et al., Ethnologue: Languages of the World, 18th edition (Dallas, TX: SIL International, 2015), 105.

(16) Alamin Mazrui, The Swahili: Idiom and Identity of an African People (Trenton, NJ: Africa World Press, 1994), 23.

(17) Fridah Kanana, "Examining African Languages as tools for national development: The case of Kiswahili," *The Journal of Pan-African Studies*, 6: 6, 2013, 42.

(18) Thomas Hinnebusch and Sarah Mirza, *Swahili: A Foundation for Speaking, Reading, and Writing* (Maryland: University Press of America, 1998).

(19) Sergio Baldi, "Arabic loans in some Nilotic-Saharan languages," *Folia Orientalia*, LIV, 2017.

(20) Alamin Mazrui, "Geographic and Demographic Spread of Swahili," *The Cambridge handbook of language contact*, 1, 1993, 360.

(21) Tucker Childs, *An Introduction to African Languages* (Amsterdam: John Benjamins, 2003), 75.

(22) Sergio Baldi, "Arabic Influence in West Africa: An Overview," *Folia Orientalia*, 57: 15, 2020, 20.

(23) Valentin Vydrin, Bamana Dictionary. St. Petersburg: Language Documentation & Conservation, 2009, 5.

(24) Zappa, "When Arabic resonates in the words of an African Language: Some Morphological and Semantic Features of Arabic Loanwords and Calques in Bambara," 233.

(25) Zappa, "When Arabic resonates in the words of an African Language," 229.

(26) Tucker, "Borrowings into Kisi as Evidence of Mande Expansionism and Influence," 89-120.

(27) Pual Newman, *The Hausa Language: An Encyclopedic Reference Grammar* (New Haven, CT: Yale University Press, 2000), 1.

(28) Philip Jaggar, Hausa (Amsterdam: John Benjamins Publishing Company, 2001), 12.

(29) Baldi, Arabic Influence in West Africa: An Overview, 11-23.

(30) Sergio Baldi and Rudolf Leger, "Arabic Loans in Bole-Tangale," *in Studies on Language and African Linguistics in Honor of Marcello Lamberti*, edited by Luca B. et al. (Milano: QUASARSRL, 2011), 3-14.

(31) Kai Kresse, "The role of Arabic in Swahili and other East African languages," *In: The Role of Arabic in African Languages* (London: Routledge, 2010), 29-45.

(32) Hodge, "Swahili loanwords from Arabic: A lexical and semantic analysis," *Journal of African Language Studies*, 15:1, 1984, 45-58.
- Ghouston, M, "Arabic influence on the languages of the East African coast," *De Gruyter: Journal of African Languages and Linguistics*, 10:2, 1988, 89-102.

(33) Salih, M, "Arabic influence on the administrative lexicon of African languages," *African Studies Review*, 45: 3, 2002, 73-92.

(34) Herman Batibo, "The Growth of Kiswahili as a Language of Education and Administration in Tanzania," In *Discrimination through Language in Africa?*, edited by Martin Putz, (Boston: De Gruyter Mouton, 1995), 58-80.

(35) Wolf Leslau, *Reference Grammar of Amharic* (Wiesbaden: Harrassowitz Verlag, 1995), 131-154.

(36) Sergio Baldi. *Dictionnaire des empruntsarabes dans les langues de l'Afrique de l'Ouest et en Swahili*, (Paris: Karthala, 2008), 150.

(37) Jonathan Ferries, "A Corpus Analysis of Loanword Effects on Second Language Production," *Englishes in Practice*, 5:1, 2022,107-132.

(38) Le Thi Cam Nguyen and Paul Nation, "A bilingual vocabulary size test of English for Vietnamese learners," *RELC Journal*, 42: 1, 2011, 86–99.

(39) Jensen, B. R, "The role of loanwords in second language vocabulary acquisition: Insights from ESL contexts," Language Teaching, 2023, 3-4.

(40) Inagawa, M, "A re-examination of loanwords as an aid for English language learning and teaching," *Intl. J. of Liberal Arts nd Social Science*, 2: 3, 2014, 13-26.

(41) David Kent, A loanword approach to the teaching of English as a foreign language in Korea, (Sydney: Pedagogy Press, 2016).

(42) Wang, J, "The influence of English loanwords on Chinese ESL learners' vocabulary retention," *International Journal of Chinese Linguistics*, 2023.
- Zhang, Y, "Loanwords and vocabulary acquisition: A study of English loanwords among Chinese ESL learners," *Chinese Journal of Applied Linguistics. Theory and Practice in Language Studies*, 2022, 1816-1819.

(43) Fedorova, K. S. and Nikitina, L. V, "Russian ESL learners and the integration of English loanwords: Effectiveness and challenges," Journal of Language Teaching and Research, 2022.
- Szabolcs Janurik, "The Integration of English Loanwords in Russian: An Overview of Recent Borrowings," Studia Slavica, 55: 1, 2010, 45–65.

(44) Robert Smead, "English Loanwords in Chicano Spanish: Characterization and Rationale," *Faculty Publications*, 1998, 113-123.

(45) Anwar Al-Athwary, "The Phonotactic Adaptation of English Loanwords in Arabic," *Arab World English Journal*, 8: 3, 2017, 392-406.
- Al-Tamimi, A. Y, "Arabic Loanwords in English: The Neglected Asset of Arab EFL Learners," *International Journal of Bilingual Education and Bilingualism*, 18: 6, 2015, 578–591.

(46) Ali Muhammad and Muhammad Assistant, "Lexical Borrowing from Arabic and English into the Hausa Language," *POLACJELF*, 1: 4, 2016, 52-66.

(47) Anna Kishe, "English Influence on Kiswahili: The View of Language Purists," *Journal of Linguistics and Language in Education*, 5: 1, 2003, 1-21.
- Mwangaza, J. K. "Loanwords and ESL vocabulary development: The case of Swahili speakers," *Swahili Studies*, 2021.

(48) Paul Nation, *Teaching Vocabulary in Second Language Acquisition* (Cambridge: Cambridge University Press, 2021), 89.

(49) Schmidt, R. *Cognitive Processes in Vocabulary Learning* (Oxford: Oxford University Press, 2020), 125.

(50) Hakan Ringbom, "Cross-linguistic Similarity in Foreign Language Learning," In *the series Second Language Acquisition* (Bristol: Multilingual Matters, 2007).

(51) Holliday, A., & Kullman, J. "Loanwords and Language Teaching: Bridging the Gap between Languages," *Applied Linguistics Review*, 13: 2, 2022, 140-150.

(52) Paul Nation, *Learning Vocabulary in Another Language* (Cambridge: Cambridge University Press, 2013).

(53) Peterson, R. "Cultural Nuances in Loanwords: Implications for Second Language Learning," *Journal of Linguistics and Education*, 21: 4, 2023. 85-95.

(54) Branard Smith and Michael Swan, *Learner English: A Teacher's Guide to Interference and other Problems*, 2nd ed (Cambridge: Cambridge University Press, 2001), 2.

(55) Smith and Swan, *Learner English: A Teacher's Guide to Interference and other Problems*, 2.

(56) Hess, R. "The Role of Arabic Script in West African Manuscript Traditions," *Journal of African cultural Studies*, 22: 2, 2010, 135-148.

(57) Salawu, "The Spread of revealed religions in West Africa and its implications for the Development of Translation," *Journal of Translation*, 30.

(58) Ayuba, M. A. "The Arabic Language: Its Relevance to Nigerian Development," *European Scientific Journal*, 8: 26, 2012, 193-202.

(59) Ibrahim Bosha, *Taathira za Kiarabu Katika Kiswahili pamoja na Kamusi Thulathiya (The influence of Arabic language on Kiswahili with a trilingual dictionary*), (Dar es Salaam: Dar es Salaam University Press, 1993), 31.

مكانة اللغة العربية في إفريقيا الغربية بين الأمس واليوم

د. كبا عمران، أستاذ التعليم العالي وعميد كلية الآداب وعلوم اللغة في جامعة الجنرال لانسانا كونتي في سنفونيا، كوناكري.

إن مكانة اللغة العربية في إفريقيا الغربية تعدّ من الموضوعات القديمة، التي سبق أن تناولها بعض الباحثين، ولكن الجديد الذي تمتاز به هذه الدراسة، في معالجة هذا الموضوع، هو أنّها تجمع في طياتها حديثًا شاملًا لعلماء المنطقة، بعيدًا عن اقتصار أكثر الباحثين على دولهم في تناول الموضوع نفسه؛ إذ لا مراء أن التواصل الثقافي يكاد يكون مفقودًا بين علماء المنطقة والأساتذة الجامعيين، الذين لا يحيطون – غالبًا - إلّا بتراثهم الوطني، لا سيّما الطلبة الذين لا تتسع معلوماتهم خارج تراث دولهم، لأن مناهجهم الدراسية لا توفّر لهم فرص التعريف بعلماء الدول المجاورة وبمؤلفاتهم وبإنتاجاتهم العلمية والأدبية، وينبغي أن نسدّ هذه الثغرة في دراساتنا العلمية الحديثة.

ومن هنا تكمن المشكلة العلمية لهذا البحث، والتي يمكن أن تتبلور في هذا السؤال: ما المكانة البيئية للغة العربية منذ دخولها إلى منطقة إفريقيا الغربية قديمًا وحديثًا؟

ومن هذا التساؤل تتفرع أسئلة البحث الآتية

١- متى وكيف وفدت هذه اللغة العربية إلى هذه المنطقة؟

٢- ما العوامل والأسباب التي سنحت لهذه اللغة بالبقاء والتأثير في اللغات المحلية؟

٣- ما الوضعية التي تتمتع بها اللغة العربية لمعرفة مستقبل تطوّرها في المنطقة؟

إنّ ما نفترض أنّه إجابة عن هذه الأسئلة، يتمثّل في أنّ ظاهرة وجود الإسلام، وسرعة انتشاره، وقبوله لدى السكان، لدليل على الترحاب الذي تمتّعت بها اللغة العربية في هذه المنطقة، والتي هيّأت لها أسباب البقاء والتأثير في لغات القبائل المسلمة، التي دمجت بين تقاليدها والتعاليم الإسلامية.

لذا استُهدِف في هذه الدراسة ما يأتي

١- توضيح إشكالية وفادة اللغة العربية في المنطقة، وسيرورتها لدى القبائل المسلمة.

٢- تحليل العوامل الاجتماعية والبيئية، التي سمحت للغة العربية بالبقاء والتطور.

٣- إبراز جوانب كثيرة من مكانة هذه اللغة الغرّاء في منطقة إفريقيا الغربية.

ومن أغراضنا في هذا البحث، أن نؤكّد افتقار مناهجنا الدراسية إلى الإحاطة بالتراث العربي الإسلامي الإفريقي في المنطقة، لتدرجها الجامعات في أهدافها التربوية، وليعنى الباحثون بقضاياه في أبحاثهم العلمية، وليعالج مسائلها الأساتذة في محاضراتهم وندواتهم الثقافية.

وإذا ما توخّت مناهجنا الدراسية إحياء هذا التراث، فلا شكّ أن ذلك سيدفع عجلة التقدم لهذه اللغة، كي تبرز مكانتها في المنطقة، في المجالات السياسية، والصحافية، والثقافية، بدلًا من أن تظلّ في المجالات الدينية والحلقات الدراسية. ولا ريب أن هذه الدراسة ستعالج كثيرًا من هذه القضايا العلمية والتاريخية، ونرجو من الباحثين أن يوجّهوا أقلامهم للغوص في قضايا التراث العربي الإسلامي في المنطقة.

إن هذه الدراسة ستنهج على منهج تاريخي ووصفي

تفرض علينا طبيعة هذا الموضوع، أن نستند إلى المنهج التاريخي، لتطبيقه على جزء كبير من محاور هذا البحث، من تتبّع دخول هذه اللغة إلى المنطقة، ومتابعة تغلغلها في المجالس التعليمية، وتطوّرها في المراكز العلمية. أمّا الوقوف على مدى تأثيرها في اللغات المحلية، ومكانتها الروحية في المجتمعات البيئية، فهي قضايا معيشة، وإن كانت جذورها ما زالت تاريخية، وما زالت آثارها حيّة ومعمولًا بها في حياتنا البيئية، الأمر الذي يجعلنا نطبق عليها المنهج الوصفي التحليلي.

وبهذا تظهر لنا محاور البحث في هذه الخطة المنهجية على النحو الآتي

مقدمة: وفيها عرض الموضوع، ومشكلته، وأهدافه، وتليها محاور البحث الرئيسة، وهي:

- أولًا- وصول اللغة العربية إلى إفريقيا الغربية وانتشارها.
- ثانيًا- عوامل ترسيخ اللغة العربية في الحياة الثقافية.
- ثالثًا- المكانة اللغوية للعربية في المجتمع الإفريقي.
- رابعًا- اللغة العربية بين مكانتها الروحية والنفسية لدى الأفارقة.
- خامسًا- اللغة العربية في رحاب الكتابات العلمية والثقافية.
- سادسًا- تطور اللغة العربية في المجتمع الإفريقي الحديث.
- الخاتمة : ملخص البحث ونتائجه.

أولًا - وصول اللغة العربية إلى إفريقيا الغربية وانتشارها

لا يمكن تصوّر التفرقة بين تاريخ الإسلام واللغة العربية في إفريقيا الغربية؛ لذا، يجب أن نعتقد أن وصولهما إلى المنطقة متلازمان.

وتحقّق وصول اللغة العربية إلى منطقة إفريقيا الغربية من الناحيتين: الناحية الشرقية في بحيرة تشاد، والناحية الشمالية من المغرب العربي.

ومن الناحية الشرقية، نرى المهاجرين الأوائل يعبرون البحر إلى الحبشة، إبّان فجر البعثة النبوية. ثم يفتح المسلمون مصر في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب. وفي عهد الخلافة الأموية، وصل عقبة بن نافع إلى «بلما» سنة ٤٦هـ /٦٦٦م، وترك فيها دعاة من العرب، والأمازيغ، والنوبة، الذين كانوا - في أول عهدهم - تصلهم اللغة العربية؛ إذ لم يلبثوا كثيرًا، إلى أن تحولوا إلى مسلمين. وتبعد «بلما» عن بحيرة تشاد نحو الجنوب إلى نيجيريا، حوالي ٦٠٠ كلم.

ثم توالت هجرات العرب الهلاليين[١] سنة ١١٦هـ/ ٧٣٤م، ثم جماعة من الأمويين مع أنصارهم عام١٣٣هـ/ ٧٥٠م، فكوّنوا نفوذًا سياسيًّا وثقافيًّا في السودان الأوسط عند بحيرة تشاد، فقامت على أيديهم مملكة كانم، التي تعدّ من كبريات الإمبراطوريات، التي تبنّت اللغة العربية، وجعلتها لغة ديوانية في مرافقها الرسمية. [٢]

أمَّا من الناحية الشمالية فقد عبر الإسلام مع لغته العربية صحراءَ المغرب العربي، متغلغلًا في صحراء مالي، تحملهما القوافل التجارية، التي نشطت من نواة التجارة الصامتة القديمة، بين شمال الصحراء وجنوبها. ويمكن أن نعد البربر الصنهاجة، أول نواة تعرّبت من الأجناس الإفريقية في غربي المنطقة، إذا علمنا أن اثني عشر ألفًا منهم أسلموا على يد الفاتح موسى بن نصير، وتعلموا على العرب المسلمين سنة ١٠١هـ/٧١٩م. [٣] وإن ابن عبدالحكم، يحدثنا عن حملة قادها حبيب بن أبي عبيدة الفهري - حفيد عقبة بن نافع - نحو الجنوب، حتى صحراء موريتانيا وأرض السودان.[٤] ويبدو أن أوائل المسلمين كانوا من لمتونة صنهاجة الملثمين، لأنهم في أقصى شمال الصحراء، ثمّ هم الذين ناولوا هذا الدين ولغته إلى قبيلة مسوفة القريبين منهم نحو الجنوب، وهؤلاء استطاعوا أن يؤدوا أمانة نشر الثقافة العربية إلى أقاربهم جدالة، التي تسكن قرب «نهر صنهاجة «، الذي حرفه الأوروبيون إلى «نهر السنغال» في القرن ١٥ الميلادي.[٥]

وهكذا ظهرت اللغة العربية في الدول المتاخمة للصحراء، قبل أن تتغلغل في بلدان أخرى: ملك مملكة كانم أومي جلمي سنة ١٠٨٥م/٤٧٨هـ[٦]، وبرمندانه أول أمير مسلم في إحدى مقاطعات مالي سنة١٠٥٠م/٤٤٢هـ[٧]وعثمان زمنقاوى أول ملوك كنو بنيجيريا إسلامًا سنة١٣٠٠م/ ٧٠٠هـ.[٨]

وقد كانت هناك عوامل كثيرة أسهمت في نشر اللغة العربية، نلخصها في الآتي

١- القوافل التجارية

كانت هناك طرق تجارية مهّدت لانتشار اللغة العربية في المنطقة

أ- طريق تلمسان: من الجزائر إلى ثنية نهر النيجر، حيث تقع تنبكت وغاو.[٩]

ب- طريق لمتونة: من المغرب الأقصى على سواحل المحيط، إلى نهر السنغال.

ج- طريق تغازى الواقعة شمال صحراء مالي على الحدود الجزائرية.

د- طريق غدامس، من ليبيا إلى إقليم آهير في النيجر.

هـ- طريق فزّان التي ربطت الجنوب الليبي بمنطقة كوار.

ولمكانة هذه اللغة في قلوب أهالي قبيلتي ماندي والسونيكي، فقد أولى رجال منهما اهتمامهم بهذه التجارة؛ فشقوا طرقًا تجارية إلى مختلف القرى والمدن في المناطق الجنوبية، وخاصة من مالي إلى شمال دول غانا، وتوغو، وبنين، لينتهوا إلى بلاد اليوربا في نيجيريا، حتى عرف الإسلام بين هؤلاء بـ «دين أهالي مالي».[١٠]

٢- الهجرات العربية

كهجرة بني هلال من العرب، الذين هاجروا إلى صحراء النيجر ومالي من شمال إفريقيا. وفي تاريخ العبيديين لابن حماد، أن أبا يزيد الخارجي (ولد ٢٧٢هـ/٨٨٣م)، قد ترعرع والده في جاو. وقد هاجر العرب البرابيش إلى»تاو ديني»على حدود مالي بموريتانيا في القرن الثامن الهجري.[١١] ولا شكّ أن التعايش السلمي بين هؤلاء العرب المسلمين والسكان الأصليين، ترك أثرًا طيّبًا في قلوب الذين أسلموا على أيديهم، لقرابة نسبهم بنسب نبي الإسلام.

٣- استقدام الملوك العلماء العرب أو رحلتهم إلى المنطقة

لولا مكانة اللغة العربية في قلوب سلاطين إمبراطورية مالي، لّما فكّر منسا موسى عند عودته من رحلته الشهيرة إلى مناسك الحج، أن يصطحب معه كثيرًا من العلماء العرب كأبي إسحاق إبراهيم الساحلي،[١٢] وعبدالرحمن التميمي[١٣] وغيرهما، فأقاموا في مالي حتى الوفاة. وقد أشار ابن بطوطة في كتابه، إلى وجود جارية دمشقية، وإلى ابن الفقيه الجزولي، الذي كان صهرًا لمنسا سليمان ملك مملكة مالي ومترجمه.[١٤] وقد لاحظ الأوروبيون سنة ١٤٥٥م/ ٨٦٠هـ شيوخًا برابرة وعربًا من تلمسان، في قصور ملوك كاجور، وجولوف، وسالوم، يصحبون الأمراء ويعلمونهم.[١٥]

٤- دور الرحالة العرب في المنطقة

يعد دور الرحالة العرب من العوامل التي أسهمت في ترسيخ اللغة العربية في البيئة الإفريقية. ومن هذه الرحلات: رحلة ابن بطوطة في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، حيث تمكن من مشاهدة مكانة هذه اللغة ودين الله الحنيف، في قلوب ملوك دولة مالي وأهاليها المسلمين، فقال في ذلك: «وأما هؤلاء فهم المسلمون، محافظون على الصلوات، وتعلم الفقه، وحفظ القرآن».[١٦] ورحلات محمد بن عبدالكريم المغيلي التلمساني،[١٧]وتنقلاته بين دول المنطقة شهيرة ؛ فقد زار السنغال، ومالي، والنيجر، ونيجيريا. وهو معاصر للإمام السيوطي الذي يقال: إنه زار شمالي نيجيريا، وخاصة منطقتي كثنة وكنو.[١٨]

ثانيًا - عوامل ترسيخ اللغة العربية في الحياة الثقافية

١- المراكز التعليمية

تكوّنت المراكز العلمية في المحطات التجارية، التي أقامها التجار؛ فتأسست مدائن تِنْبُكْتُ،[١٩] وجني،[٢٠] وجاو،[٢١] وكنو،[٢٢] والتي أصبحت كعبة طلاب العلم، بين القرنين الثالث عشر والسادس عشر المسيحي، يقصدونها من كل فجّ عميق. وقد أشاد ابن بطوطة بمواظبة الرعية في مملكة مالي على الصلاة، وعنايتهم بحفظ القرآن الكريم، ممّا يجعلهم يقيدون أطفالهم حتى يحفظوه.[٢٣] ثم اشتهرت في جميع الدول مراكز دينية، يشيع منها نور الإسلام إلى سائر أخواتها، أمثال: «كِجِلُن»، و«بُكِجَو»، و«سان لويس» في السنغال، وصكتو،[٢٤] وزاريا،[٢٥] في نيجيريا، وجوغو[٢٦] في بنين، وتشاوجو[٢٧] في توغو، وكوماسي[٢٨] في غانا، وكونْ وسماتيغيلا[٢٩] في كوت ديفوار (ساحل العاج)، وتمبو مدينة، وكنكان، وطوبى، في غينيا[٣٠]. فشيدت المساجد الجامعة فيها، وأقيمت المدارس الحديثة بجانب المدارس القرآنية التقليدية، واشتهر فيها المسلمون بجلابيبهم البيضاء النظيفة، يباهون بها الوثنيين، الذين بدؤوا - رغم أنفهم - بالتخلص من بعض عاداتهم وتقاليدهم.

٢- الحركات الدعوية

قديمًا، قام العلماء في ظل إمبراطوريتي مالي وصنغاي بمجهودات جبارة، في الحركات الدعوية، وبخاصة في عصر منسا موسى، وأسكيا محمد، ثم واصل الخلف المسير بعدهم؛ فأسّس سليمان بال[٣١] دولة الأئمة الإسلامية في فوتاطورو بحركات جهادية، وأقام الشيخ عثمان بن فودي[٣٢] على أنقاض ولايات الهوسا الوثنية دولته الإسلامية بشمالي نيجيريا في صكتو، ووسع الحاج عمر تال الفوتي[٣٣] حملته الدعوية للقضاء على الوثنيين في مالي، وأعالي غينيا، واشتهر الشيخ ما به جاخ[٣٤] بجهاده الإسلامي في سين سالوم بالسنغال، والشيخ فودي كبا دومبيا بغامبيا.

٣- الطرق الصوفية

إن القادرية[٣٥] أول الطرق التي انتشرت في المنطقة، بفضل تنقلات الشيخ محمد بن عبدالكريم المغيلي التلمساني، في القرن الخامس عشر الميلادي، فأخذتها عنه قبيلة «كُنْتَ»[٣٦] في مالي، ونشرتها مع العلوم العربية في سائر بلاد غربي إفريقيا، ومن هنا، فإنهم يعدُّون حملة بضاعة هذه اللغة، ودعاتها في المنطقة خلال أربعة قرون، قبل أن تقوم التجانية بدورها الفعّال في القرن ١٩ على يد الحاج عمر الفوتي، صاحب اللواءين: السيف والقلم. وأمّا الشاذلية[٣٧] فأخذها الشيخ علي الصوفي[٣٨] عن الشيخ العربي بن أحمد الدرقاوي[٣٩] في المغرب، ونشرها بين علماء فوتاجلون، ومنها انتشرت إلى الدول المجاورة،[٤٠] مع كتبها وعلومها وأسرارها بالعربية. أضف إلى ذلك دور السنوسية،[٤١] التي انتشرت من ليبيا إلى فزان، وكانم، وبرنو، واشتهر صيتها في سائر البلاد.[٤٢] وقد حل الشيوخ الصوفية محل الوثنيين، في قضاء حوائج الناس بالأسرار القرآنية، وصنع التمائم، ومن هنا جاءت قدسية اللغة العربية في سواد السكان.

٤- المدارس والجمعيات الإسلامية

بعد تلك الأدوار التي أدّاها القدامى، جاء المعاصرون في القرن العشرين، فأسّسوا المدارس النظامية، والجمعيات والاتحادات الإسلامية، التي أدت دورًا إيجابيًّا في الصحوة الدينية، وما أكثرها إذا أردنا إحصاءها، وحسبنا أن نشير إلى أشهرها كنماذج في بعض الدول:

فأقدم المدارس في مالي، مدرسة سبيل الفلاح للشيخ سعد توري بمدينة سيقو، مؤلِّف «المبادئ الصرفية»، الذي صار مقرّرًا في جل المدارس النظامية بغربي إفريقيا. وفي السنغال مدرسة الفلاح للحاج محمود باه، وفي بوركينا مدرسة جينيبولا، التي أسسها باموي جينيبو بمدينة بوبوجولاسو، وفي نيجيريا مركز آدم عبد الله الإلوري بلاغوس، وفي غانا مدرسة النورية للشيخ أحمد نور الدين بكوماسي. وفي بنين مركز الشيخ شئث بساكيتي سنة ١٩٥٧م.

وقد عاشت اللغة العربية في ظل هذه المدارس عقودًا من الزمن، قبل أن تلحق بها اللغتان: الفرنسية والإنجليزية، وذلك للدلالة على أن الأفارقة، قدّروا لهذه اللغة ما يستحقها من عناية، وخدمة جليلة.

ونتيجة هذا الانتشار الهائل، بفضل الجهود السالف ذكرها، فقد كان أن غلبت نسب المسلمين على غيرهم؛ إذ قدرت في النيجر بـ ٨٥٪، وفي مالي بـ ٩٠٪، وفي غامبيا بـ ٩٥٪، وفي السنغال بـ ٩٠٪، وفي ليبيريا بـ ٦٠٪، وفي غينيا بـ ٨٥٪، وفي نيجيريا بـ ٤٨٪، وفي سيراليون بـ ٣٠ ٪، وفي غينيا بيساو بـ ٣٠٪، وفي ساحل العاج بـ ٢٠٪،[٤٣] وفي غانا ١٦٪، وفي بنين بـ ١٥٪، وفي توغو ١٢٪[٤٤].

وقد تساعدنا معرفة نسب المسلمين، على معرفة مدى انتشار التعليم العربي وأدبه بين أوساط علمائهم.

ونؤكد أن في كل دولة مناطق إسلامية، ومدنًا تشع منها منارات مجالس العلم. وتعني هذه النسب، أن المستعربين كانوا أكثر من أصحاب اللغات الأوروبية في دول المنطقة، لولا عناية الحكومات بتنظيم دراسة اللغات الأوروبية، وتقدير مدرسيها، وبناء مرافقها التعليمية.

ثالثًا- المكانة اللغوية للعربية في المجتمع الإفريقي

إن اللغة العربية، باعتبارها لغة دينية وتعليمية، قد تركت بصماتها في جميع ما يمتّ لحياة الأفارقة بصلة، لا في لغاتهم المحلية فحسب، بل في حياتهم الاجتماعية والثقافية وغيرها.

ومن الحري بنا، أن نبدأ بتأثيرها في اللغات المحلية، لنعرف مدى مكانتها الاجتماعية في البيئات الإفريقية:

١- في أسماء أيام الأسبوع، وهذا يتضح في هذه القائمة[٤٥]

م	الأيام بالعربية	الفلانية	هوسا	يوربا	زرما/صنغاي	ولوف	مانيكا/بمبارا
١	الأحد	أَلَدْ	لَحَدِ	ألادِ	أَلَحَدِ	ديبيرْ	لَحَدِي/ أَلَحَدِ
٢	الاثنين	أَلْتِني	لِيتِنِنْ	أتِنِنْ	ألتِنِي	ألتِنِي	تيني
٣	الثلاثاء	تلاتَ	تلاتا	أتلاتا	أَتَلاتَ	تلاتا	تلاتا/تلاطو
٤	الأربعاء	أَلَرْبَ	لارَبا	ألاروبا	أَلَرْبَ	أَلَرْبا	أرابا/أرابو
٥	الخميس	المَحيسَ	أَلْحَمِسْ	ألاميسي	ألْخَميسا	ألْخَمِسْ	ألْمِسا/أراميسو
٦	الجمعة	جُمْعاري	جومَعا	جيما	ألْجُما	أجُمَا	جوما/أراجُمو
٧	السبت	أَسَوَى	أَسَبَتْ	ساتيدي	سَبْتي	غاوُ	سيبيدي/سِبِدو

ولا يخفى على المتأمل،أنّ لصوتي اللام والدال من لفظ الأحد تأثيرًا ملحوظًا في جميع اللغات المحلية. وفي لفظ الاثنين نرى أصوات اللام والتاء والنون بارزًا تأثيرها في اللغات المحلية. وتأمّل تكرار صوت التاء المحرف من الثاء في الاستنطاق بلفظ الثلاثاء. أما الأربعاء فإن الراء والباء مستنطقة في جميعها، أضف إليها صوت اللام كذلك. أمّا الخميس فحرفا الميم والسين بارزان في هذه الألفاظ المحرفة في اللغات المحلية. وأبرز ما نرى هنا في يوم الجمعة، أصوات الجيم والميم غالبًا. وأخيرًا نرى صوت السين بقي في جميع المحرفات ليوم السبت، باستثناء لغة ولوف السنغالية، وصوت التاء في بعضها، ونلاحظ استبدال الدال بالتاء، كما في لغتي يوربا (في نيجيريا)، ومانيكا (في غينيا).

٢- وفي أسماء الشهور، كما واضح في مرآة هذا الجدول

م	الشهور العربية	الفلانية	هوسا	يوربا	زرما	ولوف	مانيكا/بمبارا
١	محرم	حارمْ	محرَّمْ	محرَمو	دِدِبْبِيري	تَمْخَري	جوميني
٢	صفر	صفرْ	صفرْ	سوفي	دِدِبْكانيا	ديغي غامو	دوبامَكُنو/ جوميني دوني
٣	ربيع الأول	-	رَبِي رَبي	ربيع أول	غانيبيري	غامو	دوبا كارو
٤	ربيع الثاني	-	ربيعي	ربيع ثاني	غانيكانيا	ركي غامو	دوبانورافولو
٥	جمادى الأولى	بنجارُ(أَرَنْدَيْرُ)	جمادى الأولى	جمادى أولى	بِكُناهانْدو	ركاتْ جيغامو	دبانرلافيلانا/ لَسيري فُلو
٦	جمادى الآخرة	بنجار(طِطَبْرُ)	جمادى الآخرة	جمادى	هانْدوكُيْوا	مام جيكورْ	رجبامكنو/ لَسِرِ جيما
٧	رجب	-	رجَبْ	رجبو	وُيْ جيني	انديْ جيكورْ	رَجَبا
٨	شعبان	شعبانُ	شعبانْ	شاباني	جي كونو	براكولو	سونكاروماكُنو
٩	رمضان	رملانَ	رملانْ	رمضانا	حَوْمِي	كورْ	سونكارو
١٠	شوّال	شوّال	شوّال	شوالي	ميفيري	كوري	ميكاروا
١١	ذو القعدة	ذو القِيدَ	ذو القَيْدَا	ذو القعدا	زُرْزُرْ	ديغي تَباسْكي	دونْكي ماكنو
١٢	ذو الحجّة	ذو الحجَّ	ذو الحجَّ	ذو الحِجَ	جِبْسِي	تَباسْكي	دونْكي

بعد تأملات دقيقة في هذه الأسماء، نستنتج أمرين، الأول: تأثيرات بارزة وملحوظة في الاحتفاظ بأصوات عربية في فواتح أسماء الأشهر، أو في آخرها. أمّا الأمر الثاني فهو متباين عن الألفاظ العربية، مثل: جوميني عند مانيكان عن محرم، وديغي غامو عند ولوف تعبيرًا عن شهر صفر...إلخ.

٣- في أسماء الأعلام التي لم تحرف دائمًا، وإن حرفت، فإن تحريفها أحيانًا ملحوظ

م	الأسماء العربية	الفلانية	هوسا	يوربا	زرما	ولوف	مانيكا/بمبارا
١	محمّد	محمّد	محمّد	مامادو	ممّن/مخَمَّرْ	مودو	مامادي/ مادو
٢	عبد الله	عبد الله	عبد الله	أدولاي	عبدو/أدولاي	عبدل	بورولاي
٣	إبراهيم	إبراهيم	إبْرو	بُرايي	إبراهيمْ	إبرا / إبو	براما/
٤	أبو بكر	بوبَ	بوبي/بُكر/حبو	بكاري	أبوكْري	بابَكَر/بابا	أبو/ بكاري
٥	إسماعيل	سَماعيل	سَماعيل	سُمَيْلا	إسماعيل	إسْما	سومايْلا
٦	إدريس	إدريسَ	إبدي	إدريسو	دِريسا	إدي	دريسا
٧	صالح	صالحيجو	صالحي	سالِحو	صالح	زالْ	صالو/ساليفو
٨	أم كلثوم	كلثومُ	كلثومُ	إيا	أُمِي	أُمي	أمو/ كلتومو
٩	عائشة	عَشَةُ	عائشا	عايْ	أَغايْشا/أسودَ	عَيْشا	عَيْشا
١٠	مريم	مَيْرَما	مَيْرُو	مرِيا	مَرِياما	مَرِيمْ	مامو/مَرياما
١١	حوّاء	حوّاء	حوّا	حوى	خوا	أَوَ	حوا
١٢	خديجة	ديجَةُ	ديجي/حديز	خديجَ	خديجا	خدي	جاتو،
١٣	آمنة	آمينَ	آمينا	أمِنا	آمِنْتا	أَمِي	آمي، مناتا،
١٤	فاطمة	فاتُ	فاتي	فاتي	فاطو	فاتو	فَنْتا/فاطمْ

يتضح من الجدول، أن اللغات المحلية تأثرت بهذه الأسماء، من أعلام الذكور والإناث، وذهبت إلى اتجاهات متباينة، مثل:

أ. الالتزام بالنطق العربي: محمد عند الفلانيين والهوسا، وعبدالله كذلك.

ب. الاختصار: أن تقتصر على أوائل الاسم وآخره أبتر، أمثال: عبدو في (عبدالله)، وإبراو في (إبراهيم)، وخدي في (خديجة)، وأبو في (أبوبكر)،

ج. حذف الأوائل: حذف همزتي إسماعيل وإدريس، إلا عند زرما في النيجر، وولوف في السنغال.

د. التحريف: حصل هذا كثيرًا في علم «أبو بكر» في قولهم : بوبي، وبابا، وكذلك في «فاطمة».
هـ. التبديل: في عائشة، قالوا «عاي» عند يوربا مثلًا، و«أغايشا» عند جماعة زرما في النيجر.

٤- في بعض المصطلحات الدينية الإسلامية

م	الأسماء العربية	الفلانية	هوسا	يوربا	زرما	ولوف	مانيكا/بمبارا
١	أذان	أذانُ	أذاني	أداني	ودانْ	نودو	لاذانو/ودانو
٢	إمام	لِمَنْ	ليمَنْ	لِمامُ	إلمان/إمامُ	إلمان	ألمامي/ألمامو
٣	إيمان	إيمان	إيماني	إيماني	لمانْ	ليمانْ	ليمانيا
٤	بدعة	بِدُعاكُ	بِدِعا	أداد	بِدا	بِدا	بِدَعا/بداو
٥	حرام	كَرْمُطمْ	حرمْ	حرامو	خرامُ	أرامُ	حرامُو
٦	حلال	حللْ	حللْ	ألالي	ألالا	دَغانْ	حلالا/حلالو
٧	ربا	رِبَ	رِبا	رِبا	رِبا	رِبا	رِبا
٨	زكاة	زَكَّ	زَكَّا	زكا	زَكا	أزَكا	جَكّا/جكُو
٩	شريعة	شَرِعَ	شَرِعَا	شرِيا	أَشَرا	شرِيا	شَرِيا/شرِيو
١٠	صلاة	جُولْدَيْ	صَلاّ	إيرونْ	جيغارْ	جُولي	صيلِي/صَلو
١١	صومٌ	صومَبَيْ	أَزُمي	أوي	حَوْمي	وُورْ	صونْ
١٢	عاشوراء	عاشورَ	عاشورا	عاشورا	كُبْسايْ	تمْخَري	عاشورا
١٣	غَفَرَ	غافَرَ/فَرَنْيُغُو	غافر	أفُريجي	يافا	جيغيلْ	غَفَرِي/كَفَري
١٤	فاتحة	فاتَحَ	فاتِحا	فاتِيا	فاتِيا	فاتِيا	فاتِيا
١٥	فاسق	فاسِكيجو	فاسِقِ	فاسِقِ	فاسِقو	فاسقْ	فاسِقِي/فاسِقو
١٦	فرضٌ	فَرِلَّ	فَرِلاً	أُورُنْيا	فرِضا	فَرَتَ	فَرِضَا/فرضُو
١٧	قدرٌ	كُدِّرُوجَيْ	قدَّرا	كَدَرَا	قُدُرْ	لوغالْ	لاتي/لِينيو

م	الأسماء العربية	الفلانية	هوسا	يوربا	زرما	ولوف	مانيكا/بمبارا
١٨	كافرٌ	كَيْفِيرُو	كافِري	كافِري	جيفِرْ	ييفرْ	كافِرو
١٩	نيّة	نِيَّ	نِيّا	أنِيّا	أَنِيَا	ييني	نَانيا/نانيو
٢٠	وليّ	وليجو	وليٍّ	وولي	وَليجو	وَلِيو	وليجو/وِليو

من فضول الكلام أن نحاول إبراز أوجه تأثير اللغة العربية في هذه المصطلحات الدينية، التي لم تعرفها الجماعات المحلية إلّا عن طريق الإسلام، فالتأثير أوضح وأظهر.

٥- في أسماء بعض الأشياء المتباينة

م	الأسماء العربية	الفلانية	هوسا	يوربا	زرما	ولوف	مانيكا/بمبارا
١	أَدَبٌ	لدب	لدبي	لدبي	لَدَبُ	تيغينْ	لَدَبُ/داديكو
٢	إلهام	إلهامُ	إلهامي	إلياميو	لِرْحَامُ	صولْ	إلهامو
٣	بالغ	بَلِغيطو	بَلَغَّيْ	بلَغَا	بالِغو	مُسْكَلَفْ	بَلِغُو
٤	جاهل	جاهليجُو	جاهلي	جائلي	أَجاهِلْ	جاييلْ	جاهِلي/جاهِلو
٥	جماعة	جَمَعارى	جمعا	جَنْما	أَلْجَما	انبولُو	جَما
٦	حاجة	حاجِي	حاجا	-	يانْتَسو	حاجو	حاجو
٧	خبرٌ	حَبَرُ	لاباري	لَبَري	أَلْخَبارُ	خيبارْ	كِباريا/كبارو
٨	صبحٌ	صُبَكَ	أَصُبَا	أَصُبا	صُبَا	صُبَا	صُبا
٩	صحابيّ	صحابوجُو	صحابي	سابي	صَحابَ	صابا	صَحابا/سايبو
١٠	صِراط	صراطُ	صراطي	أسراطي	سراطُ	صِراطْ	صراطي
١١	فَجْرٌ	فَجِر	ألفِجِرْ	ألْفجَري	أَلْفَجَرُ	فجارْ	فَجِري/فجِرو
١٢	قبرٌ	قَبْرِيرَيْ	قَبرَي	كَبَري	ساريْ	قبْرو	قَبُرو
١٣	مسكين	مِسْكِينِيجُو	مسكينِ	مسكينو	مسْكينا	مسكينْ	مِسيكينا/مسكنو

م	الأسماء العربية	الفلانية	هوسا	يوربا	زرما	ولوف	مانيكا/بمبارا
١٤	مقامة	مقامُ	مَقاما	مكاما	مقامَ	مقاما	مقاما/مقامو
١٥	نورٌ	النورِ	النورِي	إمالي	نورا	نورو	نورو
١٦	وقتٌ	وَكَّتِ	لوكَّتي	وَكَتي	أَلْواتو	وَقْتُ	واتي/واتو

إن هذه الكلمات المتباينة، ما بين قيم اجتماعية، وأسماء كونية، قد تأثّرت باللغة العربية رغم وجودها في تلك اللغات المحلية، ولكن ورودها في النصوص الشرعية، وكثرة استماع الأهالي للمواعظ الدينية، انتهت إلى أن تتخلّى عن نظرائها المحلية، وتتبنّى الألفاظ العربية، التي تدل مرة أخرى على سهولة اندماج القبائل، وانسجامهم مع لغة القرآن الكريم.

رابعًا - اللغة العربية بين مكانتها الروحة والنفسية لدى الأفارقة

كم معلمٍ ضحّوا بحياتهم في نشر التعليم العربي! وكم نسّاخ ضحّوا بعمرهم في نقل الكتب العربية القديمة! وكم عالم ضحّوا بجهودهم الجهيدة في نشر اللغة العربية!

كل هذه الجهود دلّت على ما يكنّون من تقدير نفسي، وتعظيم قلبي، لهذه اللغة الغرّاء، التي يكادون يضفون عليها قداسة روحية. ولكن الشعراء كانوا أحاسنهم تعبيرًا عن مشاعرهم العميقة، وانطباعاتهم الصادقة، في إبراز العظمة النفسية.

ومن الجدير، أن نترك الأبيات تعبر عن كنوز مشاعر أصحابها في المحاور الآتية:

- **عظمتها على سائر اللغات**

لقد بيّن أمير شعراء مدينة إلورن بنيجيريا، في جرأة لا تتزعزع، أن عظمة العربية تفوق سائر اللغات، قائلًا:

لغـــة العلـــم والحضـــارة والفـــ *** ـــنّ تفـــوق اللغـــات ذوقـــا وعذبـــا
شـــاعر النيـــل قـــد أهـــاب بقـــوم : *** احفظوهـــا وقاكـــم اللـــه خطبـــا
ويحهـــم مـــا أفادهـــم قـــول إبـــرا *** هيـــم شـــيئا فجـــرّ ذلـــك نكبـــا
هـــي أغنـــى اللغـــات لفظـــا ومعنـــى *** هـــي أنقـــى الميـــاه عبًّـــا وشربـــا
لغـــة حـــرة تمـــاشى بيـــسر *** صنعـــة العـــصر لا تقـــصّر دأبـــا
إنَّ آدابهـــا إذا قيســـت الآ *** داب راقتـــك وهـــي أكثـــر خصبـــا
هـــي نهـــر بضفّتيـــه أفانيـــ *** ـــن زهـــور بالحســـن تـــأسر لبّـــا[٤٦]

[الخفيف]

لأن عظمتها ما زالت مستمرة منذ أن نزل بها كتاب الله الحكيم، فجاء هذا البيت في ميمية النيجيري عبدالواحد جبريل سليمان:

هـــي لا تـــزال تفـــوق فضـــلا غيرهـــا *** مـــن حـــين لاحـــت واللســـان تقـــوم[٤٧]

وفي رائية السنغالي شيخ تجان غاي جاء قوله:

أنـــتِ الأســـاس كبحـــر فيـــه قـــد غرقـــت *** لغـــــــــــــاتنا، وبـــك الأوان تنصـــهر
كيـــف نجحـــتِ قديمـــا حيـــث قـــد رســـبت *** كل اللغـــات، وتخبـــو اليـــوم تنحـــسر؟[٤٨]

كأنه يوحي إلى أن اللغات الشرقية اندثرت، وأكلتها تقلبات القرون، مثل: الآرامية، والسريانية، والعبرية، وغيرها من اللغات التي عاصرت العربية إبان ظهورها كلغة دينية، وعلمية، وعالمية.

- **فضائلها وإنجازاتها**

لقد أعلن أحد شباب إلورن في نيجيريا، وهو عبدالواحد جبريل سليمان، على منبر ميميته التي أسماها: «لغة ألذّ فصاحة وبلاغة»، كثيرًا من فضائل لغة الضاد، كما في قوله:

لغـــة تطـــبّ اللـــبّ مـــن أســـقامه *** ويشـــمّ منهـــا العـــرف إذ تتكلّـــم
لغـــة إذا الآذان تســـمع قولهـــا *** يرتـــدّ حبـــل الوقـــر فيهـــا يفصـــم
أنَّـــى تبـــارى في ميادیـــن ولـــم *** تـــك في المعيشـــة مثـــل نفـــس تعقـــم
لغـــة ألـــذُّ فصاحـــة وبلاغـــة *** تهـــدي إلى الـــدرب الســـوي وتحكـــم
مـــن دونهـــا كل المعـــارف تعـــرج *** إن العلـــوم بدونهـــا لا تُفهَـــم
تضفـــي عـــلى أصحابهـــا ديباجـــة *** فيهـــا البهـــاء يلـــوح بـــل تتقـــدّم[٤٩]
[الكامـــل]

وفي بائية النيجيري الدكتور عيسى ألبي، تصميم لإنجازات هذه اللغة لكل من درسها، وعني بخدمتها، وخاصة فضلها على الذين ينتسبون إليها عرقًا ونسبًا، فاصغ إلى أبياته الرائعة، وقوله:

رفعـــتْ ذكركـــم فصرتـــم كرامـــا *** وبهـــا لان عيشـــكم واســـتتبّا
وكَسَـــتْكم مـــن الثيـــاب حريـــرا *** ونزعتـــم مـــن جســـمها البـــض ثوبـــا
ترفعـــون الـــرؤوس في كل نـــاد *** تتباهـــون فيـــه حزبـــا فحزبـــا
لكـــم الفضـــل والكرامـــة والعـــ *** ـــزّ ملكتـــم بالعلـــم شرقـــا وغربـــا
أينمـــا سرتـــم فثـــمّ أنـــاس *** لكـــم يظهـــرون شـــوقا وحبّـــا[٥٠]
[الخفيـــف]

ويشير آخر من شعراء نيجيريا إلى فضائلها الدينية والاجتماعية في أبيات من لاميته المعنونة بـ «لغة الضاد» من قريحة الشاب معروف مصطفى أحمد، فيقول:

بنسقها أحكمت آيات مصحفنا *** لهذه اللغة السمحاء لا بدل
بها سيسأل أهل القبر أسئلة *** لهم عذاب شديد لو هم جهلوا
بها سينطق كل الداخلين غدا *** جنات عدن ولا خوف إذا دخلوا
فإنها العروة الوثقى التي وثقت *** بين الأعاجم والأعراب فاتصلوا
[البسيط]

وجاء شاعر آخر من أقصى ديار السنغال، ليؤكّد لنا أنها لغة حضارة وقداسة دينية، فقال:

دنيا الحضارة كون كله فِكَرٌ *** والفكْر رهنُ لسانٍ كلُّه دررٌ
فإن تجد لغة في روحها عوج *** فلا تقدم للأفكار يعتبر
قارن تجد لغة القرآن حائزة *** أسنى المفاخر فيما حازت الغرر
ضمّت من الله آيات لمن صمدوا *** سِلْمٌ تحقق، حرب للأولى كفروا
صنتِ الحضارةَ في نشر لما طويت *** فعمت الكون نفعا ليس يندثر[٥١]
[البسيط]

- **دفاع عن إحيائها ونهضتها**

لقد عُرِف عن الشعوب الإفريقية، أن اعتزازها باللغة العربية جعل علماءها يكتبون لغاتهم المحلية بالأحرف العربية، كما هو شائع عند أهالي الفلانية، والهوسا، واليوربا، والمالنكيية، والولوفية...إلخ، غير أن الاستعمار سار في غزواته الفكرية، إلى كتابة هذه اللغات المحلية بالحروف اللاتينية، كما هتف بذلك دعاتهم في مصر، إبّان القرن العشرين.

ولما وصلت هذه الدعوة إلى السنغال، قام أحد عمالقة الشعر العربي، وهو الشيخ أحمد جي صاحب الدواوين الشعرية، للدفاع عن كتابة اللغات الإفريقية، وخاصة الولوفية بالحروف العربية، فوضع في ذلك دالية طويلة بلغت ٣٢ بيتًا، ونقتطف منها هذه الأبيات التي تقول:

ما غاب عن وعيك الوقاد يا ولدي *** ماحيك بالمكر ضد الدين في البلد
وما يقال من التبديل عن نمط *** من الكتابة «باللاتين» للحقد
وما يهيج من ضوضا ومن فتن *** باسم الثقافات للأجناس بالنكد

فتلـــك بلبلـــة الأفـــكار مهزلـــة *** أثارهـــا بيننـــا الأعـــداء للحســـد
لنـــا طريقـــة تدويـــن مهذبـــة *** بالطابـــع العربـــي الشـــكل كالتلـــد
أجدادنـــا ســـجلوا فيهـــا ثقافتهـــم *** منـــذ القـــرون، ومـــا زلنـــا عـــلى الجـــدد
لا تقلقونـــا بإيقـــاظ النوائـــم مـــن *** أفـــكار تفرقـــة يـــا طالبـــي البـــدد
يـــا أيهـــا الســـود لا تصغـــوا لداعيـــة *** إلى «التفرنـــج» والإلحـــاد واللـــدد
فلتكتبـــوا بحـــروف كان يعرفهـــا *** أجدادهـــم كأداة الحفـــظ والـــسرد
في الطابـــع العربـــي الشـــكل متّســـع *** كل لهجاتنـــا بالخـــط في الصـــدد
وذاك يقـــضي بإبقـــاء لنـــا أسرا *** تقاربـــت بـــأداة الفكـــر والعتـــد
بالعالـــم العربـــي الصنـــو تربطنـــا *** تلـــك الأداة فنبقـــى ثابتـــي الوتـــد
فمـــا لنـــا و " للاتـــين " وزمرتـــه *** أمـــا كفـــى مـــا عـــرى الأتـــراك مـــن أود
قـــد غـــيروا خطّهـــم عـــن خـــطّ ملّتهـــم *** فأصبحـــوا عـــن أصـــول الديـــن في بعـــد
واســـتهزأ الغـــــــــــــــــ *** همـــو عـــن الديـــن والأعـــراب والســـدد[٥٢]
ـــــــــــرب منهـــم بعـــد مـــا بـــترو [البســـيط]

ولمكانة لغة الضاد في قلوب رجال الثقافة العربية، فإنهم يسعون إلى نهضتها في شتى مجالات الحياة، ويبذلون رغم عراقيل وعقبات جهودًا، لرفع مستواها من لغة دينية، إلى لغة ثقافية وإعلامية، لذا يكابدون حتى ينجزوا صحفًا ومجلات عربية.

ولما ظهرت أول صحيفة عربية في غامبيا سنة ١٩٧٧م، على يد مؤسسها الحاج بَنْدٍ درامي تحت اسم «صوت الإسلام «، قام بتقريظها الأديب الغامبي بامين محمد سري جيتي، تشجيعًا بهذه المبادرة الطيبة، في مجال نهضة الثقافة العربية، فقال:

نـــادت صحيفـــة صـــوت الإســـلام *** المســـلمين لوحـــدة ووئـــام
نـــادت لتوحيـــد الصفـــوف مـــع التعـــا *** رف والتعـــاون يـــا ذوي الإســـلام
نـــادت بأعـــلى صوتهـــا لوســـيلة *** أكبـــر وســـيل تقـــدم وســـلام
لبّـــوا بأفضـــل دعـــوة وتمسّـــكوا *** بشـــعارها الغـــالي النفيـــس الســـامي
كتبـــت يـــراع مثقـــف ومواطـــن *** بـــار عزيـــز ناصـــح مقـــدام
مـــن قـــد تضلّـــع في العلـــوم جميعهـــا *** ذا الحـــاج بَنْـــدٍ صاحـــب الإكـــرام
وأطـــال مولانـــا الكريـــم حياتـــه *** للمســـلمين بعـــزّة وســـلام
بالهاشـــمي الأبطحـــي محمـــد *** وبآلـــه وصحابـــه الأعـــلام[٥٣]

خامسًا- اللغة العربية في رحاب الكتابات العلمية والثقافية

- **في رحاب المجلات والصحف**

وفي هذا الصدد، نذكر أن الصحف والمجلات العربية في دول غربي إفريقيا تزدهر، وإن كانت أمامها عقبات كثيرة، ومنها:

في نيجيريا: تعزم أقسام اللغة العربية بجامعاتها، نشر مجلات شهرية أو حوليات سنوية، ناهيك عن كثير من المجلات التي تصدرها بعض الجمعيات الثقافية، مثل: مجلة غرب إفريقيا للغة والأدب والنقد في جامعة بايرو بكنو، ومجلة النهضة في جامعة سكتو، ومجلة الإنسانية في إلورن. ومنها مجلات أخرى للجمعيات والاتحادات، وفي مقدمتها: الرسالة، ومجلة NATAIS لمنظمة معلمي اللغة العربية، ومجلة صوت الإسلام لنقابة المركزيين في إلورن.

وفي النيجر: هناك مجلتان مشهورتان هما: الواحة، والتواصل، بجانب حوليات الجامعة الإسلامية في النيجر، التي ما زالت تصدر حتى يومنا هذا.

وفي مالي: اشتهرت صحف شهرية، مثل: الصداقة، والمستقبل، والتواصل، والوفاق، والوظيفة. وكلها تصدرها جمعيات إسلامية. غير أن مختبر البحث حول العالم العربي والإسلامي، في كلية الآداب واللغات والعلوم الإنسانية، شرع يصدر مجلة باسمه مع لجنة علمية محكمة ورقم دولي: ISSN 1987-1619 فنشرت أول عدد لها سنة ٢٠٢٤م.

وفي السنغال: اشتهرت بعض المجلات، ومنها: بريد إفريقيا، والصحوة، والمسيرة، ومجلة قسم اللغة العربية بجامعة دكار، التي تعدّ أحسنها بلجنتها العلمية المحكمة.

وفي غينيا: صحيفة الحرية، التي لم تستمر بعد عددها الرابع سنة ٢٠٠٠م. ثم أنشأ قسم اللغة والحضارة العربية في جامعة الجنرال لانسانا كونتي في سنفونيا مجلة «والقلم» سنة ٢٠١٦م، واستمر حتى صدرت خمسة أعداد، فتوقف سنة ٢٠٢٠م.

وفي غامبيا: صحيفة صوت الإسلام، التي توقفت بعد محاولاتها الأولى. وفي عام ٢٠٢٤م صدر العدد الأول من مجلة الأمانة، التي تصدرها جامعة الأمانة العالمية في غامبيا.

ومن النهضة العربية في المنطقة، قيام الندوات والمحاضرات فيها، على يد الجمعيات الثقافية المحلية، أو على يد المنظمات والهيئات الخارجية، كإيسيسكو، وألكسو، وجمعية إحياء التراث الإسلامي، والمنتدى الإسلامي، ولجنة مسلمي إفريقيا، ومعهد الدراسات الإفريقية، وخاصة جمعية الدعوة الإسلامية العالمية. ولما أقامت منظمة ألكسو مهرجانًا أدبيًّا في مالي، ابتهج بذلك عشاق الثقافة العربية، وأبدع أحد أدبائها، وهو أحمد حيدره، بالتعبير عن مشاعره الحارة لهذه المناسبة الفنية، فقال:

دقّـــوا الطبـــول وأيـــن النـــاي والقلــم	مـــاذا يفيــد هنـــاك الشــعر والنغـــم
أهـــذا مهرجـــان العـــرب تضحــك فيــه	أم هــــذه جنـــة الفـــردوس تبتســـم
أم إنــــه عـــصر هـــارون الرشـــيد أتـــى	عـــلى بــــلادي فتـــم الأنـــس والكـــرم
إن الشـــباب بنـــوا للفـــن مفخـــرة	لـــدى منظمـــة يرفـــع لهـــا علـــم
ســـل المســـارح عنهـــم عـــن فنونهـــم	ســـل المنابـــر فهـــم الشـــعر والقلـــم
وســل "خليــلا" وســل "عبــد اللطيف"بهــم	وســـل " ألكســـو" فهـــم في جيدهـــا عنـــم
والمهرجـــان تبـــدّت مـــن أناقتهـــا	كغـــادة يكســـوها البـــان والعلـــم
هـــذي "ألكســــــــــــــــــو"	ضمي " ألكســــــــــــــــــــو"
ضمتنـــــــــــــــــــــا ببوقـــة	فـــذاك النثـــــــــــــــر والنظــــــــــم

- **دعوة إلى نصرتها في معاناتها**

ما زال الأفارقة يتقاسمون مع إخوانهم العرب تلك الآلام، التي تمرّ بها لغة الضاد هذه، لذا لم يهملوا في قرائحهم من تسجيل مشاعرهم، وتأثرهم بهذه المعاناة المرّة، بغية إيقاظ الهمم في نصرتها، وهذا ما أشار إليه الشاعر النيجيري عيسى ألبي أبو بكر في أبيات من بائيته الشهيرة، وفيها يقول:

" لغـــة الضـــاد " قـــد أهينـــت كثـــيرا	***	عـــدّ ذاك الهـــوان عيبـــا وذنبـــا
منعوهـــا حقوقهـــا فســـكتّم	***	أســـلبوها لهـــا مـــن القـــوم ســـلبا
عـــرف النـــاس فضلهـــا فغزوهـــا	***	ورموهـــا بالســـقم مينـــا وكذبـــا
ذمـــة قـــد أضعتموهـــا تمامـــا	***	أيهـــا النـــاس لا تخافـــون ربّـــا
كـــل من ســـــــــــام ذمـــــّة اللـــه ذلاّ	***	ضربتـــــــه مـــــلائك اللـــه ضربـــا[٥٤]

ويستمر شاعرنا النيجيري في مطالبة ذويه بخدمة هذه اللغة، جزاء لما قدمت من إنجازات جبارة للبشرية، فنسج في بائية أخرى هذه المعاني الرائعة التي يقول فيها:

بشراكـــم، لغـــة القـــرآن تنشـــدكم	***	وتطلـــب اليـــوم منكـــم أعظـــم الطلـــب
أيعبـــث القـــوم في ســـاحات حرمتهـــا	***	وهـــل يعيثـــون بالأمجـــاد والرتـــب؟
هـــي التـــي ربّـــت الأجيـــال تربيـــة	***	تحفّهـــم بحنـــان الحـــب والحـــدب
أنـــارت الـــدرب في جنـــح الظـــلام لهـــم	***	وآمّنتهـــم مـــن التضليـــل والعطـــب
أتخفـــق اليـــوم والأبصـــار ناظـــرة	***	ولا تـــرى ثـــورة الأعجـــام والعـــرب؟

تعلـــو لهـــا صرخـــات وهـــي ترســـلها * * * إلى المســـامع هـــل مـــن نـــازح الكـــرب؟
هـــي التـــي قـــد ســـمت في أفقنـــا طربـــا * * * كانـــت تمـــدّ جناحيهـــا بـــلا تعـــب
فأســـقطت بنبـــال الحقـــد وا أســـفى * * * تدمـــي وأبناؤهـــا في نشـــوة اللعـــب
انظـــر إلى الـــشرق مـــاذا أنـــت واجـــده * * * غيرالنـــزاع وأمـــواج مـــن الشـــغب
وانظـــر إلى الغـــرب مـــاذا أنـــت واجـــده * * * غـــير الضغينـــة تحـــوى لوعـــة اللهـــب
تنـــام أعيننـــا لا تســـتفيق وقـــد * * * جـــاء العـــدوّ بأقـــوى فيلـــق الجـــب
داســـت كرامتَهـــا أخفـــــــاف خيلهـــم * * * وكبّلتهـــا قيـــود القـــوم بالغضـــب[٥٥]

- **فخر وانتماء إليها**

وبها يفتخر شعراء المنطقة استدلالًا بما يكنون لها من تعظيم، كما قال أحدهم:

أيـــا لســـــانا بـــه كنّـــا الأســـاتذ في * * * كـــل العلـــوم نرقـــى العلـــم يزدهـــر
لا لـــون لا لغـــة لا جنـــس لا بلـــد * * * فالـــكلّ في الضـــاد إخـــوان قـــد ائتمـــروا.[٥٦]

وللعلماء الأفارقة أن يعتزّوا بهذه اللغة الغرّاء، التي تمكّنوا فيها حتى أنجزوا ما يمكن أن يباروا بها العلماء العرب، وبهم يفتخر الشاعر الغيني محمد الأمين جابي في هذه الرائية، التي أسماها «بنو السودان»، وفيها يقول :

وإذا بنـــو الســـودان أضحـــوا قمّـــة * * * في العلـــم، في كل الفنـــون تبحّـــروا
أضحـــى لـــكل قبيلـــة منهـــم عـــلى * * * مـــرّ الزمـــان زهيرهـــم أو عنـــتر
فتناقلـــوا أشـــعارهم وتكاتبـــوا * * * وتجمّعـــوا بعكاظهـــم وتجمهـــروا
بانـــت ســـعادهم، فقـــال زهيرهـــم * * * فيهـــا مـــن الأشـــعار مـــا لا ينكـــر
وهجـــا جريرهـــم، وفاخـــر عمرهـــم * * * وبكـــوا عـــلى أطلالهـــم، واســـتعبروا
وشـــدا بليـــلى قيســـهم في عفّـــة * * * واهتـــزّ إمـــرؤ قيســـهم يتبخـــتر
وأتـــى أبـــو تمّامهـــم بقصائـــد * * * منضـــودة تســـبي القلـــوب وتبهـــر
وتأوّهـــت خنســـاؤهم برثائهـــا * * * صخـــرا مـــن الســـودان لا يتنكّـــر
تركـــوا عـــلى مـــرّ الزمـــان معارفـــا * * * كتبـــوا بهـــا تاريخهـــم وتذكّـــروا
وتفقّهـــوا في الديـــن حتـــى ألّفـــوا * * * فيـــه مـــن الأســـفار مـــا لا يحـــصر
وتبحّـــروا في النحـــو حتـــى إنَّـــه * * * أضحـــى لديهـــم ســـيبويهُ أقـــدر

وســـطوا عـــلى العقـــد الفريـــد فلـــم يعـــدْ * * * عقـــدا فريـــدا، بـــل عقـــودا تكثـــر
وســـطوا عـــلى ســـجع الـــكلام وأولعـــوا * * * بجناســـه، فأتـــوا بمـــا هـــو أكثـــر
نســـجوا عـــلى نســـج ابـــن مالـــك وارتقـــوا * * * مرقـــى الحريـــري عنـــه لـــم يتأخـــروا
وتطلّعـــوا شـــوقا إلى مرقـــى الغـــزا * * * لي صاحـــب الإحيـــاء، ثمّـــت أبحـــروا
بـــل زاحمـــوا الياقـــوت في بلدانـــه * * * فتفنّنـــوا، وتعمّقـــوا، وتبحّـــروا
رغـــم الصعوبـــة في التنقـــل أصبحـــوا * * * يتواصلـــون، وليـــس ثمّـــت معـــبر
إن كنـــت في شـــكّ ســـل التاريـــخ عـــن * * * شـــنقيط حيـــث العلـــم فيهـــا ينـــشر
لا تنـــس عـــن فوتـــا، وعـــن طوبـــى التـــي * * * كانـــت منـــارا بالمعـــارف تفخـــر
وكـــذاك تمبكتـــو بمـــالي إنهـــا * * * في جبهـــة التاريـــخ حقـــا جوهـــر
كـــم أنجبـــت تلـــك الديـــار وخرّجـــت * * * حلقاتهـــا مـــن عالـــم لا يحـــصر
أمثـــال جاخُـــنْ ســـالم في غينيـــا * * * أمثـــال بـــن فـــودي الـــذي لا ينكـــر
وكذلـــك الفوتـــي تـــالُ ومـــن حـــوت * * * أرض الشـــمال وظـــل حيّـــا يُذكـــر
أمثـــال أهـــل العلـــم في مـــالي وفي الـــ * * * ـــسنغال أو مـــن أنجبتـــه النيجـــر[٥٧]

[الكامل]

وقد بلغ الفخر والاعتزاز ببعضهم، أن يعلنوا انتماءهم إلى العروبة، لاتخاذ هذه اللغة لغة أمهاتهم وآبائهم، وهذا ما جعل عبدالواحد جبريل سليمان يعلن انتماءه إليها، فيقول:

يـــا لائمـــاً لغـــة إليهـــا أنتمـــي * * * أجهلـــتَ أنـــك في ملامـــي تظلـــم[٥٨]

وإن أوجز هذا الشاب في التعبير عن هذا الانتماء، فإن النيجيري عيسى ألبي أبو بكر يقول: لا شكّ أن المكانة العلمية، هي أبرز مكانة احتلّتها اللغة العربية في المنطقة؛ لذا تعدّ محورًا جوهريًّا في هذا الموضوع، ولثراء مادة هذا الموضوع، وتشعّب مظاهرها، وسعة مساحتها، فإنه يمكن أن نحدد هذه المكانة العلمية بإشارات لامحة.

فمنذ أن وطئت اللغة العربية على أراضي المنطقة، في القرن الحادي عشر الميلادي، وعني بها دعاة دين الله الحنيف، الذين ضحّوا بحياتهم في تعلّم المواد اللغويّة والشرعيّة لفهم الإسلام، حتى تمكّنوا من حمل الرسالة السماويّة، فكان ذلك فرصة طيبة أن تخصب أراضي المنطقة بكثرة، فحاول أن يغوص في شيء من التفصيل، فيقول:

أيهـــا النـــاس ارحمـــوا لغـــة الضـــا د ولا تخفقـــوا بذلـــك رعبـــا
لا تقولـــوا: آباؤنـــا مـــن قديـــم ال عهـــد ليســـوا، كمـــا يظنّـــون، عربـــا
إن تاريـخنا يقـــــــرّ بـــــأنـّـــــــا عـــرب طالعـــــــــــوا رجـــالي كتبـــا[٥٩]

- **عالمية الإنتاج الشعري العربي الإفريقي**

لقد ترجم الأفارقة تقديرهم للغة العربية، بأن ضحّوا بحياتهم في دراستها، حتى أضحوا فيها علماء وشعراء قديمًا، وكتّابًا وباحثين حديثًا. وأمّا عن أعلام الشعر العربي الإفريقي فقد نال بعضهم شهرة عالمية خارج بلادهم، مثل زملائهم من الأدباء باللغات الأوروبية، رغم كونهم غير معروفين في أوطانهم لدى سواد الناس، وعامة الدارسين، حتى ولو لم يكونوا من الشيوخ الصوفية، كالشيخ أحمد بابا التنبكتي.[٦٠]

ولكن الأمر المؤلم، أن التواصل الثقافي بين دول المنطقة، كان في ظروف سيئة، لأن كثيرًا من العلماء غير معروفين في الدول المجاورة، ومع ذلك، فقد وجدنا فرصة سانحة أن يدخل بعضهم في سجل ذاكرة القرون والأجيال؛ وذلك أن كثيرًا من أعلام الثقافة العربية الإسلامية، قد اصطفّوا بين علماء العالم الإسلامي في موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين، التي تشرف على إعدادها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (ألكسو ALECSO) بتونس، ففيها تراجم مئات من أعلام الأفارقة المسلمين، وقد أسهمت فيها بمئة ونيف علَم.[٦١]

أضف إلى ذلك، إدراج بعض أعلام الشعر العربي الإفريقي في موسوعة أخرى، تشرف عليها مؤسسة جائزة عبد العزيز البابطيْن للإبداع الشعري في الكويت، تحت عنوان: «معجم البابطيْن لشعراء العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين»، والتي شارك فيها كثير من الباحثين الأفارقة[٦٢] في المنطقة، وقد بلغت مشاركتي فيها ١٤٨ شاعرًا من أدباء إفريقيا الغربية.[٦٣]

سادسًا- تطوّر اللغة العربية في المجتمع الإفريقي الحديث

وفي العصر الحديث، وبعد استقلال الدول الإفريقية من أواخر الخمسينيات إلى أوائل الستينيات، نجد عوامل أخرى، فتحت للغة العربية فرصًا جديدة للتطور، وإن كانت هناك أمور أخرى، ضايقت على هذه اللغة من التقدم أمام اللغات الأوروبية، التي أضحت لغات رسمية للدول الإفريقية المستقلة من قيود الاحتلال الغربي.

- **تطوير التعليم العربي من الاستعمار إلى العصر الحديث:**

لقد شدّ الاستعمار إزاره بعد بسط سيطرته، لشدة مراقبة التعليم العربي، ووضع قيودًا أمام ازدهاره. وكانت قيود الاستعمار الفرنسي أشد من غيره. وتتمثّل هذه القيود في ما جاء في قرار عام ١٩٠٦م: أن فتح

المدارس العربية منوط بإذن من الحاكم العام الفرنسي، ولا ينال هذا الإذن إلا بعد توفر شروط قاسية منها: تبني التعليم الفرنسي، واجتياز امتحان شفوي عن أهداف المدرسة، وتقديم تقرير شهري، وعدم قبول أي تلميذ إلّا بعد ١٥ سنة من عمره.[٦٤]

ولكن ذلك لم يمنع من ازدياد الطلبة في بعض مدارس السنغال، كمدارس كوكي، وطوبى، وتواوون،[٦٥] كما شهد بذلك المستشرق الفرنسي بول مارتي[٦٦] سنة ١٩١٨م، ولكنه كتب سنة ١٩٣٠م ما شاهده من تحول جذري في ازدياد تلامذة المدارس الفرنسية؛ فأعلن في صرخة: «لقد انهزمت المدرسة القرآنية»!! وكانت مواد التاريخ الإسلامي والجغرافيا والحساب ممنوعًا تدريسها في مدارس بعض المدن الكبرى في المستعمرات الفرنسية. ومن هنا غلب «الجمود والتقليد» على المناهج الدراسية، فلم يجد أمثال الحاج محمود با[٦٧] سبيلًا إلى التجديد الذي كان يرمي إليه في مدارسه، التي فتحها في مالي والسنغال، بعد إيابه من السعودية.

ومن ثَمّ جاءت فكرة إنشاء المدارس النظامية العربية، التي يدرس تلامذتها على السبورة الكتبَ المصورة الحديثة، فقام صراع مرير من جراء ذلك بين أصحابها، وأنصار الدراسات التقليدية في الدهاليز والكتاتيب، كأي صراع بين الحديث والقديم، حتى أدّى الأمر إلى تكفير التقليديين لهؤلاء المحدثين المجدّدين، بدعوى تأثرهم بالكفار في التدريس على السبورة. ويعد الشيخ اللبيب محمد بن عبد القادر،[٦٨] أول من ابتدع التعليم الحديث في نيجيريا.[٦٩]

وقد حاول كثير من هؤلاء المحدثين، إحياء التواصل الثقافي بينهم وبين العالم العربي، بغية إصلاح وضعية التعليم العربي. وذلك بشقّ طرق الرحلات العلمية إلى الجامعات العربية. وربما كان أهل نيجيريا سباقين إلى ذلك، لقربهم من السودان ومصر؛ وقد أورد صاحب «حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا» قائمة بأسماء طلبة البرنو والولايات الأخرى بنيجيريا، الذين كانوا يدرسون في جامع الأزهر في فترة ما بين ١٨٨٩م و١٨٩٠م.

ولكن الاستعمار عرقل استمرار هذه الرحلات العلمية، طيلة النصف الأول من القرن العشرين، وخاصة في نيجيريا،[٧٠] كما كان يعوق رحلات الحجاج الأفارقة إلى الأراضي المقدسة، لقضاء فريضة الحج، خوفًا من تسرب أفكار الصحوة الإسلامية إلى المنطقة، وخوفًا من استيراد الكتب الجديدة ضد الأفكار الغربية.

- **اللغة العربية وآدابها بين تدهور وتطور**

وبعد أن ذاق التعليم العربي جميع أنواع المراقبة والعراقيل، في النصف الأول من القرن العشرين. كانت القيود لا بدّ أن تنكسر يومًا، بعون الله، ثم بفضل جهود أفراد تحمّلوا مشقّة السفر إلى المشرق والمغرب العربيين. وكان ذلك في الخمسينيات، التي تعدّ بداية عهد جديد، يبعث الأمل في النفوس؛ فبدأت رحلات متلاحقة إلى مصر والسعودية والسودان أفرادًا. ولم تتبنّ الحكومات تلك البعثات العلمية رسميًّا إلا في

الستينيات، ولم يكن ذلك إلا في بعض الدول التي تتمتع بأكثرية المسلمين، مثل: نيجيريا، والنيجر، ومالي، والسنغال، وغينيا، وغامبيا.

وكانت حكومة نيجيريا، قد تبنّت مشروع البعثات العلمية العربية منذ الخمسينيات؛ إذ أرسلت بعثات متلاحقة إلى السودان، وإنجلترا سنة ١٩٥٤م، ثم توالت البعثات إلى كل من مصر، والسعودية، والعراق، وليبيا، منذ سنة ١٩٦٢م.[٧١] وكانت حكومة السنغال قد بدأت إرسال بعثاتها إلى المغرب، والجزائر، إبّان الستينيات، ولم تحلَّ السبعينيات، إلا وقد وجد في جميع دول الشرق العربي والمغرب العربي، طلاب من بلدان غرب إفريقيا، إما بواسطة الحكومات، أو بواسطة الجمعيات الإسلامية والمدارس العربية، أفلا يدل ذلك على مكانة اللغة العربية في قلوبهم؟!

ولم تنتظر الدول الإفريقية طويلًا، إلّا أن رأت تيارات التجديد، بعد إياب روّاد هذه البعثات، يحملون إلى بلدانهم مختلف التيارات الفكرية والدينية. فأنشأ كثيرون منهم مدارسهم العربية الأهلية، على طراز المناهج الدراسية، واتجاهات المذاهب الدينية، من إحدى الدول العربية التي درسوا فيها.

ومن هنا اختلفت مناهج المدارس في الدولة الواحدة، بل في الإقليم الواحد؛ فكثرت المدارس العربية الحديثة، وكان أمل الرحلة إلى الدول العربية، عاملًا في رغبة إقبال الطلبة على الدراسة العربية في السبعينيات والثمانينيات، وقد حق للغة العربية آنذاك أن تتنفس بروح التطور والتقدم.

- **ومن مظاهر هذا التطور**

١- إنشاء أقسام اللغة العربية في كليات الآداب بجامعات نيجيريا منذ سنة ١٩٦١م، وبالسنغال في السبعينيات، وفي غانا في الثمانينيات، وفي مالي وغينيا وبوركينا فاسو في نهاية التسعينيات، بخلاف سائر الدول التي هي في سبيل إنشائها أيضًا، مثل: توغو، وغامبيا.

٢- كثرة إنشاء الجامعات، كالجامعة الإسلامية بالنيجر وأوغندا، التابعة لمنظمة المؤتمر الإسلامي، وفروع كلية الدعوة الإسلامية في تشاد، وبنين، والسنغال، ومالي، وجامعة الإعمار بكوناكري في غينيا، والكلية الإفريقية بدكار في السنغال، ومعهد المنتدى الإسلامي ببماكو في مالي، وجامعة الحكمة بإلورن في نيجيريا، وجامعة فيصل بجامينا في تشاد، والمراكز الإسلامية للشيعة في أبدجان، وأكرا، وفريتاون... إلخ.

٣- تبني بعض الحكومات الدراسةَ العربية في مدارس ما قبل الجامعية، إمّا بإدراجها في مدارسها كمواد دراسية، كما في السنغال، وبوركينا فاسو، ومالي، وإمّا بإنشائها «المدارس الحكومية العربية «، كما في النيجر، ونيجيريا، وغينيا، ومالي.

٤- مواصلة بعض الحكومات إرسال البعثات العلمية إلى جامعات الدول العربية المختلفة.

٥- كثرة حملة شهادات الإجازة العالية (الليسانس)، كما يزداد عدد حاملي شهادات الماجستير والدكتوراه؛ إذ لا يمكن إحصاء حملة الإجازة العالية في نيجيريا والسنغال مثلًا. علمًا أن نيجيريا، تتميز بوجود فرص التعليم من المرحلة الابتدائية إلى الدكتوراه.

٦- توظيف الخريجين المستعربين في تدريس المواد العربية والإسلامية في المدارس الوطنية، وهذا بالتحديد في نيجيريا، والنيجر، ومالي، وغينيا، والسنغال.

٧- انتداب المدرسين العرب من السودان، ومصر، وليبيا، والمغرب، للتدريس في بعض المدارس الأهلية، أو في الأقسام العربية بجامعات المنطقة الوطنية.

٨- تعيين بعض المنظمات العربية الخريجين الأفارقة، للتدريس في المدارس الأهلية العربية، أو في الأقسام العربية بالجامعات الوطنية، كوزارة الأوقاف السعودية مثلًا، وخاصة جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، التي تحمّلت مرتّبات المدرسين عن المدارس الثانوية، بتعيين الخريجين في برنامج ما بعد كنو، وكذلك بتعيين الأساتذة الجامعيين في فروع كلية الدعوة الإسلامية في تشاد، وبنين، والسنغال، وفي الجامعة الإسلامية بالنيجر.

٩- انتشار الكتب العربية المطبوعة، والدوريات العربية من مجلات، وجرائد، وصحف يومية.

١٠- تيسير الرحلات إلى الدول العربية؛ إذ في كلّ سنة يحجّ ملايين المسلمين في المنطقة.

١١- اهتمام بعض المنظّمات العربية بقضايا الثقافة العربية الإسلامية في المنطقة، كمعهد الدراسات الإفريقيّة في المغرب، والمنظمة الإسلامية (إيسيسكو ISESCO) في المغرب، والمنظمة العربية (ألكسو ALECSO) بتونس، وجامعة إفريقيا العالمية بجمهورية السودان، وجمعية الدعوة الإسلامية العالمية بدولة ليبيا.

١٢- اهتمام بعض الكتاب العرب بقضايا الثقافة العربية الإسلامية بالمنطقة، أمثال: نعيم قدّاح، والدكتور علي شلش، والدكتور عبد الله عبد الرزاق، والدكتور إبراهيم علي طرخان، والدكتور الهادي المبروك الدالي، والدكتور عبد الحميد الهرّامة، والدكتور أمطير سعد غيث، والدكتور محمد الغربي.

الخاتمة

من هذه الدراسة المتواضعة، التي توخت إبراز جوانب كثيرة من مكانة اللغة العربية في إفريقيا، منذ دخولها إلى دول المنطقة عن طريق القوافل التجارية. وحملت هذه اللغة التعاليم الدينية إلى المجتمع المحلي، عبر المراكز التعليمية العتيقة، والمجالس العلمية، والزوايا الصوفية؛ فتأثرت اللغات المحلية بها في أسماء الأيام،

والأعلام، والأمور الاجتماعية، وخاصة المصطلحات الدينية، فلم تفرق المجتمعات الإفريقية بين «اللغة العربية» و«الدين الإسلامي». وبقيت هذه الصحبة بينهما، حتى ترسّخت لهذه اللغة مكانتها في تقاليد الشعوب، وفي مشاعر أهاليها.

وفي العصر الحديث، انفتحت فرص جديدة مع استقلال الدول؛ فظهرت مجلات عربية في الجامعات العربية الحديثة، التي تحمل في طياتها إنتاجات الكتّاب، ودراسات الباحثين، وقصائد الشعراء. أضف إلى ذلك مراكز بحثية دولية في الدول العربية، والتي أثبت فيها الباحثون الأفارقة عالمية علمائهم، ومؤلفاتهم، ودواوينهم، في موسوعة ألكسو – مثلًا - ومعجم البابطين.

هذا عن خلاصة هذا البحث. أمّا النتائج التي توصلنا إليها فيمكن الاكتفاء بما يأتي

١- إن رحلة اللغة العربية إلى المنطقة، كانت برفقة هذا الدين الحنيف، الذي أثبت للجماعات المحلية أنها لغة القرآن الكريم؛ فنالت قدسيتها وتقديرها لدى جميع مسلمي المنطقة.

٢- إن تأثير اللغة العربية ملحوظ وكبير، في أشهر اللغات المحلية في دول جنوب الصحراء جميعها، وهو دليل ملموس على ترحاب القبائل المحلية بهذه اللغة.

٣- إن الوسائل السلمية والعوامل الاجتماعية، التي سنحت لهذه اللغة أن تترسخ بجذورها، هي التي فتحت لها أبواب التطور والتقدم في المنطقة.

٤- إن المراكز العتيقة التي احتفظت باللغة العربية، تطورت إلى مؤسسات حديثة لتطوير هذه اللغة، في مجالات اجتماعية وثقافية وأكاديمية.

٥- تبيّن في هذه الورقات، أن لكل دولة بغرب إفريقيا تراثًا عربيًّا إسلاميًّا، وذلك بوجود العلماء القدماء فيها، والمحدثين كذلك.

٦- رغم وجود اللغات الأوروبية في الدول المستقلة، والتي صارت لغات رسمية للإدارات الحكومية؛ فإن اللغة العربية صمدت أمام موجاتها، وسلكت طريقها إلى التطور، فجدّدت علاقتها بالدول العربية في البعثات العلمية، والإنتاجات البحثية، مع المنظمات العربية الدولية.

٧- ما زال الباحثون الأفارقة يحرصون على إحياء هذا التراث، بنشر أبحاث في مجلات عربية بالمنطقة، وذود موضوعات رسائلهم الأكاديمية من قضاياها. وهي دراسات ناطقة عن مكانة اللغة العربية في المنطقة.

ومن هنا ننتهز هذه الفرصة في أن نبلغ القراء المحترمين هذه التوصيات المتواضعة

- بعد بقاء اللغة العربية في منطقة إفريقيا الغربية كلغة دينية ودراسية، فإن الدور الحالي يتطلب أن تتطوّر إلى لغة ثقافية متمكنة، وصحافية واسعة، واجتماعية في ربوع المنطقة.

- ينبغي أن تبذل إمكانيات كبيرة لنشر مخطوطات العلماء، ودواوين الأدباء، كي نعرف العالم العربي بما في المنطقة من تطور مستمر لهذه اللغة الغراء.
- لإحياء التواصل الثقافي بين دول المنطقة، يجب أن يهتمّ الباحثون بدراسة مشاهير العلماء في جميع دول المنطقة، من خلال بعض المواد الدراسية، مثل: «التاريخ الإسلامي بإفريقيا»، و«الأدب العربي الإفريقي»، والبحث العلمي في تحقيق المخطوطات.
- ألّا تقتصر دراستنا لهذا التراث على التعريف به فقط، بل يجب أن نتعمّق في دراستنا له بغربلته، ونقده نقدًا بنّاء، بدلًا من أن نظلّ مردّدين جهود الآباء، ومفاخر الأجداد فيه.
- إن المكتبة العربية تفتقد معرفة تراث عربي إسلامي، من كل دول منطقة إفريقيا الغربية، كي تظهر للعالم مدى سعة الأمة الإسلامية وقوة حضارتها.

الهوامش والإحالات

(١) هم بنو هلال بن عامر بن صعصعة. ينظر: أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج ١، (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٢٢م)، ٣٩٤.

(٢) راجع: عبد الرحمن الماحي، «مساهمة القوافل التجارية في نشر اللغة العربية والحضارة الإسلامية في منطقة الساحل الإفريقي،» حوليات الجامعة الإسلامية بالنيجر، العدد ٤، (ساي: الجامعة الإسلامية بالنيجر، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م)، ١٦٢. نقلًا عن القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ٨-١١٦.

(٣) أمطير سعد غيث، التأثير العربي الإسلامي في السودان الغربي، ط١ (بنغازي: دار الرواد، ١٩٩٦م)، ٤٣-٤٤.

(٤) ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، (بغداد: مكتبة المثنى، ١٩٢٠م)، ٢١٨.

(٥) غيث، التأثير العربي الإسلامي في السودان الغربي، ٣٤.

(٦) شيخو أحمد سعيد غلادنثي، حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، ط٢ (د.م: المكتبة الإفريقية، ١٩٩٣م)، ٢٧.

(٧) إبراهيم علي طرخان، قيام إمبراطورية مالي، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣م)، ٥٠.

(٨) آدم عبد الله الإلوري، موجز تاريخ نيجيريا، (بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٦٥م)، ٨٢.

(٩) يكتب هكذا «جاو» عند القدامى، ويفضل المحدثون «غاو».

(١٠) إبراهيم طرخان، إمبراطورية غانا الإسلامية، (القاهرة: الهيئة المصرية، ١٩٧٠م)، ٥٣.

الإلوري، موجز تاريخ نيجيريا، ٣٥-٣٦.

(١١) إسماعيل العربي، الصحراء الكبرى وشواطئها، (الجزائر: المؤسسة الوطنية، ١٩٨٣م)، ٣١٧.

(١٢) ولد بغرناطة، وتوفي بمدينة تنبكتو سنة٧٤٧هـ/ ١٣٦٤م، شاعر ومهندس، بنى جامع جني وقصر الملك.

راجع: شهاب الدين أحمد التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، (بيروت: دار صادر، ١٩٩٧م)، ٢-١٩٤.

(١٣) كان عالما جليلًا، ومهندسًا من رفقاء إبراهيم الساحلي (ت١٣٤٦م) في البناء، وتوفي في تِنْبُكْتُ، وما زال قبره يزار.

ينظر: عبد الرحمن السعدي، تاريخ السودان، (د.م: مطبعة بريدن، ١٨٩٨م)، ٥١.

(١٤) ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج٤ (بيروت: أكاديمية المملكة المغربية، ١٤١٧ه)، ٢٥٣-٢٧٤.

(١٥) عبد القادر محمد سيلا: المسلمون في السنغال (د.م، د.ن، ١٤٠٦ه) ١٢٥.

(١٦) ابن بطوطة، تحفة الأنظار في غرائب الأمطار وعجائب الأسفار، (بيروت، دار الكتاب اللبناني، د. ت)، ٤٤٣.

(١٧) فقيه ومفسر (ت٩٠٩هـ)، ومن طوارق تلمسان بالجزائر، زار السنغال وتِنْبُكْتُ وكنو، توفي في توات.

ينظر: الزركلي، الأعلام، (بيروت: دار العلم للملايين، ٢٠٠٢م)، ٦-٢١٦.

(١٨) الشيخ أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، (طرابلس: منشورات كلية الدعوة الإسلامية، ١٩٨٩م)، ٥٧٦.

(١٩) أسسها الطوارق، فأصبحت عاصمة الثقافة بمسجدها سنكرى، وكثرة فقهائها وطلابها في القرن ١٤م.

(٢٠) أسست في القرن الثاني الهجري، وبعد إسلام ملكها كنبر، أصبحت مركزًا تجاريًّا وعلميًّا في المرتبة الثانية بعد تِنْبُكْتُ، وهي تقع بجمهورية مالي.

(٢١) جاو (أو غاو) أو كاغو، أو كاوكاو، كانت عاصمة مملكة صنغاي بعد سقوط إمبراطورية مالي، إبّان القرن الخامس عشر الميلادي، وهي قريبة من تِنْبُكْتُ.

(٢٢) كنو: إحدى المدن الشمالية في نيجيريا، على الحدود مع النيجر، كانت وما تزال إحدى عواصم الثقافة الإسلامية قديمًا وحديثًا.

(٢٣) ابن بطوطة، تحفة الأنظار في غرائب الأمطار وعجائب الأسفار، ٤٥٠.

(٢٤) صكتو: هي عاصمة الدولة الإسلامية التي أسسها عثمان بن فودي سنة ١٢١٨هـ/ ١٨٠٤م بشمالي نيجيريا.

(٢٥) تقع شمال نيجيريا، سميت باسم الملكة زاريا التي ملكتها في القرن السادس عشر، وهي أخت الملكة أمينة.

(٢٦) جوغو في شمال بنين، أسّستها قبيلة يوبا، دخل الإسلام فيها بسبب التجار، وكثرت فيها مجالس قرآنية.

(٢٧) كانت تشاوجو شمال توغو، مملكة إسلامية في عهد جوبو سيمو منذ القرن ١٨م.
ينظر: متوكل زكريا، «أثر وسائل الإعلام،» ١٦.

(٢٨) هي مدينة أشانتي بقلب غانا، نزل فيها المسلمون من الهوسا، وأنشؤوا حي زونغو بإمارة إسلامية، فانتشرت فيها مجالس التحفيظ.

(٢٩) هما مدينتان شماليتان: أقامت قبيلة كوليبالي مملكة إسلامية في كون، كما أنار قبيلة جابي سماتيغيلا بالعلوم الإسلامية.

(٣٠) تمبو مدينة عاصمة العلوم في فوتاجالون، وكنكان عاصمة الدين في غينيا العليا، وذلك في القرن السادس عشر، وطوبى أسسها كراموبا سالم جابي سنة ١٨١٥م في فوتاجلون، وصارت قلعة علمية للفلانيين.

(٣١) ولد سنة ١٧٣٠م، درس في جامعة بير، وقام بالجهاد سنة ١٧٧٦م ضد دولة دانياكي. (الأدب السنغالي العربي، ص ١/ ٢١).

(٣٢) عاش ما بين (١٧٤٤و١٨١٧م) زهد بالقادرية في الإمارة، وتفرغ للتأليف. (الثقافة العربية في نيجيريا، ص٦٨).

(٣٣) ولد بفوتاطورو حج وزار صكتو، أخذ التجانية في مصر ونشرها بالمنطقة (ت١٨٦٤م). (موسوعة ألكسو ٤/ ٣٦٩).

(٣٤) استشهد عام ١٨٦٧م بعد نشر الإسلام في سالُوم، ومقاومة الاستعمار. (الأدب السنغالي، ص ١/ ٢١).

(٣٥) هي التي أسسها الشيخ عبدالقادر الجيلاني (٤٧١-٥٦٢ هـ) ببغداد، كان شافعيًّا. منها: البكائية، و والاثة، وأدرار.

(٣٦) ويعدّ سيدي الختار الكونتي الكبير(١٧٣٠-١٨١١م)، أشهر من انتشرت القادرية على يده في بلاد المنطقة.

(٣٧) الشاذلية: أسّسها في مصر أبو الحسن علي الشاذلي (ت٦٥٦هـ) الذي ولد في سبتة، وينتمي إلى أدارسة المغرب.

(٣٨) ينحدر من قبيلة فلانية بفوتاجالون (١٨٢٨-١٩١٢م)، زار مدنًا كثيرة منها فاس. (L'Islam en Guinée p56).

(٣٩) متصوف مغربي من أهل فاس (ت ١٢٧٥هـ/ ١٨٥٩م)، له مؤلف المناجاة الفردية. (الأعلام للزركلي ص ١/ ١٠٣).

(٤٠) ينظر: باري، عثمان برايما: جذور الحضارة الإسلامية. دار الأمين، ط ١، ٢٠٠٠م، القاهرة، ص ٢٣١.

(٤١) أسّسها سيدي محمد علي السنوسي (ت١٥٨٩م)، وكان لزواياها دور في نشر الدين، ومقاومة الاستعمار.

(٤٢) الإلوري، آدم عبد الله: الإسلام في نيجيريا، ص ٤٥.

(٤٣) والإحصائيات في هذه الدول الثلاث الأخيرة غير دقيقة، ولا نغالي إذا قدرنا ساحل العاج بـ ٤٠٪، والأخيرتين بـ ٣٠٪.

(٤٤) ينظر: Encyclopédie Encarta 2007 de Luxe, Microsoft, USA.

(٤٥) نشير إلى أن الفلانية بلهجاته المختلفة منتشرة في السنغال، ومالي، وغينيا، وبوركينا، والنيجر، ونيجيريا. ولغة هوسا منتشرة أصلًا في دولتي نيجيريا والنيجر، ولغة المسلمين في غانا. ويوربا في نيجيريا، وبنين فقط. وزرما في النيجر بهذا الاسم، وفي مالي وبنين باسم مغاير. وولوف في السنغال وغامبيا. أما مانيكا، فهي متعددة اللهجات: مانيكا في غينيا، وبمبارا في مالي، وجولا في بوركينا فاسو وساحل العاج، ومانديغو في غامبيا، وسوسي في السنغال.

(٤٦) ألبي، الدكتور عيسى أبو بكر: الرياض، مركز ولي حمزة، ط ١، ٢٠٠٥م، إلورن، نيجيريا، ص ١٤٦-١٤٧.

(٤٧) نخبة من شعراء نيجيريا: البنينيات، ص ٢٧-٢٨.

(٤٨) غاي، شيخ تجان: من وحي الواقع، ص ١٢٣.

(٤٩) نخبة من شعراء نيجيريا: البنينيات، ص ٢٧-٢٨ .

(٥٠) ألبي، الدكتور عيسى أبو بكر: الرياض، ص ١٤٥

(٥١) غاي، شيخ تجان: من وحي الواقع، ص ١٢٢-١٢٣

(٥٢) كبا، عمران: الشعر العربي في الغرب الإفريقي خلال القرن العشرين الميلادي، منشورات إيسيسكو، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م، الرباط، المملكة المغربية، ص ٢٣٨.

(٥٣) جايتي، بامين محمد سري: صوت الإسلام، ميمية مخطوطة بمكتبة الشاعر، بركاما، غامبيا.

(٥٤) ألبي، د. عيسى أبو بكر: الرياض، ص ١٤٦.

(٥٥) ألبي، د. عيسى أبو بكر: الرياض، ص ١٤٨.

(٥٦) غاي، شيخ تجان: من وحي الواقع، ص ١٢٣.

(٥٧) جابي، محمد الأمين: بنو السودان، مخطوطة بمكتبة الشاعر، كوناكري، غينيا.

(٥٨) نخبة من شعراء نيجيريا: البنينيات، ص ٢٧-٢٨.

(٥٩) ألبي، د. عيسى أبو بكر: الرياض، ص ١٤٦ .

(٦٠) هو أحد علماء تنبكتو بل أشهرهم في القرن السادس، ولد سنة ٦٩٣هـ/١٥٥٦م في تنبكتو، وعاش فيها، وصار أشهر علمائها صيتًا في المغرب العربي. وتوفي سنة ١٠٣٦هـ/١٦٢٧م بالمغرب بعد الحملة المغربية على تنبكتو. له كتاب: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، وهو ترجمة لعلماء المالكية المتأخرين.

(٦١) راجع مثلًا أجزاء ٨-١٥: موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين، منشورات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، دار الجيل، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٧م، بيروت، لبنان.

(٦٢) أمثال: وليلاي كندو من بوركينا فاسو، ومحمد سعيد باه في السنغال، ومحمد المبروك في مالي.

(٦٣) راجع: معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين، مؤسسة جائزة عبد العزيز البابطين للإبداع الشعري، شركة مجموعة فور فيلمز للطباعة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م، الصفاة، الكويت.

(٦٤) انجاي، محمد بمبا: أضواء على السنغال، لا. دار، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/١٩٩١م، القاهرة، مصر، ص ٢٣.

(٦٥) ينظر: سيلا، عبد القادر: المسلمون في السنغال، كتاب الأمة ١٢، ط ١، قطر، ١٤٠٦هـ، ص ٩١.

(٦٦) رحالة أوروبي من أقطاب الاستعمار، جاب إفريقيا الغربية لدراسة أوضاع المسلمين فيها، فخصص لكثير من دولها كتابًا.

(٦٧) عاش ما بين ١٩٠٦م و١٩٧٨م، درس في غربي إفريقيا، قبل أن يلتحق بمدرسة الفلاح في مكة المكرمة، ورجع سنة ١٩٤٠م.

(٦٨) يلقب بتاج الأدب (١٨٨٥-؟) كان صوفيًّا مجذوبًا ذا كرامات عديدة، وأستاذ محمد كمال الدين الأدبي. (لمحات البلور، ص٥٦).

(٦٩) الإلوري، الشيخ آدم عبد الله: الإسلام في نيجيريا، ص ٧٠.

(٧٠) غلادنثي، شيخو أحمد سعيد: حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، ص ٢٠٧.

(٧١) غلادنثي، شيخو أحمد سعيد: حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، ص ٢١٠-٢١٤.

رحلة الحج في الشّعر العربي الإفريقي: دراسة وصفية تحليلية

د. مامادو بسير دامبلي، أستاذ التّعليم العالي، جامعة السّاحل وجامعة التّعاون، بماكو.

تعدّ رحلة الحج إلى مكة المكرمة لقضاء فريضة الحج من أشهر الرّحلات الإفريقية، وهي رحلة موسمية جماعية، تقوم بها الوفود في كل عام قديمًا وحديثًا؛ فهذه الرّحلة في سياقها الإفريقي رحلة مخاطر ومتاعب وصعوبات كثيرة من جانب، ومن جانب آخر هي رحلة مقدسة وتطهيرية، تضفي على القائم بها نوعًا من القداسة، والتّطهير من الذّنوب والمعاصي، ممّا يرشحه ليكون موضع تبرك وطلب دعاء إثر رجوعه، في طقوس وعادات إفريقية فريدة، تسفر عن مكانة هذه الرّحلة، وعن مقام هذه العبادة في نفوس الأفارقة وقلوبهم.

والشّاعر الإفريقي، باعتباره شاهد عيان على مختلف الأحداث، وبطبيعة حسّه المرهف، وشعوره الدّقيق، وإحساسه العالي تجاه الظواهر، لم يغب عنه معنى هذه الرّحلة، وما يحيط بها من طقوس وعادات، قبلها وبعدها، ولم يفته تسجيل مناطق عبورها، وما يلاقي فيها الحاج من المخاطر والصعوبات المختلفة؛ فوصف راحلتها البرية، والبحرية، والجوية، ولم ينس كذلك التّعبير عن شوقه وحنينه إليها، بتصوير هذه المشاعر المقدسة، في نصوص شعرية مبثوثة في مدونة الشعر العربي الإفريقي، وهذا الحسّ المرهف للشّاعر الإفريقي، ودقة تصويره لمختلف اللّقطات، لفتت انتباه الباحث نحو هذه الظّاهرة الشّعرية، فجاءت هذه الدراسة تحت عنوان: «رحلة الحج في الشّعر العربي الإفريقي، دراسة وصفية تحليلية»، وذلك في مطلبين سُبقا بمقدمة ومدخل، وتوِّجا بخاتمة وفهرس المصادر والمراجع على نحو التّفصيل الآتي:

مدخل في مفهوم مصطلح رحلة العمر، والحج في السّياق الإفريقي.

المحور الأوّل: مناطق عبور الحجيج الإفريقي ووصف راحلتهم الحجية.

المحور الثّاني: الحجات الشّعرية، والتّصوير الرّوحي لمناسك الحج ومشاعره.

مدخل في مفهوم مصطلح رحلة العمر، والحج في السّياق الإفريقي

مفهوم (رحلة العمر)

إنّ شدّ الرّحال لحج بيت الله الحرام في سياقه الإفريقي، وعند المجتمع الإفريقي، هو رحلة يمكن وصفها بمختلف الصفات والنّعوت، من رحلة الأُمنية، لكون هذه الرّحلة أمنية كل مسلم على وجه الأرض، وخاصة المسلم الإفريقي، الذي كلّما يطول به العمر تتلخص أمنياته في أمنية واحدة كبيرة، وهي أمنية قصد البيت الحرام لقضاء فريضة الحج، وتوصف برحلة الحلم، لكونها عند كثير من مسلمي إفريقيا حلمًا بعيد المنال، ولا يتحقّق لكل مسلم، ولعلّ أجدر وصف لرحلة الحج في سياقه الإفريقي، هو وصفها بـ (رحلة العمر)، إنّها رحلة العمر التي تكون مرّة في العمر، وقلّما كانت تتكرّر في العمر، إلّا في الآونة الأخيرة، مع التّسهيلات التي عرفتها هذه الرّحلة مؤخرًا، بفضل الراحلة الجوية، التي قد تقل الحجيج إلى البيت الحرام في غضون أيام فقط، بينما كانت الرّحلة مسألة شهور إلى سنوات أحيانًا، ممّا جعلتها تجربة حياتية قاسية، محفوفة بالمخاطر والصعوبات بمختلف أنواعها، من المخاطر الطبيعية وما فيها من حرٍّ، وعطش، وجوع، وافتراس الوحوش في الغابات، وغير ذلك، والمخاطر البشرية، وما فيها من التعرض للصوص، وقطاع الطرق، وغيرهم. وقد تواترت الروايات التّاريخية عن ابتلاءات الحجاج الأفارقة، خلال رحلتهم الحجية في المصادر العربية والمحلية، ومن ذلك ما رود في تاريخ الفتاش في قصة حج كنكو موسى بقوله: «ووردوا يومًا على بئر في قفار صحاريهم عطاشى ظامئين، وأدلوا دلوهم في ذلك البئر، ونزل على الماء فقطع حبله هنالك، ثم أخرى فقطع، ثمّ أخرى فقطع، فظنوا أنّ هناك من يقطعها وهم في غاية الظّمآن، واجتمعوا كلهم على جرفها لا يدرون ما يفعلون، وشمّر سليمان بن يعت على ساعده، وتأبط سكينه، ورمى بنفسه إلى داخل البئر، وترك القوم على البئر واقفين في كرب عظيم، وإذا هو برجل لص محارب سبقهم على البئر، مراده يمنعهم الماء حتى يموتوا عطاشى كلهم، فيخرج ويجمع جميع أموالهم لنفسه...».[1] وروى ابن حجر العسقلاني أنّه: «خرج سعد الدين بن أبي الغيث صاحب ينبع، على ركب المغاربة بوادي العقيق، وطلب منهم مالًا، فتكاثروا عليه وقيدوه، فقام العرب الذين كانوا معه فقاتلوهم فقتل بينهم مقتلة عظيمة، ثم جاء التّكرور فساعدوا المغاربة فكثرت القتلى، ونهبت من المغاربة والتكرور أموال عظيمة، فبلغ ذلك بهادر أمير المحمل، فقام في لمّ شعث هذه القضية وتسكين هذه الفتنة إلى أن هدأت».[2] وروى ابن خلدون عن ركب حجي من السّودان بقوله: «وذلك أنه ضل في الطريق عن المحمل والركب، وانفرد بقومه عن العرب، وهي كلها مجاهل لهم، فلم يهتدوا إلى عمران، ولا وقفوا على مورد، وساروا على السمت إلى أن نفذوا عند السويس وهم يأكلون لحم الحيتان، إذ وجدوها والأعراب تتخطفهم من أطرافهم إلى أن خلصوا».[3] وكل هذا جعل رحلة الحج في القديم رحلة صعاب ومشقة، ورحلة عذاب وجهاد، إلى حدّ رحلة حياة أو موت، ممّا جعلها لا تتكرر في العمر كثيرًا، مما سوّغ تسميتها بـــــ»رحلة العمر».

الحج في سياقه الإفريقي

لقد وضع المجتمع الإفريقي فريضة الحج ومناسكها في سياق خاص، فصبغوها صبغة إفريقية خاصة، بوضع مفاهيم معيّنة لها، والنّظر إليها نظرة قدسية، تليق بمقام هذه الشعيرة الدّينية، إلى حدّ تسريب هذه القدسية إلى الحجيج الإفريقي نفسه؛ فالحج في سياقه الإفريقي عبادة وداعية للحياة الدّنيوية، لذا كثيرًا ما كانوا يجعلونها إلى مطاف العمر وأواخره، مع ما في ذلك من خطورة ومخالفة للتّعاليم الإسلامية، والهدايات الرّبانية، ولعل تفسيرهم وتسويغهم لهذا التّأجيل، هو أنّها بمثابة آخر تطهير رباني، ينبغي المحافظة عليها من مختلف الآثام إلى الممات، ولعل مرحلة الشّيخوخة خير مساعد على الحفاظ على هذه الحالة المطهرّة، ممّا يفرض على الحجيج بعد أداء فريضة الحج نمطًا جديدًا من الحياة، أقرب ما يكون إلى الاستعداد للموت، وانتظاره بالأعمال الصّالحة، والابتعاد عن كل المحارم والمعاصي، فكانوا يرون أنّه من الصعب الحفاظ على هذه الطهارة في مرحلة الشّباب، لذا لم يكونوا يحبذون، ولا يحثون الشّباب على القيام بهذه الرّحلة، وإن كانوا لا يمنعونهم، ولا يحرمونهم منها.

أمّا شخصية الحجيج في السياق الإفريقي فهي شخصية مقدسة ومطهرة، استمدت طهارتها وقداستها من قداسة مناسك الحج، وقداسة المشاعر التي حضرها خلال أداء شعيرة الحج، من المساس بالكعبة المشرفة وستارها، والوقوف بعرفة، والمبيت بالمزدلفة، ورمي الجمار، والشرب من ماء الزّمزم، وتقبيل الحجر الأسود، والصلاة في مقام إبراهيم عليه السّلام، وهذه القداسة والطهارة ترافق الحجيج الإفريقي إلى مسقط رأسه، لذا كان الحجاج الأفارقة يستقبلون عندم قدومهم من الحج بطقوس دينية إفريقية، قلما تجد نظيرًا لها في العالم الإسلامي، وذلك قديمًا وحديثًا.

والاحتفاء والاحتفال بالحجاج العائدين من المشعر الحرام عادة إفريقية حسنة، وهي قديمة وحديثة، لما يتربع عليه الحجاج من مكانة مرموقة، بنظرة تطهيرية من جميع الذّنوب والمآثم، وللمسه المشاعر المطهرة بأيديهم، من أركان الكعبة، والحجر الأسود، والزّمزم، وغيرها، وهذه المكانة الاجتماعية، فرضت على المستعمر احترام الحجاج، وتخصيص تسهيلات خاصة بهم، ويؤيد هذا الاحترام الاستعماري للحجاج، الباحث محمدو أمين بقوله: «ولعل المكانة الاجتماعية التي يكتسبها الحاج في مجتمعه، بعد العودة من رحلة الحج، هو ما جعل السّلطات الاستعمارية، تضع ضمن لائحة المعلومات التي تطلبها في ورقات الاستعلامات، خانة خاصة، حول ما إذا كان الشّخص ممن سبق له أن سافر إلى الدّيار المقدّسة».[٤]

ورحلة العمر هي رحلة قديمة لدى الإنسان الإفريقي، فكانوا يحرصون حرصًا شديدًا على قضاء فريضة الحج ملوكًا ومملوكًا، رجالًا ونساء، وها هو ابن خلدون، يرصد لنا قائمة للملوك الذين حجوا من بلاد السّودان بقوله: «وحج جماعة من ملوكهم، وأوّل من حج منهم برمندار، وسمعت في ضبطه من بعض

فضلائهم برمند، أنه وسبيله في الحج، هي التي اقتفاها ملوكهم من بعده، ثم حج منهم منسا ولي بن ماري جاطة أيام الظاهر بيبرس، وحج بعده منهم مولاهم صاكوره، وكان تغلب على ملكهم، وهو الّذي افتتح مدينة كوكو، ثم حج أيام الناصر، وحج من بعده منهم منسا موسى».[٥]

المحور الأوّل- مناطق عبور الحجيج الإفريقي، ووصف راحلتهم الحجية في الشّعر العربي الإفريقي

لقد اصطلحت الباحثة الموريتانية فاطمة عبدالوهاب، على مختلف المنتوج الكلامي لأصحاب رحلة الحج بـ(خطاب العبور)، باعتباره: «كل أشكال التّعبير المتعلقة بمسار الرّحلة، ووسائل النّقل المستخدمة خلالها، والمشاهد التي رآها الحجاج، وأشكال التّفاعل التي أقاموها مع محيط الرّحلة، على مختلف المستويات»،[٦] باعتباره خطابًا استطلاعيًّا «يشمل مختلف الصيغ التّعبيرية، الهادفة إلى تقديم هذه الرّحلة منطلقًا ومسارًا، ورفقة ومآلًا، بما في ذلك المظاهر المادية والطبوغرافية والبشرية».[٧] وانطلاقًا من ذلك؛ فقد اهتم الحجيج الإفريقي اهتمامًا بالغًا برحلته الحجية، في إنتاجه الشّعري، وألقى هذا الاهتمام ظلاله على مناطق عبور هذه الرّحلة، وراحلتها التي توصله إلى بيت الله الحرام، فسردوا لنا مجموعة من البلاد والمناطق التي يعبرونها، ليصلوا إلى مكة المكرمة، ووصفوا لنا تلك الرّواحل المختلفة التي تقلهم إلى الحج، في معالجة شعرية فنية طريفة وظريفة، إلى حدّ الجدة والابتكار، وخاصة في مجال وصف راحلة الحج، الرّاحلة البحرية والجوية أنموذجًا، وفيما يأتي تفصيل ذلك.

١- مناطق العبور خلال رحلة الحج

يفصل بين الحجيج الإفريقي والبيت الحرام، وخاصة للآتي من الغرب الإفريقي، مسافات جغرافية ممتّدة، يشكّل اقتحامها، والعبور بها، وقطعها، تجربة حياتية فريدة عند الحجيج الإفريقي، تجربة حافلة بالمخاطر والصّعوبات، التي قد أودت بحياة مجموعة كبيرة منهم. ومن هذه المخاطر والصعوبات: خطر التّعرض للجوع والعطش جراء نفاد الزاد والماء، وخطر التيه في الصّحراء والغابات، بسبب السّلوك في غير المسلك الصّحيح، وخطر التّعرض للنهب والسّرقة على يد قطاع الطرق، واللّصوص، والصّعاليك، وخطر الأوبئة الطبيعية، وغيرها، الأمر الذي لفت انتباه الشّعراء إلى مناطق العبور، التي منها عبروا، قاصدين بيت الله الحرام، سواء في رحلتهم البرية، أو البحرية، أو الجوية، وإن كان من المنطق أن تحظى مناطق العبور في الرحلتين: البرية والبحرية، باهتمام الشّعراء، أكثر من الرّحلة الجوية، نظرًا لطبيعتهما الأرضية التحتية. وعلى سبيل المثال، يقول الشّاعر السنغالي محمد الهادي توري، محدّدًا مناطق عبوره خلال رحلة العمر البحرية: {الكامل}

يَـــا قَاصِـــدَ الْحَرَمَـــيْنِ بُـــشْرَاكَ اصْرُحَـــا فيمَـــا نَوَيْـــتَ، وَبِالْمَنَاسِـــكِ أَخْلَصَـــا
فَارْكَـــبْ سَـــنَايَا، فَهُـــوَ فُلْـــكٌ مَاخِـــرٌ يَطْـــوِي الْمَسَـــافَةَ لِلْحِجَـــازِ مُبَلْهِصَـــا
فَمُحَـــرِّكَاهُ يُسَـــاعِدَانِ وَزَيْتُـــهُ الْـــ ـــــمَا زَوَتْ يَنْعِـــشُ بِالْقُـــوَى مُتَأَبَّصَـــا
سِرْ مِـــنْ "دَكَارِ" بِـــهِ إِلَى "مَرْسِـــيلِيَا" وَامْـــرُرْ بِـــ ـــــ «بَـــيْرُوتِ» وَكُـــنْ مُتَابِصَا
وَبِـــ ـــــ "بُـــورْ سَـــعِيدِ" وَالْمَدَائِـــنِ وَالْقُرَى وَبِـــ ـــــ «مِصْرَ» مُـــرَّ إِلَى الْمَدِينَـــةِ وَاهْبِصَا[٨]

فكاتب هذا النّص الشّعري المائل إلى النّظمية، حدّد راحلته الحجية، وهي الفلك الماخر على حدّ تعبيره، ثمّ سرد لنا مناطق عبوره من مسقط رأسه إلى ملقى تسياره، فالانطلاق كان من مدينة دكار عاصمة السّنغال، مرورًا بفرنسا، ومدينة مرسيليا تحديدًا، منعرجًا بعاصمة لبنان بيروت، ومدينة «بور سعيد» بجمهورية مصر، انتهاء بالمدينة المنوّرة، على أنّ الشّاعر أشار إلى مدن وقرى أخرى من دون تعيين اسمها، لكونها غير مهمة في هذه الرّحلة، أو لكونها محطة وقوف واستراحة فقط، فواضح من خريطة مناطق عبور الشّاعر، أنّ رحلته كانت رحلة عالمية، تقع مناطق عبورها في القارات الثّلاث: القارة الإفريقية، والقارة الأوروبية، وقارة آسيا، وذلك أضفى صبغة سياحية على هذه الرّحلة الحجية، حين مكّنته من زيارة مناطق مختلفة في القارات الثّلاث. أمّا مناطق عبور الرّاحلة الجوية وهي الطّائرة، فتتمثل في محطات الاستراحة، فلم يحفل الشّعراء بذكرها، ربما لاختلافها من شركة طيران لأخرى، أو لقلة مناطق العبور في الرّحلة الجوية، لأجل ذلك لم يسجله الشّعراء في قصائدهم، كما سجّلوا مناطق عبور الرّحلة البحرية، بيد أنّ الشّاعر الشيخ أحمد امْبكْ، حدّد مناطق عبوره في رحلته الحجية الجوية، وذلك في المقدمة النّثرية لقصيدة رحلة الحج بقوله: «قد سافرنا من دكار، ليلة الأحد الرّابع والعشرين من ذي القعدة في طيّارة، بعد انتصاف اللّيل بنصف ساعة، وبتنا في الهواء إلى بعيد طلوع الشّمس، فنزلنا بكَازَ بَلَانَكَا، ومكثنا فيها ساعة من النّهار، ثم ارتقت الطّيارة في السّاعة الثامنة نحو باريس... فغادرنا باريس بعيد المغرب نحو روما، أي إيطاليا، وأتيناها في الساعة الواحدة من اللّيل ... ومضينا حتى نزلنا بالقاهرة صباحا ... ومنها رحنا عشية السبت إلى جدّة ... وأدلجنا من جدّة إلى مكّة».[٩]

٢- وصف راحلة رحلة العمر الحجية

عرف الحاج الإفريقي عبر التّاريخ ثلاث وسائل نقل وراحلة إلى البلد الحرام، لقضاء فريضة الحج، في رحلة شاقة محفوفة بالصعاب والمخوفات، حتى وصفت بـــ«رحلة العمر»، وهذه الوسائل هي: الرّاحلة التّقليدية، الرّاحلة البحرية، الرّاحلة الجوّية.

- **الراحلة التّقليدية:** هي الدّواب، كالجمال، والخيول، والحمير، والمشي بالأقدام، وأوّل راحلة عرفها الإنسان الإفريقي، هي المزاوجة بين المطايا والأقدام، في رحلة شاقة وصعبة، هلك عبرها خلق كثير، وانتهى المطاف

بكثير منهم، إلى القطن والسكن في بلدان أخرى أجنبية في مناطق العبور، كرهًا وقهرًا. وقد استخدم هذه الرّاحلة كلّ الملوك الذين حجوا في المماليك الإسلامية الإفريقية، ولكن مع التّطوّر والاختراعات العلمية، عزف عنها الحجاج الأفارقة، إلى رواحل أكثر استراحة وأريحية، من فلك وسفن، وطائرة، ويؤكد ابن خلدون استخدام هذه المطية على يد الحجيج الإفريقي بقوله: «وإنما يحملون على الوصائف والرجال في أوطانهم فقط، وأمّا السّفر البعيد كالحج فعلى المطايا».[١٠] ويؤيد ذلك ابن الوردي في قصة الحاج منسا موسى مع السّلطان المصري، قال: «وَلما خرج من عِنْد السُّلْطَان قدم لَهُ حصانا أَشهب، وخلع عَلَيْهِ خلعة سنية، وهيأ لَهُ السُّلْطَان من الهجن والآلات لِلْحَجِّ أَشْيَاء كَثِيرَة».[١١] فكون الحصان من هدايا السّلطان لكنكو موسى، دليل على استخدامه له في رحلته الحجية. ويقول الآخر عن الأفارقة: إنّهم كانوا «يحجون بيت الله الحرام، رغم تكاليفها الباهظة، وبعد المسافة، وكانوا يحجون راجلين قبل قدوم الطّائرات، ووسائل النّقل الحديثة».[١٢]

وتجدر الإشارة إلى أنّ الحج عبر هذه الرّاحلة، كان يتخلله ركوب راحلة بحرية عند عبور المحيط الهادي، الذي يفصل بين القارة الإفريقية وقارة آسيا، وكانوا كثيرًا ما يعبرونه بالأراضي المصرية على حدّ هذه الرّواية التّاريخية عن حوادث سنة: ٨٦٣هـ «وفيه سار أحد ملوك التكرور، الذين كانوا قد قدموا برسم الحجّ إلى جهة الطور، ليركب إلى الحجّ في البحر، فمات بالطور ودفن بجامعه، وكان من أهل الصلاح والدين والخير، كثير العبادة وتلاوة القرآن، وله فضل وبرّ».[١٣] وقد غابت هذه الرّاحلة التّقليدية عن وصف الشّاعر الإفريقي، ومعالجته في مدوّنته الشّعرية، غيابًا قد يفسّر بتفسيرات كثيرة، منها احتمال سقوط وصفها من هذه المدوّنة وضياعها، ضمن ما ضاع وسقط من التّراث الإفريقي الثري، على أصعدة مختلفة، ومنها احتمالية عدم لفت هذه الرّاحلة أنظار الشّاعر الإفريقي لتقليديتها، وكونها جزءًا من الحياة اليومية لهم؛ يعيشون معها، ويربونها في المدن والبيوت؛ إذ كثيرًا ما تلفت الأنظار الأشياء الجديدة الغريبة غير المألوفة.

- **الرّاحلة البحرية:** خلال أواخر القرن الثّامن عشر، وفواتح القرن التّاسع عشر، عرف الحاج الإفريقي وسائل تنقل أخرى إلى بيت الله الحرام، متمثلًا في بواخر الملاحة، والفلك الكبيرة، والسفن التّجارية، ممّا أدى إحداث تغيير جذري في مناطق العبور، ومواضع الحلّ والتّرحال، بخط سفري مختلف عن الطرق المسلوكة مع الرّاحلة التّقليدية وعليها.

وقد حضر وصف هذه الرّاحلة البحرية حضورًا قوّيًّا ومتميزًا، حين استوقفت انتباه الشّعراء، ولفتت أنظارهم لغرابتها عليهم، ولا مألوفيتها لديهم؛ فسرعان ما تناولوها بالوصف وصفًا دقيقًا، في بنيتها التّكوينية والتّركيبية، وفي حركتها المائية العجيبة عليهم ولديهم، كقول الشّاعر الشّيخ محمد جولد:

تَكْـــرِي عَدُولِيَّـــةً تَزْهَـــى بِقَائِدِهَـــا ... إِذَا اعْتَلَاهَـــا وَقَاسَـــا رَأْسَـــهَا وَانْعَـــبَرَا
تَرْمِـــي إِلَى خَلْفِهَـــا مَوْجًـــا فَيَـــا عَجَبًـــا ... أَيَسْـــتَوِي الْغُمْـــرُ بِالنِّحْرِيـــرِ مُؤْتَـــزِرَا
تَطْفُـــو عَـــلَى قُلَـــلِ الْأَمْـــوَاجِ آوِنَـــةً ... وَنَـــارَةً تَصْفُـــو وَتَعْتَـــلِي الْعَكَـــرَ
تَرْمِـــي إِلَى الْمَـــاءِ أَمْرَاسًـــا وَسِلْسِـــلَةً ... تَرْمِـــي الْبُخَـــارَ وَتَرْمِـــي فَوْقَهَـــا شَرَرَا
بِشَـــاطِئِ النِّيـــلِ مَرْسَـــاهَا وَمَسْرَحُهَـــا ... لِمِـــصْرَ، مَـــسْرَى سُرَاهَـــا مَعْشَرًا شَـــهْرَا
تَجْـــرِي بِحَلْـــكَاءَ فِي مُحَوْلَـــكٍ لِجَـــبٍ ... لِمِـــصْرَ، مَـــسْرَى سُرَاهَـــا مَعْشَرًا شَـــهْرَا
بِتِلْـــكَ نَعْـــبُرُ إِنْ لَيْـــلُ ادْلَهَـــمَّ بِنَـــا ... حَتَّـــى اسْـــتَحَارَتْ عَـــلَى تَيَّـــارِهِ اخْتَصَرَا
تَلْقَـــى الْقَرَارِيـــرُ مَـــا تَلْقَـــى بِجُؤْجُؤِهَـــا ... كَأَنَّنِـــي بِهِـــمِ الْغَوْغَـــاءُ مُنْتَـــشِرَا
مِـــنْ بَـــيْنِ مُحْتَسَـــبٍ بِاللَّـــهِ مُحْتَشَـــمٍ ... تَـــرَى الرِّفَـــاقَ عَـــلَى آثَارِهَـــا زُمَـــرَا
فَصَمَّمُـــوا نَحْـــوَ بَيْتِ اللَّـــهِ فِي حُلَـــلِ الْـــ ... ـــــإِحْرَامِ، كُلٌّ بِمَـــا قَدْ سَـــاءَ مُنْكَـــسِرَا[١٤]

- **الرّاحلة الجوية:** إنّ آخر راحلة حجية للإنسان الإفريقي هي الطّائرة، التي حازت الرواحل الأخرى المذكورة، وفرضت نفسها لراحلة وحيدة وفريدة، لسهولة استخدامها وأمنها، وقلّة خسائرها التي تعدّ بالأصابع على مستوى القارة، على أنّ هذه الرّاحلة شكّلت نقطة خلاف ونقاش كبير بين العلماء الأفارقة، في بداية ظهورها كراحلة، حول جواز استخدامها من عدمه في رحلة الحج، لما يترتب على ذلك من ضروريات، كالبطاقة الوطنية، وجواز السّفر، التي تحتوي على الصّورة الشّخصية والشّمسية، التي كانت موضع خلاف كبير بين علماء القارة، وكذلك حكم الصّلاة في متن الطائرة بالجو والفضاء، وكيفية تحديد القبلة، إلى حدّ أنّ منهم من امتنع عن الحج، بدعوى أنّه لا يعبد الله -تعالى- بعصيانه، وقد سجل الشّاعر الإفريقي هذا الاختلاف الدّيني الفقهي في تضاعيف شعره.

وأوضح صورة لهذا الخلاف المسجل في مدونة الشّعر الإفريقي، هو ذلك النّقاش الذي احتدم بين علماء الطوارق في المسألة، عندما صاغ واحد منهم قصيدة، وطرح فيها هذا السّؤال الفقهي، طالبًا جوابه من علماء المنطقة عمومًا، وبالأخص السّوقيون، على حدّ قول الباحث محمد أغ محمد: «أصبحت مسألة الحج على الطّائرة مناسبة فقهية وأدبية معًا، حين وجّه الشّيخ الكبير الكنتي سيدي محمد سؤالًا بهذا الخصوص، في قصيدة إلى «كَلْ اسُّوكْ»، حشر في القصيدة كل الجوانب النّظرية التي تجعل جواز الحج على الطّائرة مشكلًا فقهيًّا حقيقيًّا، وجمع سائر أسئلته، فحلت القصيدة المسائل ساحة الأسوكيين، فتقبلوها بقبول حسن، وتنافس كبارهم في الإجابة عنها شعرًا، وعندما جاءته القصائد الطّوال، اختار منها سبعًا، اتخذت في المنطقة لقب «النّيرات السّبع».[١٥] في مناورة فنية، ومساجلة شعرية طريفة وظريفة، وقد بلغ عدد قصائدها ٢٢ قصيدة، في أكثر من ١٨٠٠ بيت، لأربعة عشر شاعرًا،[١٦] فذهب أغلب المستهدفين بالجواب إلى استخدام هذه

الرّحلة شرعًا ودينيًّا، كالشّيخ عبد القادر بن متال، الذي أفتى بأنّه لا يرى ضررًا في الحج بالطّائرة، وأنّه بنفسه قام بهذه التّجربة، فلم يفته أدنى صلاة، من مسقط رأسه إلى آخر المطاف بالجدّة، وأنّها نعمة من نعم الله تعالى، كالبحري الذي يعني به الباخرة والسّفينة، وذلك بقوله: {البسيط}

هَـــذَا؛ وَلَـــمْ نَـــرَ فِي الطَّيَّـــارِ مِـــنْ ضَرَرٍ ... مُثَبِّـــطٍ لِامْـــرِئٍ فِي الْحَـــجِّ مُرْتَغِـــبِ
وَلَـــمْ تَفُتْنَـــا صَـــلَاةٌ مُنْـــذُ طَـــارَ بِنَـــا ... هُنَـــا إِلَى «جِـــدَّ»، فَاعْـــزَمْ يَـــا أَخِـــي وَثِبِ
إِنَّ الَّـــذِي سَـــخَّرَ الْبَحْـــرِيَّ فِي لُجَـــجٍ ... هُـــوَ الَّـــذِي سَـــخَّرَ الْجَـــوِيَّ فِي السُّـــحُبِ
فَارْكَبْـــهُ بِاسْـــمِ الَّـــذِي فِي الْجَوِّ سَـــخَّرَهُ ... تَحْصُـــلْ بِلَا تَعَـــبٍ فِيـــهِ عَلَى الرَّغَـــبِ[١٧]

وينسج الشّيخ الشّاعر العلامة الخضر حمادو في بيت قصيد شعره في حكم الحج بالمخترعات الحديثة، بالتّساوي بينها في الحكم العام الذي هو الجواز: {البسيط}

فَالْفُلْـــكُ وَالْمُوبِـــلَاتُ وَالْخُطُـــوطُ لَـــدَى ... ظَـــنِّ السَّـــلَامَةِ كَالْأَقْـــدَامِ وَالنُّجُـــبِ[١٨]

ربما كانت هذه الرحلة الحجية الجوية في بدايات الرّحلات الجوية إلى الحج، والدليل على ذلك كثرة مناطق العبور فيها، كثرة توازي مناطق العبور المذكورة في بعض الرّحلات البحرية، ويبدو أنّ شاعرنا تعب في هذه الرّحلات جراء الجولان في منطقة جغرافية، تتقاسمها القارات الثّلاثة: من دكار، ثمّ باريس، ثم روما، ثمّ القاهرة، ثمّ جدة، ثم مكّة المكرّمة، وهي رحلة توازن بعض الرحلات البحرية في كثرة مناطق العبور، والجولان بين القارات الثّلاث، في رحلة حجية أشبه ما تكون برحلة سياحية اكتشافية للعالم.

٣- وصف الرّاحلة الجويّة في الشّعر العربي الإفريقي

لقد ألفتت هذه الآلة التكنولوجية الحديثة أنظار الشّعراء الحجاج، وجذبت انتباههم في اصطدامهم الأوّل بها، خلال رحلة العمر الحجية، وهذه اللفتة، وهذا الانتباه، راجع إلى طبيعة صنعة هذه الآلة، وقدرتها العجيبة في خرق الآفاق بسرعة غريبة لا مثيل لها، وإلى ما أحدثته هذه الرّاحلة من نقلة نوعية في رحلة الحج، من حيث مدتها وكيفيتها، فجعلت رحلته رحلة يوم وليلة، في أريحية واضحة، ورفاهية لا مسبوقة فيها، كل هذا وذاك، جعل الشّعراء الحجاج، يهتمون بها اهتمامًا خاصًّا؛ فيرصدون مواصفاتها الشّكلية والبنيوية، ويجسدون حركتها الجوية الفضائية، كقول الشّاعر الشّيخ الخضر حمادو السوقي في وصف الطّائرة: {البسيط}

مَـــا تَنْقِمُـــونَ مِـــنَ الطَّيَّـــارِ إِنَّ لَـــهُ ... عِنْـــدِي مَحَاسِـــنَ تَرْبُـــو عَنْ حَـــصَى الْكُثُبِ
ظِـــلٌّ ظَلِيـــلُ كَـــرَاسٍ صُفِّفَـــتْ دَعَـــةً ... نَـــوْمٌ عَـــلَى لَـــذَّةٍ فِي مَضْجَـــعٍ رَحِـــبِ
وَاهًـــا لَـــهُ سَـــمَكًا يَعْلُـــو بِأَجْنِحَـــةٍ ... فَـــوْقَ السَّـــحَائِبِ أَوْ طَـــيْرًا بِـــلَا زَغَـــبِ
سَـــبَرْتُهَا فَـــإِذَا صُنْـــعٌ قَـــدَ اتْقَنَـــهُ ... ذُو فِطْنَـــةٍ حَـــاذِقٍ مِمَّـــا سِـــوَى الْقُـــرَبِ
شَـــدَّ الْمَسَـــامِرَ سَـــدَّدَ الْمَنَافِـــذَ عَـــنْ ... تَدْقِيـــقِ فِكْـــرٍ فَلَـــمْ يَفْتَـــحْ سِـــوَى ثُقَبِ
كَأَنَّ أَلْوَاحَـــهُ مِـــنْ شَـــدِّ مَـــا الْتَأَمَـــتْ ... لَـــوْحٌ وَتَحْسِـــبُهَا شُـــقَّتْ مِـــنَ الْهَضُـــبِ
مَـــا ثَـــمَّ مِـــنْ وَصْمَـــةٍ إِلَّا ارْتِجَاجَتُهَـــا ... عِنْـــدَ الْهُبُـــوطِ وَإِلَّا ضَجَّـــةُ اللَّهَـــبِ
هَـــذِي تَصُـــمُّ، وَهَـــذِهِ تَغُـــمُّ وَمَـــا ... ضَرَّتْ بِـــشَيْءٍ، وَإِنْ أَفْضَـــتْ إِلَى رَغَـــبِ
وَلَا أَعُـــدُّ عَلَيْهَـــا ذَنْـــبَ مُرْتَعِـــدٍ ... بِالْخَـــوْفِ أَوْ قَلَـــقٍ بِالْمَيْـــدِ مُضْطَـــرِبِ[١٩]

لقد استوقف الشّاعر السوكي في هذه الأبيات، الشّكل الخارجي لهذه الآلة التكنولوجية الحديثة، فراح يرصد محاسنه الخارجية التي حسب رأيه، أكثر من عدد الحصى تعدادًا، الأمر الذي جعل شاعرنا في حيرة في اختيار مشبه به مناسب، فشبّهها في أول الوهلة بالرّاس الذي صفف من أجل الدّعة، ثمّ شبّهها مرة أخرى بسمكة تطير فوق السّحاب بالأجنحة، ولم يكتف الشّاعر بالنّظر إلى هذه الرّاحلة العجيبة من كثب، بل اقترب منها، ولمسها بيده لسبر غورها، ومعرفة موادها الأوّلية، ونوع الحديد المركب منه، فوجدها صنعًا متقنًا من صانع فطن ذكي ماهر، بمسامير مشدّدة، ونوافذ مسدّدة، عن فكر دقيق، فلم يفتح له سوى ثقب صغير للاستنشاق، بألواح ملتحمة، كأنّها أحجار مشتقة بانتظام، في صناعة متقنة خالية من العيوب، سوى الارتجاج عند الصّعود والهبوط، الذي يجعل ركابها في حالة القلق والاضطراب والفزع، صعودًا وهبوطًا، ولو خلت من ذلك الارتجاج، لكانت صنعة كاملة خالية من جميع العيوب.

ويقول الشّاعر السوقي إغلس اليماني في وصف الطائرة: {الطويل}

طَوَيْنَـــا جَبَابِـــيرِ الْهَـــوَا طَـــرْفَ طَـــارِفٍ ... طَـــوَى جَامِـــعٍ بَـــيْنَ التَّلِيـــدِ وَطَـــارِفِ
طَغَيْنَـــا عَـــلَى طَاغِيـــهِ حَتَّـــى كَأَنَّنَـــا ... إِلَى الْمَـــلَإِ الْأَعْـــلَى لِـــدَرْكِ الْمَعَـــارِفِ
عَـــلَى جَهْـــوَرِيٍّ مِـــنْ حَدِيـــدٍ مُحَـــرَّكٍ ... بِأَرْبَعَـــةٍ مُكْهَرْبَـــاتِ الْمَطَـــارِفِ
فَعَمَّـــا قَلِيـــلٍ نَمْتَطِـــي كَاهِـــلَ الْمُنَـــى ... فَنَـــصْرِفَ فِيـــهِ مَـــا نَشَـــا جِدَّ صَـــارِفِ
يَشُـــقُّ الْعَنَـــانَ جَامِحًـــا بِعِنَانِـــهِ ... مُصِيخًـــا لِـــوَاشٍ لِلْإِذَاعَـــةِ عَـــارِفِ
إِذَا حَثْحَثَـــتْ خِلْـــتَ الْهَزِيـــرَ أَزَازِمًـــا ... فَيَشْـــكُو النَّوَى التَّطْفِيـــفُ مِنْ غَـــيْرِ قَارِفِ
فَكَـــمْ فَدْفَـــدٍ جُزْنَـــا وَكَـــمْ مِـــنْ مَهَامِهٍ ... بِـــدُونِ عَنَـــا بَـــلْ فِي الْهَنَـــا وَالْمَتَـــارِفِ
كَأَنَّ مَنَاكِـــبَ الْمِهَـــادِ بِأَسْرِهَـــا ... عَـــلَى قَدْرِهَـــا الْمَرْمُـــوزِ وَسْـــطَ الْجَغَارِفِ
نَتَائِـــجُ أَفْـــكَارٍ أَثَـــرْنَ بَدَائِعًـــا ... مِنَ الْكَوْنِ لَـــمْ يَظْفَـــرْ بِهَا فِكْرُ عَـــارِفِ[٢٠]

لقد استوقف شاعرنا في هذا النّص الشّعري، تلك القدرة العجائبية للطائرة في خرق الآفاق، حين تطوي جبابير الهواء والرّيح في سرعة طرفة عين، في تماد في الارتقاء والارتفاع، حتى يظن ركّابها بأنّهم ذاهبون إلى الملأ الأعلى لدرك المعارف، فتشق العنان جامحًا عنانه في صيحة كبيرة على الواشي، في حثحثة تخال فيها الهزير أرازما، فكم من فدفد جازته بالرّكاب، وكم من مهامه وصحار قطعته بهم بدون تعب ولا عناء، بل في الهناء والترف، وهي في صنعة بديعة، مركبة من حديد محركٍ بأربعة مكهربات في الأطراف، وهي تعدّ من أرقى ما توصل إليه التّفكير البشري.

ويقول الشّاعر السّنغالي الشّيخ أحمد امْبَكْ في وصف الرّاحلة الجوية «الطّائرة» قائلًا: {الكامل}

طِـــيرِي وَزُفِّي فِي الْهَـــوَاءِ زَفِيفَـــا ... بِسَـــلَامَةٍ مِمَّـــنْ يَـــدُومُ لَطِيفَـــا
وَانْجِـــي نَجَـــاءَ جِهَامَـــةٍ خَفَـــتْ بِهَـــا ... قَوْمَـــاءَ تَعْتَسِـــفُ الْعَـــرَا فَالرِّيفَـــا
عَجَبِـــي تَضَاعَـــفَ مِـــنْ سُرَى طَيَّـــارَةٍ ... تَـــبْرِي السَّـــوَافِي إِذْ تَطَـــارَ وَزِيفَـــا
وَيَطِيرُهَـــا ضَرْبَ خَبِـــيرٍ بِالْهَـــوَا ... يَـــدْرِي الْمَقَاصِـــدَ لَا يَـــؤُمُّ مَخُوفَـــا
مِثْـــلُ الْقَطَـــا فِي الْاهْتِـــدَاءِ وَلُبُّـــهُ ... فِيـــهِ الْقِيَافَـــةُ لَا يَـــزِنُ سَـــخِيفَا
مَـــا إِنْ يَضِـــلَّ سَـــبِيلُهُ فِي نَفْنَـــقٍ ... هَاجَـــتْ بِـــهِ هَـــوْجَ تَهَـــدٍّ سُـــقُوفَا
وَيَقُـــولُ مَـــنْ مِثْـــلِي وَمَـــنْ كَمُسَـــامِرِي ... إِذَا بَـــاتَ لِي سِـــبْطُ الْخَدِيـــمِ رَدِيفَـــا
يَمْـــضِي إِلَى ذَاتِ السُّـــتُورِ يَحُجُّهَـــا ... وَيَـــزُورُ سَـــادَاتِ الْأَنِيـــمِ لَفِيفَـــا[٢١]

استوقف شاعرنا في هذه الأبيات الحركة الجوية لهذه الراحلة الجوية، فنفخ الرّوح في الطّائرة من باب التّجسيد والتشخيص، ليتسنى له مخاطبتها، آمرًا إيّاها «طِيرِي وَزُفِّي فِي الْهَوَاءِ زَفِيفَا»، ثمّ يأمره أن ينجو نجاء الجهامة التي تعتسف العراء والرّياف، ثمّ شبّهها تارة بطير القطا في الاهتداء إلى المسالك، مشبّها راجعا اهتداءها في الصّحاري والفيافي بالقيافة، ولعلّ الغرض من هذا الوصف التّفصيلي في الخطاب الشّعري الحجي للطائرة، وغيرها من الرواحل الحجية، هو تشويق جميع المسلمين على الخوض في هذه التّجربة العمرية الفريدة، إذ إن «هذه التفاصيل، من أكبر المتع التي لا يمل الإنسان من استدعائها مرّة بعد مرّة، حتى يستعيد اللّحظة الحجية ذاتها، ومع ذلك، فإنّنا نعتقد أنّها شكّلت إستراتيجية واعية، لتشويق من لم يقوموا بعد بهذه التّجربة، وحفزهم على المغامرة، في سبيل تحقيق حلم الحج الذي يراود كلّ مسلم».[٢٢]

المحور الثّاني - الحجيّات الشّعرية والتّصوير الرّوحي للمشهد الحجيّ في الشّعر العربي الإفريقي

من جوانب حضور الحج في مدونة الشّعر العربي الإفريقي، تصوير الشّعراء الحجاج وغير الحجاج، المشهد الحجي تصويرًا فنيًّا، في عاطفة جياشة، وتجربة شعرية صادقة، وروح ديني عال، وتصوير المشهد الحجي: هو وقوف الخطاب الشّعري وقفة وصفية مع مناسك الحج ومشاهده، ابتداء بالإحرام، والطّوافات المختلفة، إلى آخر نسك يؤديه الحاج، على حدّ قوله: «تبرز الرّحلة الحجية عظم الهدف الذي يستحق تكبد مشاق الرّحلة، متوقفة عند مشهد الحج، بتفصيل لافت فيما يخص المناسك، بدءًا بالإحرام: طبيعة، وميقاتًا، وأفعالًا، وأقوالًا ــ مرورًا بمراسيم الطّواف، والسّعي في القدوم، ومراسيم التّروية، والوقوف بعرفة، والنّفرة إلى المزدلفة، وأيام منى، وانتهاء بطواف الوداع، ونجد التّفاصيل ذاتها في المزارات، وخاصة بالمدينة المنوّرة».[٢٣] وقد اصطلح على هذه الظاهرة الشّعرية، الباحثة فاطمة عبدالوهاب بـــ»الحجيات الشّعرية»، معرّفة إيّاها بأنّها: هي القصائد الشّعرية، التي راوح أصحابها وشعراؤها بين مجرد التّعبير عن توقهم وشوقهم إلى الأماكن المقدّسة، والمشاعر الحجية، وتصوير المشهد الحجي.[٢٤] في معالجة فنية طريفة، تثير العواطف والشعور نحو هذه المشاعر الحجية، وترغب فيها النّفوس.

وقد شارك الشّعراء الحجاج وغير الحجاج في تصوير هذه المشاهد، والتّعبير عن هذه المشاعر، فالأول اعتمادًا على تجربتهم الذّاتية بحضور هذه المشاهد، وأداء هذه المناسك، بينما الطّائفة الثّانية اعتمدوا على خيالهم الشّعري، وضربوا على وتر أمنيتهم الدّائمة، ورغبتهم العالية في أداء مناسك الحج، معضدًا ذلك بالنّصوص الدّينية الحاثة على الأداء، والأخرى التي تصوّر هذه المشاهد تصويرًا بديعًا، كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرامِ وَاذْكُرُوهُ كَما هَداكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (١٩٨) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٩) فَإِذا قَضَيْتُمْ مَناسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آباءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا وَما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنا عَذابَ النَّارِ (٢٠١) أُولئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسابِ (٢٠٢) وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُوداتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾، «سورة البقرة، الآية: ١٩٨ ٢٠٢».

فمثل هذه النّصوص الدّينية المصوّرة لمناسك الحج ومشاهده، قد ألهم الشعراء الذين لم يشهدوا هذه المشاهد، وقوت شعورهم وإحساسهم الروحي تجاهها، وارتقت بتصوّراتهم وتخيلاتهم عنها، فساعدهم على تصويرها تصويرًا فنيًّا، إلى حدّ لا تكاد تميز بين معالجتهم الفنية ومعالجة الشعراء الذين شهدوها

وحضروها، ومثاله الشيخ الشّاعر عمر بن الزبير، الذي لم تواته القدرة والاستطاعة لقضاء الحج، ففجر شعوره الروحي تجاه المشاهد الحجية ومناسكها، فأنشأ قصيدة ارتجالية، وهو يستودع وفدًا من الحجاج، متحسرًا على قلة ذات يده، مصورًا مشاهد الحج في عاطفة جياشة، وشعور عال، بقوله: {البسيط}

مَـــا بَـــالُ عَيْنَيَّ طُـــولَ اللَّيْـــلِ قَدْ سَـــهَرَا ... فَوَجْنَتَـــايَ بِدَمْـــعٍ مِنْهُمَـــا غَـــزَرَا
إِنْ سَـــالَتَا فَلِسَـــانُ الْحَـــالِ قَائِلَـــةٌ: ... مَـــاذَا السُّـــكُونُ، وُفُـــودُ الْحَجِّ قَدْ سَـــفَرَا
لَـــوْلَا قُصُـــورِي، وَلَـــوْلَا قِـــلُّ ذَاتِ يَـــدِي ... سَـــايَرْتُ مَـــنْ قَصَـــدَ الْحَرَمَـــيْنِ وَاقِصَرَا!
حَتَّـــى إِذَا حَـــرَمَ الْمَكِـــيَّ قَـــدْ حَـــضَرُوا ... رَأَوْا بِمَـــا لَـــمْ تَـــرَ الْعَيْنَـــانِ قَـــدْ تَـــتَرَا
حَيْـــثُ الْمَحَاسِـــنُ وَالْآيَـــاتُ ظَاهِـــرَةٌ ... حَيْـــثُ الْعَجَائِـــبُ تَلْهَـــى كُلَّ مَـــنْ نَظَـــرَا
حَيْـــثُ الْمَـــكَارِمُ حَيْـــثُ الْمَجْـــدُ سَـــامِيَةٌ ... حَيْـــثُ الْعُـــلَا وَالْبَهَـــا لِلْبَيْـــتِ قَـــدْ نَظَرَا
مَحَـــلُّ مَوْلِـــدُ خَـــيْرِ الْخَلْـــقِ مَبْعَثُـــهُ ... أَسْرَاءُهُ فَالنَّجَـــاةُ، الْأَمْـــنُ مَـــا انْفَـــتَرَا
مَحَـــلُّ أَحْـــرَامِ لِلحَـــجِّ الْمُحَتَّـــمِ مِـــنْ ... مِيقَاتِـــهِ، وَطَـــوَافُ الْفَـــرْضِ قَـــدْ حَضَرَا
مَحَلُّ سَـــعْيٍ، وُقُـــوفٍ، وَالْإِفَاضَـــةِ فِي الْـــ ... ـــــمَذْكُورِ إِنْ كَانَ حَـــجٌّ لَيْـــسَ يَنْجَـــبِرَا
مَحَـــلُّ مُزْدَلِـــفٍ وَمَشْـــعَرٍ وَمِنًـــى ... جَمْـــعٌ وَرَمْـــيُ مَبِيـــتِ خَيْـــفٍ قَدْ شُـــهِرَا
كَـــذَا الْحَطِيـــمُ وَزَمْـــزَمٌ وَالْمَقَـــامُ طَـــوَا ... فَ قَـــادِمٍ وَوَدَاعٍ سُـــنَّةٌ جُـــبِرَا[٢٥]

فشاعرنا خلال هذه الأبيات الشّعرية، يعبّر عن عاطفة صادقة، وحنين راسخ، وشوق عال إلى الرّحلة الحجية، الحال الذي أضحاه ساهرًا بعيون دامعة، وما يبكيه سوى تخلفه عن الرّكبان الحجاج، في حسرة تامة، وحزن كبير على ذلك، إلى أن يتّهم نفسه ويلومها على قصور اليد، والعجز والفقر، على حدّ قوله في بيان مناسبة هذا النّص: «كان قد ودّع يومًا وفود الحجاج، وهم يقصدون بيت الله الحرام، وتأثر بالموقف، وبكى داخليًّا، ولم يستطع كبح جماح ما يعتمل في نفسه من وجد وجوى، حيث لم تسمح له ذات اليد بالسّفر إلى مكة»،[٢٦] ثمّ يتخيّل شاعرنا وصول الحجاج إلى البيت الحرام، ذي المحاسن الكثيرة، والآيات الظاهرة، والعجائب البادية؛ حيث المجد والعلا والبهاء، ثمّ يصوّر لنا الشّاعر مشاهد الحج ومناسكه تصويرًا بديعًا، بسرد قائمة طويلة لمناسكه التي منها: طَوَافُ الْفَرْضِ، وسَعْيٍ، ووُقُوفٍ، وَالْإِفَاضَةِ، ومُزْدَلِفٍ، وَمِنًى، وَرَمْيٍ، ومَبِيتٍ، والْحَطِيم، وَزَمْزَم، وَالْمَقَامُ، والشّاعر يذكر هذه المشاعر، ويسرد هذه المناسك، تعبيرًا عن شدة الشوق والحنين إليها.

ويقول شاعر آخر على المنوال نفسه تحت عنوان «الشّوقان»: {الكامل}

شَـــوْقٌ إِلَى حَيْـــثُ الرَّكَائِـــبُ تَنْتَهِـــي ... لِلْأَجْـــرِ، أَضْيَـــافٌ عَـــلَى الرَّحْمَـــانِ
حَيْـــثُ التَّلَبِّـــي وَالطَّـــوَافُ وَزَمْـــزَمٌ ... وَالسَّـــعْيُ وَالتَّعْرِيـــفُ وَالْعَلَمَـــانِ
حَيْـــثُ الْجِمَـــارُ، وَحَيْـــثُ تَنْحَـــرُ دَاعِيًـــا ... حَيْـــثُ الْمَبِيـــتُ ثَـــلَاثٌ أَوْ يَوْمَـــانِ
حَيْـــثُ الْقُـــدُومُ، وَالْمَقَـــامُ، وَالْإِفَـــا ... ضَـــةُ، وَالْـــوَدَاعُ، وَحَيْـــثُ كُلُّ أَمَـــانِ
حَيْـــثُ الْحَطِيـــمُ وَحَيْـــثُ بَيْتُ اللَّـــهِ حَيْـــ ... ـــــثُ الْحَجَرُ، حَيْـــثُ الْفَوْزُ بِالْغُفْـــرَانِ[٢٧]

يعبّر شاعرنا في هذا المقطع عن شوقه الكبير إلى البيت الحرام، الذي كنّى عنه بـــ»حَيْثُ الرَّكَائِبُ تَنْتَهِي لِلْأَجْرِ»، بصفتهم ضيوفًا للرّحمن، وتحكمت في هذا النّص كلمة «حَيْثُ» التي أصبحت كلمة محورية ونقطة بؤرة تنطلق منها الأبيات، وتتأسس عليها، وطبيعة هذه الكلمة ووظيفتها باعتبار أنها «اسم للمكان مبني على الضّم، وهو لازم الإضافة إلى الجملة بعده»،[٢٨] رشّحتها للعب هذا الدّور المحوري في هذا النّص الشّعري، مما جعلها تتكرّر حوالي إحدى عشرة مرة، قبل ذكر أغلب مشاعر الحج، من: البيت الحرام نفسه، وطواف القدوم، والحطيم، والحجر، والجمار، والمبيت، والنّحر، ونحوها، في تعبير عميق عن شوق دفين إليها، بعاطفة جياشة وشعور عميق ودفين.

وكثيرًا ما كان الشعراء الذين لم يحجوا أكثر إحساسًا تجاه المشاهد، وأفيض عاطفة نحوها، ولعلهم أقدر على تصويرها تصويرًا فنيًّا، أكثر من الذين شاهدوها وحضروها، كالشّاعر السوكي المحمود يحيى، الذي صوّر لنا سياحًا روحيًّا قامت به روحه، في إسراء إلى مشاعر الحج، متقلبًا بين مكة والمدينة المنوّرة، فتارة بالقبة الخضراء، ومرة بغار حراء، وطورًا بأحد، وآنًا بالمسعى، وأحيانًا في زي معتكف، ومرتعه روضة المصطفى عليه السّلام، ومسقاه ماء زمزم المقدس، فقال: {البسيط}

بَـــلْ حُـــبُّ مَكَّـــةَ أَضْنَانِـــي وَبِي شَـــغَفٌ ... إِلَى الْمَدِينَـــةِ مُمْتَـــدًّا إِلَى الْأَبَـــدِ
لِي بَـــيْنَ تَيْلِـــكَ قَلْـــبٌ ضَـــاعَ مُـــذْ حِجَجٍ ... وَمَـــا لِقَتْـــلَى الْهَـــوَى مِـــنْ طَالِـــبٍ الْقَوَدِ
يَـــأْوِي إِلَى الْقُبَّـــةِ الْخَـــضْرَاءِ آَونَـــةً ... إِمَّـــا بِغَـــارِ حِـــرَاءَ أَوْ لَـــدَى أُحُـــدِ
اَلْيَـــوْمَ تَلْقَـــاهُ فِي الْمَسْـــعَى وَتُدْرِكُـــهُ ... فِي زِيِّ مُعْتَكِـــفٍ بَـــيْنَ الْكَـــوَى بِغَـــدِ
فِي رَوْضَـــةٍ مِـــنْ جِنَـــانٍ ثُـــمَّ مَرْتَعُـــهُ ... وَمَـــاءُ زَمْـــزَمَ مَسْـــقَاهُ مَتَـــى يَـــرِدِ
يَطُـــوفُ بِالْحَجَـــرِ لَكِـــنْ فِي مَوَاجَهَـــةٍ ... حَتَّـــى كَأَنْ لَـــمْ يَغِبْ عَنْهَـــا وَلَـــمْ يَجِدِ[٢٩]

ومن روائع نماذج الحجيات الشّعرية في مدوّنة الشّعر العربي الإفريقي، قصيدة الشّاعر الشيخ عبدالقادر بن متال في تصوير مناسك الحج، التي يقول فيها: {الطّويل}

أُسَـــايِرُ مَـــنْ أَمَّ الْحِجَـــازَ عَـــلَى الْخَفَـــا ... مِـــرَارًا عَدِيـــدَاتٍ عَسَـــايَ أُجَاهِـــرُ
أُسَـــائِلُ مَـــنْ وَافَى وَوَفَّى، فَمَـــا أَنَـــا ... لِسَـــائِلِ مُقْلَتِـــي مَتَـــى سَـــالَ نَاهِـــرُ
فَثَـــمَّ مَنَاسِـــكُ الْخَلِيـــلِ مَقَامُـــهُ ... مَطَـــافٌ بِهَـــا طَافَـــتْ كِـــرَامٌ مَشَـــاهِرُ
وَمُلْتَـــزَمٌ مُسْتَمْسِـــكٌ حَجَـــرٌ لَـــهُ ... مَزَايَـــا، فَلَـــوْ قَبَّلْتُـــهُ مَـــا الْجَوَاهِـــرُ
وَعَـــيْنٌ تَفَجَّـــرَتْ بِرَكْـــضِ مُبَـــارَكٍ ... تَنَعَّـــمْ تَضَلَّـــعْ فِيـــهِ مَـــاءُكَ طَاهِـــرُ
مِنَـــاكَ مُنَـــاكَ مَوْقِـــفٌ مُتَعَـــارَفٌ ... وَمَرْمًـــى مَسَـــاعٍ لِلْفَـــلَاحِ مَظَاهِـــرُ
رُوَيْـــدَكَ إِمَّـــا سُـــقْتَ هَدْيًـــا مُقَلَّـــدًا ... فَـــكُلُّ فِجَـــاجٍ أُمُّ رَحْـــمٍ وَنَاجِـــرُ
هَـــذَا ذَيْـــكَ إِقْبَـــالًا أَمَامَـــكَ مَرْكَـــزٌ ... شَرِيـــفٌ وَمَـــأْوَى سَـــائِرُ الصَّيْـــتِ نَائِـــرُ
مُنَـــاخٌ كَمِثْـــلِ الْكِـــيرِ يَنْصَـــعُ طِيبُـــهُ ... بِـــهِ كُلُّ صَـــبٍّ فَاقِـــدُ الصَّـــبْرِ حَائِـــرُ
فَإِمَّـــا وَصَفْتُـــهُ فَـــكُلِّيَ أَلْسُـــنٌ ... وَإِنْ زُرْتَـــهُ لَيْتِـــي فَـــكُلِّي نَوَاظِـــرُ
هُنَالِـــكَ قُبَّـــةٌ عَـــلَى قُـــرْبِ مِنْـــبَرٍ ... أَضَـــاءَتْ لِمَـــنْ يَرْقَـــى عَلَيْـــهِ الْمَنَابِـــرُ
وَمَنْـــزِلُ أَنْصَـــارٍ وَخَـــيْرٌ عَشِـــيرَةٍ ... وُجُـــوهٌ نَـــوَاضِرٌ، وَبِيـــضٌ بَوَاتِـــرُ[٣٠]

افتتح شاعرنا بالحديث عن مسايرته قاصدي البيت الحرام مرات عديدة، عساه يجاهر بمكنون شوقه وحنينه إلى الدّيار المقدّسة ومناسك الحج، ممّا جعله يستخبر الرّكبان عنها، في حالة سيلان مقلته الذي لا يلام عليه الشّاعر، وكيف لا وهو يتوق إلى مناسك الخليل ومقامه، والمقام الذي طاف به الكرام المشاهير، متمنيًا لو لمس الحجر الأسود وقبّله في خشية ربانية، ويشرب من الماء الطاهر الذي تفجر بالرّكض كما ورد في القصة المشهورة، ثمّ يبيّن لنا أن منيته الوحيدة هي الوقوف في ذلك الموقف المعروف، ومرمى مساع، فيقرّ شاعرنا بعجزه التّعبيري أمام وصف هذه المشاعر، حين لم تكفه لسانه فقط، فتمنى لو كان كلّه ألسن، ليجيد وصفها بما يليق بمقامها ومكانتها، ويتمنى لو زاره أن يتحوّل كلّه إلى عين ناظرة، حتى لا يفوته منظر منها، ثم يردف ذلك بوصف مشاعر المدينة المنوّرة من قبّة قرب منبر الرّسول عليه السّلام، ومنزل الصّحابة من الأنصار والمهاجرين، الذين يصفهم بخير عشيرة.

ومن نماذج الحجيات الشّعرية قول الشّاعر الفتى محمد أحمد في الحنين إلى مشاعر الحج:

وَإِنْ يَكُـــنْ غَـــرَرٌ، فَفِـــي ازْدِحَامِـــكَ مَـــا ... بَـــيْنَ الْمَقَـــامِ وَبَـــيْنَ الرُّكْـــنِ فِي خَبَـــبِ
وَفِي سُـــلُوكِكَ لِلتَّقْبِيـــلِ مُلْتَمِسًـــا ... وَحِـــينَ رَمْـــيِ الْحَجِيـــجِ جَمْـــرَةَ الْعَقَـــبِ
وَفِي وُقُوفِـــكَ فِي حَـــرٍّ عَـــلَى جَبَـــلٍ ... وَكُلُّ تِلْـــكَ لَـــمْ تُـــتْرَكْ وَلَـــمْ تُعَـــبِ[٣١]

ويقول محمدو تانا الأسوكي في السّياق نفسه بصيغة أمر مكثّفة، في حضور كبير لمحسن الجناس:

وَأَجْـــرِ إِلَى الْعُيُـــونِ عُيُـــونَ عَيْنِـــي ... وَأَجْـــرِ إِلَى الْعَتِيـــقِ عَتِيـــقَ عَـــيْنِ
وَسَـــلْ عَـــنْ سَـــلْعَ، وَاحْـــدُ بِذِكْـــرِ أُحْدٍ ... وَبَالِـــغْ فِي الْحَنِـــينِ إِلَى حُنَـــيْنِ
وَزَمْـــزِمْ بِسْـــمِ زَمْـــزَمَ وَارْوَ مِـــنْ مَـــ ... ـــاءِ عَيْنَـــيْ بِـــيرِهِ النَّضَّاخَتَـــيْنِ[٣٢]

فالجناس جاسم في جبين هذه المقطوعة الشّعرية بكل وضوح وجلاء، من جناس تام بين العتيق وعتيق، وبين العيون وعيون، وجناس ناقص بين: سل وسلع، فالأوّل أمر فعل من سأل، والثّاني اسم مكان، وبين: احدُ وأُحدٍ، فالأوّل فعل أمر من حدا، والثّاني اسم مكان، وبين: الحنين وحُنَيْن، فالأوّل اسم بمعنى الشّوق، والثّاني اسم مكان، وبين: زَمْزِمْ وزَمْزَم، فالأوّل فعل أمر، والثّاني اسم ماء مقدس، وهلمّ جرًّا.

خاتمة

إنّ رحلة العمر الحجية في سياقها الإفريقي، رحلة تعلّم وتعليم، ورحلة سياحة وتجربة حياتية فريدة؛ ممّا جعلها رحلة عمرية، تتوق إليها النّفوس، وتسعى إلى تحقيقها الجوارح بكلّ ما أوتيت من قوّة، وسلك الإنسان الإفريقي كل السبل المؤدية إليها؛ فقصد البيت الحرام، برًّا وبحرًا وجوًّا، وهذه الرّحلة الحجية، لفتت أنظار الشّعراء الأفارقة: الحجيج منهم وغير الحجيج بمناطق عبورها، ورواحلها المختلفة: البرية والبحرية والجوّية، فسردوا لنا بعض مناطق عبورهم إلى الحج، ووصفوا لنا وسائل تنقلهم إليه، وخاصة البواخر والسفن والطائرة، وعبّروا عن شعورهم الدّيني تجاه مناسك الحج ومشاعره، في نصوص شعرية طريفة وظريفة، لها وظيفتان: الوظيفة التّاريخية، والوظيفة الجمالية الفنية.

نتائج الدّراسة: إنّ تجوال الباحث مع تجارب الأفارقة في رحلة الحج، ومعاناتهم فيها، عبر الوسائل المختلفة، ومناطق العبور العديدة، وقراءته الدّؤوبة في مدوّنة الشّعر العربي الإفريقي العريضة، وانتقاء نماذج شعرية تعضد موضوع الدّراسة، فانطبع على الباحث عدد من الانطباعات، كنتائج للبحث والدّراسة، وعلى النّحو الآتي:

١- أنّ للحج ورحلته قديمًا وحديثًا خصوصية إفريقية، من تلك النّظرية القدسية، إلى هذه الشّعيرة، وتلك النظّرة التّطهيرية، إلى القائم بأدائه، وما كان يلاقي الحجيج الإفريقي من مخاطر ومتاعب وصعوبات في رحلته، مما اصطبغها بصبغة إفريقية، مضيفًا عليها طقوسًا وعادات تفضح عن مكانة هذه العبادة، ومكانة من أداها في المجتمع الإفريقي.

٢- أنّ الحجيج الإفريقي، عرف ثلاث رواحل للحج إلى بيت الله الحرام: الراحلة البرية، والراحلة البحرية، والراحلة الجوية، فانطلقت رحلات الحج الإفريقية بالرّاحلة البرية من خيل، وفرس، وحمار، وإبل، ومشي على الأقدام في العصر القديم، ثمّ الرّاحلة البحرية في العصر الاستعماري، ثمّ الرّاحلة الجوية في العصر الحديث، باختراع الطّائرات، وتأسيس شركات الطيران في كل الأماكن.

٣- كون الشّعر العربي الإفريقي بمدوّنته الكبرى، شاهد عيان على هذه الرّحلة الحجية، حين حاول الشّاعر الإفريقي الحجيج وغير الحجيج، تسجيل أحداث هذه الرّحلة جملة وتفصيلًا، من الانطلاق وتوديع

وفود الحج، ومناطق عبورهم خلال الرّحلة، ومناسك الحج ومشاعره التي حضروها وشهدوها، إلى رجوعهم إلى الدّيار، وما لاقوا من ترحيب حار، وتبرك وطلب دعاء، في تسجيل فني شعري جميل.

٤- أن براعة الشّعراء الأفارقة، في وصف راحلتي البحرية المتمثلة في البواخر والسّفن، والجوية المتمثلة في الطّائرة، براعةٌ وصلت أحيانًا إلى حدّ الجدّة والابتكار في وصف الباخرة والطائرة، بنصوص شعرية طريفة وظريفة، وصلت إلى حدّ العالمية في وصفهما وتصويرهما بالابتكار والجدة، في الوصف والتشخيص.

٥- أن غياب وصف الرّاحلة البرية، وتصويرها في مدونة الشّعر العربي الإفريقي، الذي وصلنا، غياب قد يفسر بعامل الضّياع، أكثر من تفسيره بعدم تناول الشّاعر الإفريقي له، بل لعلّ الرّحلة البرية إلى الحج، كانت أخطر رحلاته وأصعبها وأتعبها، ممّا رشّحها لتناول الشعراء ومعالجتهم، كما عبّروا عنها في نصوص نثرية كثيرة تحت عنوان «أدب الرّحلات إلى الحج».

الهوامش والإحالات

(١) محمود كعت، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس تحقيق: السيد هوداس، والسيد دلافوس، (باريس: مطبعة أمريكا والشرّق الأوسط، ١٩٨١م)، ٣٦.

(٢) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق: حسن حبشي، (مصر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، ١٣٨٩هـ ١٩٦٩م)، ١-٢٧٨.

(٣) ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق: خليل شحادة، (بيروت: دار الفكر، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م)، ٥-٤٩٥.

(٤) محمدو بن محمذن، المجتمع البيضاني في القرن التّاسع عشر، قراءة في الرحلات الاستكشافية الفرنسية، معهد الدّراسات الإفريقية، جامعة محمد الخامس (الرباط: مطبعة النّجاح الجديدة، ٢٠٠١م)، ١١٥.

(٥) ـابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر، ٥-٤٩٥.

(٦) فاطمة عبد الوهاب، الحجيات الشّنقيطيات عبر وسيط إفريقيا، ملاحظات حول رهانات الخطاب، مجلة الجامعة الإسلامية بالنّيجر، ع ١٤، (نيامي: الجامعة الإسلامية بالنيجر، ١٤٤٣هـ ٢٠٢٢م)، ٢٥١.

(٧) عبد الوهاب، الحجيات الشّنقيطيات عبر وسيط إفريقيا، ملاحظات حول رهانات الخطاب، ٢٤٨.

(٨) ديوان الشّيخ محمد الهادي توري، غير منشور، له نسخة إلكترونية في مكتبة الباحث، ١٦.

(٩) عمار صمب، الأدب السّنغالي العربي، الهدية السّنغالية من المرجان في العقود الأدبية للعربان، (الجزائر: الشرّكة الوطنية للنّشر والتّوزيع، ١٩٧٨م)، ٢-٣٢٣.

(١٠) ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر، ٦-٢٦٦.

(١١) تاريخ ابن الوردي، ط ١، (بيروت: دار الكتب العلمية،١٤١٧هـ ١٩٩٦م)، ٢-٢٦٦.

(١٢) الشّيخ إبراهيم المالي، غاية الأرب في رحلة الطّلب، شيء من الثّقافة الإسلامية في أدغال إفريقيا الغربية، ط١، (القاهرة: دار الصّالح، ١٤٣٩هـ ٢٠١٨م)، ١١٤.

(١٣) زين الدين عبد الباسط الظاهريّ القاهري، نيل الأمل في ذيل الدول، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ط١، (بيروت: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، ١٤٢٢هـ ٢٠٠٢م)، ٤-٣١٦.

(١٤) عمر محمد صالح باه، الثّقافة العربية الإسلامية في غرب إفريقيا، (جدة: دار المنهاج، ٢٠٠٧م)، ٤٤٨.

(١٥) محمد أغ محمد، الشعر العربي عند الطّوارق، كل اسُوك نموذجا، ط١، (عمان: دار فضاءات للنّشر والتوزيع، ٢٠٢٠م)، ٢٥٦.

(١٦) مامادو بسير دامبلي، «الشّعر العربي بجمهورية مالي من عام: ١٩٦٠ إلى عام: ٢٠١٨ الميلاديين، دراسة وصفية تحليلية نقدية،» إشراف د. يوسو مونكيلا، (رسالة دكتوراة، عمادة الدّراسات العليا والبحث العلمي، الجامعة الإسلامية بالنّيجر، ٢٠٢٢م)، ٧١.

(١٧) أحمد الفهري، شعر عبد القادر متّال والفتى محمد أحمدُ تحقيقا وموازنة، إشراف د. الشّيخ ولد حامن، (أطروحة الدّكتوراه، عمادة الدّراسات العليا والبحث العلمي، الجامعة الإسلامية بالنّيجر، ٢٠٢١ ٢٠٢٢م)، ٢٤٤.

(١٨) أغ محمد، الشعر العربي عند الطّوارق، كل اسُوك نموذجا، ٢٥٦.

(١٩) غ محمد، الشعر العربي عند الطّوارق، كل اسُوك نموذجا، ٢٧٧.

(٢٠) أغ محمد، الشعر العربي عند الطّوارق، كل اسُوك نموذجا، ٣٣٠ ٣٣١.

(٢١) صمب، الأدب السّنغالي العربي، الهدية السّنغالية من المرجان في العقود الأدبية للعربان، ٢-٣٢٣.

(٢٢) عبد الوهاب، الحجيات الشّنقيطيات عبر وسيط إفريقيا، ملاحظات حول رهانات الخطاب، ٢٥٤.

(٢٣) عبد الوهاب، الحجيات الشّنقيطيات، ٢٥٤.

(٢٤) فاطمة عبد الوهاب، الحج في الشعر الموريتاني، قراءة دلالية في مدونة الوسيط، أعمال الندوة الإسلامية الكبرى للحج، بعنوان: «مكة المكرّمة عاصمة الثّقافة الإسلامية٢ لسنة ١٤٢٤هـ»، (جدة: منشورات وزارة الحج السّعودية، ١٤٢٤ه)، ٦٦٧ـــ ٦٩٠.

(٢٥) باه، الثّقافة العربية الإسلامية في غرب إفريقيا، ٤٤٥.

(٢٦) باه، الثّقافة العربية الإسلامية في غرب إفريقيا، ٤٤٥.

(٢٧) باه، الثّقافة العربية الإسلامية في غرب إفريقيا، ٤٧٧.

(٢٨) ظاهر شوكت البياتي، أدوات الإعراب، ط١، (بيروت: مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٤٢٥هـ ٢٠٠٥م)، ٨٨.

(٢٩) أغ محمد، الشعر العربي عند الطّوارق، كل اسُوك نموذجا، ٤٧٧.

(٣٠) الفهري، شعر عبد القادر متّال والفتى محمد أحمدُ تحقيقا وموازنة، ٢٦١ ٢٦٢.

(٣١) الفهري، شعر عبد القادر متّال والفتى محمد أحمدُ تحقيقا وموازنة، ٢٤٤.

(٣٢) أغ محمد، الشعر العربي عند الطّوارق، كل اسُوك نموذجا، ٤٣٦.

واقع وسيناريوهات العلاقات الاقتصادية بين جنوب إفريقيا والولايات المتحدة الأمريكية في ظل انعكاسات سياسات «ترامب»

د. جيهان عبد السلام عباس، أستاذ الاقتصاد المساعد، كلية الدراسات الإفريقية العليا، جامعة القاهرة، القاهرة.

تحتلّ جنوب إفريقيا مكانة بارزة في القارة الإفريقية، كقوّة اقتصادية من أكبر الاقتصادات في القارة. وتشارك بنشاط في عمليات الأمم المتحدة الإقليمية لحفظ السلام، كما تستضيف المقر الدائم للبرلمان الإفريقي. وإضافة إلى ذلك، تتمتّع جنوب إفريقيا بقدر كبير من القوة الناعمة؛ حيث تستخدم تاريخها الوطني المميز، للتأثير على الشؤون العالمية. ونتيجة لهذا، فإن العلاقات بين الولايات المتحدة وجنوب إفريقيا تشكّل أهمية كبيرة؛ فمنذ ظهور النظام الديمقراطي في عام ١٩٩٤م، سعت جنوب إفريقيا من خلال سياستها الخارجية إلى تعزيز السلام، والأمن، والتنمية، في القارة الإفريقية، واتّخذت موقف عدم الانحياز في علاقتها الدولية، وسعت إلى إقامة علاقات ودّية مع جميع الدول. وقد شهدت العلاقات الاقتصادية بين الولايات المتحدة، وجنوب إفريقيا تطوّرات ملحوظة، تميّزت بتعزيز التعاون التجاري والاستثماري بين البلدين. وعلى الرغم من بعض التحديات والتوترات الدبلوماسية في بعض الفترات، إلّا أنّ العلاقات الاقتصادية بين الولايات المتحدة وجنوب إفريقيا ظلّت قوية، مع التزام البلدين في السنوات السابقة، بتعزيز التعاون لتحقيق المصالح المشتركة.

وفي فبراير عام ٢٠٢٥م، وبعد عودة ترامب إلى الرئاسة الأمريكية بأيام قليلة، وقَّع أمرًا تنفيذيًّا بتعليق المساعدات المالية لجنوب إفريقيا، التي كانت تقدَّر بحوالي ٤٤٠ مليون دولار سنويًّا، حتى عام ٢٠٢٤م، وجاء هذا القرار بسبب قانون أقرّته جنوب إفريقيا، يسمح بمصادرة الأراضي دون تعويض، وهو ما اعتبره ترامب تمييزًا ضد المزارعين البيض. وأدّت هذه التطورات إلى توتر العلاقات بين الولايات المتحدة وجنوب إفريقيا، مع استمرار الجدل بشأن الانعكاسات الاقتصادية لذلك.[١]

ومن هذا المنطلق، تسعى هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على أهم ملامح تاريخ العلاقات بين

جنوب إفريقيا، والولايات المتحدة الأمريكية، لفهم طبيعة التناغم بين الجانبين، كذلك التحديات التي تواجه هذه العلاقة. ثم تحلّل الدراسة العلاقات التجارية والاستثمارية، لتسليط الضوء على التشابك الاقتصادي بين الدولتين. وأخيرًا تركّز الدراسة على فهم أسباب التوترات الأخيرة بين جنوب إفريقيا والولايات المتحدة، خاصة بعد إعلان ترامب وقف المساعدات التنموية، وطبيعة الانعكاسات الاقتصادية الناتجة عن هذا التوتر القائم، والسيناريوهات المحتملة بشأن مدى استمرارية هذا التوتر من عدمه، وذلك من خلال المحاور الآتية:

أولًا- أهم ملامح تاريخ العلاقات بين جنوب إفريقيا والولايات المتحدة

افتتحت الولايات المتحدة قنصلية لأول مرة في كيب تاون في عام ١٧٩٩م، وفي عام ١٩٢٩م، أقامت علاقات دبلوماسية رسمية مع جنوب إفريقيا، بعد أن اعترفت المملكة المتحدة باستقلال جنوب إفريقيا، داخل الإمبراطورية البريطانية. وفي عام ١٩٤٨م، أسّست حكومة جنوب إفريقيا نظام الفصل العنصري، وهو نظام حكم، أضفى طابعًا رسميًّا على القهر السياسي للأغلبية من السكان غير البيض. وقد توتّرت العلاقات بين الولايات المتحدة وجنوب إفريقيا بشدّة، بسبب السياسات العنصرية التي تنتهجها جنوب إفريقيا، وأصدر الكونجرس الأمريكي في نهاية المطاف قانونًا شاملًا لمكافحة الفصل العنصري لعام ١٩٨٦م، والذي فرض عقوبات على حكومة الفصل العنصري في جنوب إفريقيا.

كما لعبت الولايات المتحدة دورًا مهمًّا، في دعم التحول الديمقراطي في جنوب إفريقيا عام ١٩٩٤م، حيث استقبل الرئيس «بيل كلينتون» الرئيس المنتخب حينها «نيلسون مانديلا»، في أول زيارة دولة له إلى الولايات المتحدة. وفي عام ١٩٩٥م، تم إطلاق اللجنة الثنائية بين الولايات المتحدة وجنوب إفريقيا، لدعم إعادة بناء جنوب إفريقيا، وقام الرئيس كلينتون بزيارة رسمية إلى جنوب إفريقيا في عام ١٩٩٨م، وقام كلٌّ من جورج دبليو بوش، وباراك أوباما، بزيارة جنوب إفريقيا خلال فترة رئاستيهما، وألقى الرئيس أوباما خطابًا له في حفل تأبين نيلسون مانديلا في عام ٢٠١٣م.

وتتقاسم الولايات المتحدة وجنوب إفريقيا مصالح اقتصادية وسياسية مهمة، فضلًا عن أهداف إنمائية مشتركة في جميع أنحاء إفريقيا، باعتبارها دولة ديمقراطية قوية، واقتصادًا أكثر تقدّمًا في منطقة جنوب الصحراء الكبرى في إفريقيا، بالإضافة إلى كونها تلعب دورًا اقتصاديًّا وسياسيًّا رئيسًا في القارة. ومنذ تحول جنوب إفريقيا إلى الديمقراطية في عام ١٩٩٤م، قامت الولايات المتحدة وجنوب إفريقيا ببناء علاقة ثنائية متينة، مع تعاون قوي في مجالات الصحة، والتعليم، والبيئة، والاقتصاد الرقمي.[٢] واستمرت الولايات المتحدة في التعاون مع جنوب إفريقيا في مجالات الأمن، ومكافحة الإرهاب، مع التركيز على تعزيز الاستقرار في المنطقة

بوجه عام؛ فقد سعت إدارة بايدن إلى تعزيز العلاقات مع جنوب إفريقيا، من خلال مبادرات اقتصادية، مثل: قانون (أجوا) الذي سرد ذكره لاحقًا، ومبادرات صحية لمكافحة الأمراض المستوطنة مثل: (الإيدز)، من خلال خطة الطوارئ للإغاثة من الإيدز(PEPFAR)، مع التركيز على الشراكة والتعاون المتبادل.

ثانيًا- العلاقات الاقتصادية الثنائية بين جنوب إفريقيا والولايات المتحدة الأمريكية

العلاقات التجارية: تعدّ جنوب إفريقيا أكبر شريك تجاري للولايات المتحدة في إفريقيا؛ فقد بلغ إجمالي تجارة السلع والخدمات الأمريكية مع جنوب إفريقيا ما يقدر بنحو ٢٥,٥ مليار دولار في عام ٢٠٢٢م، وبلغت صادرات جنوب إفريقيا نحو ٩,٣ مليار دولار، بما يمثل حوالي ٤,٨٪ من إجمالي صادرات جنوب إفريقيا للعام ذاته، والبالغة ٨,١١٠ مليار دولار أمريكي؛ بينما كانت الواردات ١٦,٢ مليار دولار بما يمثل حوالي ٦,١٤٪ من إجمالي واردات جنوب إفريقيا للعام نفسه. وبلغ العجز التجاري للسلع والخدمات الأمريكية مع جنوب إفريقيا ٦,٩ مليارات دولار للعام ذاته. وكانت قيمة صادرات السلع الأمريكية إلى جنوب إفريقيا ٦,٥ مليارات دولار في عام ٢٠٢٢م، بزيادة ١٩,١٪ (١,٠ مليار دولار) عن عام ٢٠٢١م. وبلغ إجمالي واردات السلع الأمريكية من جنوب إفريقيا ١٤,٦ مليار دولار (١,٢٨٪) للعام ذاته، وبلغ العجز التجاري للسلع الأمريكية مع جنوب إفريقيا ٨,١ مليارات دولار في عام ٢٠٢٢م، بانخفاض بنسبة ٢١,٤٪ (٢,٢ مليار دولار) عن عام ٢٠٢١م.

وقدّرت صادرات الخدمات الأمريكية فقط إلى جنوب إفريقيا بنحو ٢,٨ مليار دولار في عام ٢٠٢٢م، بزيادة ٢٧,٧٪ (٦١٢ مليون دولار) عن عام ٢٠٢١م، كما قدّرت واردات الخدمات من جنوب إفريقيا بنحو ١,٦ مليار دولار في عام ٢٠٢٢م، أي أكثر بنسبة ٤٥,٤ ٪ (٥٠٧ ملايين دولار) عن عام ٢٠٢١م. وتمركزت صادرات الخدمات الرائدة من الولايات المتحدة إلى جنوب إفريقيا في قطاعات السفر، والخدمات المالية، والملكية الفكرية. وحقّقت الولايات المتحدة فائضًا في تجارة الخدمات يقدر بنحو ١,٢ مليار دولار مع جنوب إفريقيا في عام ٢٠٢٢م، بزيادة ٩,٦٪ عن عام ٢٠٢١م.[٣]

وفي عام ٢٠٢٣م، بلغت قيمة التجارة الأمريكية مع جنوب إفريقيا ٧,١ مليار دولار من الصادرات، و١٣,٩٨ مليار دولار من الواردات، حيث احتلت الولايات المتحدة المرتبة الثانية، كأكبر وجهة لصادرات جنوب إفريقيا بعد الصين، وتليها المملكة المتحدة. وكمصدر للواردات، احتلت الولايات المتحدة المرتبة الثانية بعد الصين وتلتها ألمانيا،[٤] كما تعدّ الولايات المتحدة ثالث أكبر شريك تجاري لجنوب إفريقيا، حيث يتم تصدير ٧,٧٪ من بضائع جنوب إفريقيا إلى الولايات المتحدة. وعلى العكس من ذلك، فقد استوردت جنوب إفريقيا ٨,٢٪ من الولايات المتحدة.[٥] وتعدّ المعادن والأحجار الكريمة أكبر صادرات جنوب إفريقيا إلى الولايات

المتحدة، كذلك المركبات، وقطع الغيار، والحديد والصلب والآلات، ومنتجات الألمنيوم، والخامات، والمواد الكيميائية العضوية، والفواكه الصالحة للأكل، والمنتجات الكيماوية، ومنتجات النيكل.[٦] وتجدر الإشارة إلى أن مجموعة المعادن من البلاتين، قد شكّلت ما يقرب من نصف صادرات جنوب إفريقيا إلى الولايات المتحدة، وما يقرب من ١٠٠٪ من إمدادات الكروم العالمية في الولايات المتحدة. وتهيمن جنوب إفريقيا على إنتاج البلاتين والإيريديوم، وكلاهما محوريان لاقتصاد الهيدروجين الأمريكي المتوسع. كما يستخدم الكروم لحماية أجزاء العديد من المكونات: البحرية، والسيارات، والطائرات، والكمبيوتر من التآكل، والعديد من هذه الاستخدامات ليس لها بديل. وعلى الرغم من كون روسيا لاعبًا هائلًا في هذه المعادن، ولكن نظرًا للعلاقات المتقلبة بين الولايات المتحدة وروسيا بسبب الحرب الأوكرانية، انخفضت واردات الولايات المتحدة من البلاتين الروسي بالكامل، في عام ٢٠٢٣م، باستثناء البلاديوم.[٧]

جدول رقم (١): تجارة الولايات المتحدة (السلعية فقط) مع جنوب إفريقيا خلال الفترة (١٩٩٥ - ٢٠٢٣م)

(مليار دولار أمريكي)

السنوات	الصادرات	الواردات
١٩٩٥	٧٥,٢	٢١,٢
٢٠٠٠	٠٩,٣	٢١,٤
٢٠٠٥	٩١,٣	٨٩,٥
٢٠١٠	٦٣,٥	٢٢,٨
٢٠١٥	٤٦,٥	٣٢,٧
٢٠٢٠	٣٨,٤	٣٦,١١
٢٠٢٣	١,٧	٩٨,١٣

Source: Scott Firsing, "US-South Africa Relations Are Strained, But Metals and Minerals Might Be a Soothing Balm," *Institute for Global Dialogue*, September 30, 2024, https://igd.org.za/2024/09/30/us-south-africa-relations-are-strained-but-metals-and-minerals-might-be-a-soothing-balm/.

وعلى صعيد العلاقات التجارية بين الجانبين، تجدر الإشارة هنا إلى استفادة جنوب إفريقيا من مزايا التجارة التفضيلية، بموجب قانون النمو والفرص في إفريقيا(أجوا) African Growth and Opportunities Act لعام ٢٠٠٠م، حيث وفّر وصولًا معفيًّا من الرسوم الجمركية لبعض سلع القارة الإفريقية (٤٩ دولة ومنها جنوب إفريقيا) إلى الولايات المتحدة. وساعد «أجوا» جنوب إفريقيا في دفع صادرات السيارات، والفحم،

والنبيذ، والسلع الأخرى، إلى السوق الأمريكية، فضلًا عن برنامج الأفضليات التجارية لنظام الأفضليات، المعمم في الولايات المتحدة. وتجدر الإشارة هنا، إلى أنه سبق أن وقّعت الدولتان اتفاقية إطارية معدلة للتجارة والاستثمار Trade and Investment Framework Agreements (TIFAs) في عام٢٠١٢م، والتي تعدل اتفاقية TIFA بين الولايات المتحدة وجنوب إفريقيا، الموقعة أصلًا في عام ١٩٩٩م، وبالإضافة إلى ذلك، تنتمي جنوب إفريقيا إلى الاتحاد الجمركي للجنوب الإفريقي، الذي وقّع اتفاقية التعاون التجاري والاستثماري والتنمية Trade, Investment , Development and Cooperation Agreement (TIDCA) عام ٢٠٠٨م، مع الولايات المتحدة، وتنشئ اتفاقية TIDCA منتدى للمناقشات التشاورية، والعمل التعاوني، واتفاقيات التركيز المحتملة على تسهيل قضايا واسعة النطاق، مع مجموعة فنية من التجارة، والحواجز أمام التجارة، وتدابير الصحة والصحة النباتية، وترويج التجارة والاستثمار.[٨]

العلاقات الاستثمارية: تعدّ الولايات المتحدة واحدة من أبرز المستثمرين في جنوب إفريقيا، حيث بلغ حجم الاستثمارات الأمريكية في جنوب إفريقيا ٧,٤ مليارات دولار في عام ٢٠٢٢م، بزيادة قدرها ١١,٩٪ عن عام ٢٠٢١م. وتعدّ جنوب إفريقيا موطنًا لأكثر من ٦٠٠ شركة أمريكية، ويقود الاستثمار الأمريكي المباشر في جنوب إفريقيا قطاع الخدمات، وتكنولوجيا المعلومات، والاتصالات، فضلًا عن التصنيع، والتمويل، والتأمين، والتعدين، كما هو موضح في الجدول رقم (٢).[٩] كما نما الاستثمار المباشر الخارجي لجنوب إفريقيا إلى الولايات المتحدة من ٣,١ مليارات دولار أمريكي في عام ٢٠١٧م، إلى ٤,١ مليارات دولار أمريكي في عام ٢٠٢١م. وهناك ما يقرب من ٢٢ شركة جنوب إفريقية، تستثمر في الولايات المتحدة، وتوظف نحو ٦٩٠٠ شخص.[١٠]

جدول رقم (٢): عدد الشركات الأمريكية العاملة بالقطاعات الاستثمارية في جنوب إفريقيا ونسبها إلى إجمالي الشركات العاملة بها لعام ٢٠٢٢م

القطاع	عدد الشركات الأمريكية العاملة	النسبة من إجمالي الشركات الأمريكية العاملة في جنوب إفريقيا
قطاع الخدمات	١٦٦	٤,١٣٪
قطاع تكنولوجيا المعلومات والاتصالات	٨٨	١,٩٪
تجارة الجملة والتجزئة	٨٤	٧,٨٪

القطاع	عدد الشركات الأمريكية العاملة	النسبة من إجمالي الشركات الأمريكية العاملة في جنوب إفريقيا
الصناعة التحويلية	٧٣	٥,٧٪
السلع الاستهلاكية	٣٤	٤٪
قطاع الصحة وصناعة الأدوية	٣٣	٩,٣٪
النقل والمواصلات	٣١	٨,٣٪
الصناعات الكيميائية	٢٣	٠١,٣٪
القطاعات الأولية (الزراعة والتعدين)	٢٣	٠١,٣٪
الخدمات المالية	٢١	٣٪

Source: Scott Firsing, "US-South Africa Relations Are Strained, But Metals and Minerals Might Be a Soothing Balm," *Institute for Global Dialogue*, September 30, 2024, https://igd.org.za/2024/09/30/us-south-africa-relations-are-strained-but-metals-and-minerals-might-be-a-soothing-balm/.

ثالثًا- ملامح وأسباب توتر العلاقة بين جنوب إفريقيا والولايات المتحدة

تعرّضت العلاقة الثنائية بين الولايات المتحدة وجنوب إفريقيا لضغوط متزايدة في السنوات الأخيرة، ويرجع ذلك – إلى حد كبير– إلى عدد من الأسباب، ومعظمها ذات طابع سياسي، ويتمثّل أهمها فيما يأتي:

١- **الإجراءات القانونية التي اتخذتها جنوب إفريقيا في محكمة العدل الدولية ضد إسرائيل،** الحليف الوثيق للولايات المتحدة، والتي تتهمها جنوب إفريقيا بارتكاب جرائم إبادة جماعية في غزة،[١١] ممّا أثار غضب واشنطن، كما أن دعم جنوب إفريقيا للقضية الفلسطينية أسهم في تصعيد الخلافات بين الطرفين، في ظل تبنيها مواقف علنية مناهضة لإسرائيل، وهو ما اعتبرته واشنطن تحدّيًا لمصالحها في المنطقة.

٢- **علاقات جنوب إفريقيا المتزايدة مع الدول التي تعتبرها واشنطن خصومًا لها؛** وأقرب مثال على ذلك، علاقتها بدول مثل: الصين، وروسيا، وإيران، وهم حلفاء جنوب إفريقيا في مجموعة البريكس BRICS ؛ إذ تشعر واشنطن بالقلق، من أن نمو مجموعة البريكس، من شأنه التأثير على مصالحها العالمية، وخاصة في الحصول على المواد الخام في جنوب إفريقيا، لحماية مستقبلها الاقتصادي. وكانت جنوب إفريقيا أول دولة إفريقية تنضم إلى مبادرة الحزام والطريق، وابتداءً من عام ٢٠٢٣م، شهدت

الاستثمارات الصينية ومشاريع البناء، ما يصل إلى ١٤ مليار دولار، ومتركزة في القطاعات الإستراتيجية، مثل: التعدين، والطاقة، والنقل، والتمويل.[١٢] وفي ضوء توجه مجموعة البريكس نحو التوسع، وإضافة أعضاء جدد، فمن المحتمل أن يؤدي هذا التوسع إلى تحويل المصالح الاقتصادية لجنوب إفريقيا، بعيدًا عن الولايات المتحدة، وخاصة بعد أن أصبحت المجموعة تضم إيران، التي تربطها بالولايات المتحدة علاقة عدائية، في الوقت الذي تتمتع فيه جنوب إفريقيا، بعلاقة طويلة وداعمة مع إيران؛ فقد امتنعت عن التصويت على ١١ من ١٢ قرارًا للأمم المتحدة، ضد انتهاكات إيران لحقوق الإنسان. يضاف إلى ذلك اتهام جنوب إفريقيا بمغازلة المنافسين الجيوسياسيين للولايات المتحدة، وعلى رأسهم روسيا؛ ففي عام ٢٠٢٣م تصاعدت التوترات بين البلدين، عندما اتهم السفير الأمريكي جنوب إفريقيا بتزويد روسيا بالأسلحة للصراع في أوكرانيا، على الرغم من موقف جنوب إفريقيا الرسمي بالحياد.[١٣] واستند هذا الاتهام إلى تقارير استخباراتية أمريكية، رصدت تحميل ذخيرة وأسلحة بشكل سري، على متن الشاحنة الروسية «ليدي آر» (The Lady R)، والتي كانت مستقرة في قاعدة «سيمون تاون» البحرية، بالقرب من كيب تاون بجنوب إفريقيا، وتخضع هذه الشاحنة الروسية حاليًّا لعقوبات أمريكية.[١٤]

وفي مارس عام ٢٠٢٤م، أقرّت لجنة الشؤون الخارجية بمجلس النواب الأمريكي قانون مراجعة العلاقات الثنائية بين الولايات المتحدة وجنوب إفريقيا. والهدف هو التحقيق فيما إذا كانت تصرفات جنوب إفريقيا تقوض الأمن القومي الأمريكي، أو مصالح السياسة الخارجية. ومنذ ذلك التوقيت، وجدت البنود التنفيذية لمشروع القانون الأولي، بين الولايات المتحدة وجنوب إفريقيا، طريقها كتعديلات على قانون تفويض الدفاع الوطني، وتم إقرارها من قبل مجلس النواب الأمريكي بكامل هيئته. ونظرًا لاعتمادها على المعادن الجنوب إفريقية، التي تعتبر ضرورية لاقتصادها وأمنها القومي، إلى جانب العلاقات الاقتصادية والثقافية المهمة بين البلدين، فقد حال هذا تاريخيًّا دون اتخاذ إجراءات صارمة ضد جنوب إفريقيا.[١٥]

٣- **اتهامات «ترامب» لجنوب إفريقيا لتبنيها قوانين ملكية عنصرية:** كان رئيس جنوب إفريقيا «سيريل رامافوزا» قد وقع على مشروع قانون، من شأنه أن يسهل على الدولة مصادرة الأراضي، لتحقيق المصلحة العامة. ويهدف القانون إلى معالجة الفوارق العرقية في ملكية الأراضي، التي استمرت ثلاثة عقود، بعد زوال نظام الفصل العنصري في عام ١٩٩٤م، واستكمالًا لسلسلة الاتهامات الأمريكية لجنوب إفريقيا، أعلن الرئيس الأمريكي دونالد ترامب في ٢ فبراير ٢٠٢٥م، دون الاستشهاد بأدلة، أن «فئات معينة من الناس» في جنوب إفريقيا، تُعامل «بشكل سيئ للغاية»، وإنه سيقطع التمويل عن البلاد، حتى يتم التحقيق في الأمر. وتبلغ قيمة تلك التعهدات والمساعدات التنموية ما يقرب من ٤٤٠ مليون دولار لعام٢٠٢٣م.[١٦] وجدير بالذكر هنا إلى أن مثل تلك الاتهامات ليست بجديدة؛

ففي عام ٢٠١٨م، خلال فترة ولاية «ترامب» الأولى، أمر ترامب وزير الخارجية آنذاك «مايك بومبيو» بالنظر في مصادرة الأراضي، وقتل المزارعين البيض في جنوب إفريقيا، وكرّر «ايلون ماسك»، الذي ولد في بريتوريا بجنوب إفريقيا، في منشورات متعددة له، بما في ذلك واحدة في عام ٢٠٢٣م، اتّهم فيها اليساريين في جنوب إفريقيا بالضغط علنًا من أجل الإبادة الجماعية للأشخاص البيض،[١٧] كما اتهم ماسك حكومة رامافوزا في عام ٢٠٢٣م، بالسماح بحدوث «إبادة جماعية»، بسبب مقتل بعض المزارعين البيض، وهو ما حدث منذ سنوات، وجاءت تلك الاتهامات في الوقت الذي لا يوجد فيه دليل على أي إبادة جماعية، وأن تلك العمليات، وإن حدثت، فهي جزء من معدلات الجرائم العنيفة المرتفعة في جنوب إفريقيا، ويرتبط معظمها بسرقة المزارع؛ حيث تشهد البلاد ما معدله ٧٠ جريمة قتل يوميًّا، والغالبية العظمى من الضحايا من السود، وليس البيض.[١٨]

وكان رد فعل جنوب إفريقيا على اتهامات «ترامب» الأخيرة، متمثّلًا في قدرة السياسة الأمريكية على استغلال فترة التحقيق، للتوصل إلى فهم شامل لسياسات جنوب إفريقيا، في إطار الديمقراطية الدستورية، خاصة أن قانون المصادرة ليس استثنائيًّا، حيث إن العديد من الدول لديها تشريعات مماثلة، خاصة مع كونها عملية قانونية، تضمن حصول الجمهور على الأراضي بطريقة منصفة وعادلة، كما انتقد عرض الولايات المتحدة استقبال المزارعين البيض كلاجئين، معتبرًا ذلك تدخّلًا في الشؤون الداخلية. وأكد «رامافوزا» رفض بلاده الخضوع للتهديدات الخارجية، وأنها لن تنحني لتهديدات «ترامب».[١٩]

وتجدر الإشارة هنا، إلى أن قانون المصادرة رقم ١٣ لعام ٢٠٢٤م، يعتبر أحدث سياسة لإصلاح الأراضي في جنوب إفريقيا، تهدف إلى حل مشكلات عدم المساواة في الملكية، التي أنشأها نظام الفصل العنصري قبل عام ١٩٩٤م، لحكم الأقلية البيضاء. وقد وافق «رامافوزا» على القانون في ٢٣ يناير عام ٢٠٢٥م، بعد خمس سنوات من المشاورات العامة، والنقاش البرلماني. وبحسب الحكومة، فإن القانون يحدد كيفية نزع الملكية، وعلى أي أساس، ويسمح القانون للحكومة بالاستيلاء على الأراضي، أو «لأغراض عامة أو للمصلحة العامة». وينص القانون بشكل عام على تعويض «عادل ومنصف»، لكن أحد البنود ينص على أنه لا يجوز للحكومة تقديم تعويض في حالات معينة، بما في ذلك عندما لا تكون الأرض قيد الاستخدام، ويكون الغرض الرئيس هو رفع القيمة السوقية، أو عندما يتم التخلي عن الأرض بموجب القانون، فينبغي لسلطة المصادرة – وهي جهاز حكومي أو شخص مخول بموجبها أو أي تشريع آخر – أن تحاول أولًا التوصل إلى اتفاق مع مالك الأرض، أو صاحب الحق، للحصول على العقار «بشروط معقولة». ومع ذلك، يمكن استخدام العقار مؤقّتًا، دون الحاجة إلى التوصل إلى اتفاق، إذا كان مطلوبًا بشكل عاجل لغرض عام، أو للمصلحة العامة. وفي الأسابيع التي تلت دخول التشريع حيز التنفيذ، فإنه لم تتم مصادرة أي أرض حتى الآن.

وعلى الرغم من النهاية الرسمية لنظام الفصل العنصري في عام ١٩٩٤م، إلّا أنّه لا تزال جنوب إفريقيا تعاني عدم المساواة العرقية واسعة النطاق، في ملكية الأراضي؛ حيث أدى قانون صدر عام ١٩١٣م، إلى إبعاد الآلاف من عائلات السود قسرًا من الأراضي التي يمتلكونها، ممّا أدّى إلى تقليص ملكية الأراضي الإفريقية إلى ٧٪ فقط، وتم تعديلها لاحقًا إلى ١٣٪ في عام ١٩٣٦م، وسمحت هذه الحصص للأشخاص البيض - إلى حد كبير - بامتلاك مساحات كبيرة من الأراضي، في حين أجبرت الأغلبية السوداء على العيش في مساحات ضيقة ومزدحمة، إلى أن تم إلغاء تدابير الأراضي على أساس عنصري في عام ١٩٩١م، كما اشترت الحكومة وأعادت توزيع ٧,٨ مليون هكتار (١٩ مليون فدان) من الأراضي الزراعية، بهدف إعادة توزيع ٣٠٪ من المزارع البيضاء، التي تم نقلها بشكل متكرر من عام ١٩٩٨ حتى عام ٢٠٣٠م، واشترى المزارعون السود ١,٨ مليون هكتار أخرى من الأراضي، ومع ذلك، لا تزال ٧٨٪ من المزارع الخاصة مملوكة للبيض، في حين يعاني العديد من المزارعين السود، وسط نقص الدعم المالي والفني.[٢٠] ويمتلك ملاك الأراضي البيض ثلاثة أرباع الأراضي الزراعية، ذات التملك الحر في جنوب إفريقيا، مقارنة بـ ٤٪ لملاك الأراضي السود، في الوقت الذي يشكل فيه السود حوالي ٨٠٪ من إجمالي سكان جنوب إفريقيا، في حين أن حوالي ٨٪ فقط من السكان البيض.[٢١]

رابعًا- انعكاسات توتر العلاقات الثنائية على الأوضاع الاقتصادية بجنوب إفريقيا

١- **مستقبل قانون الفرص والنمو الإفريقي «أجوا»:** لقد كان قانون النمو والفرص في إفريقيا(أجوا)، حجر الزاوية في سياسة الولايات المتحدة، لتنمية علاقات اقتصادية أعمق مع إفريقيا جنوب الصحراء، منذ عام ٢٠٠٠م، حيث يقدّم البرنامج لأكثر من ثلاثين دولة، إمكانية الوصول التفضيلي إلى الولايات المتحدة، من خلال إلغاء الرسوم الجمركية على الواردات، لأكثر من ١٨٠٠ منتج. وبالإضافة إلى ذلك، فهناك أكثر من ٥٠٠٠ منتج، مؤهل للوصول بدون رسوم جمركية، بموجب برنامج نظام التفضيلات المعمم. وتشمل قائمة منتجات أجوا كلًّا من المواد الخام، ومنتجات المنسوجات، والملابس. وهو قانون أحادي الجانب، ممّا يعني أنه لا يتطلب من الدول الإفريقية خفض حواجزها، أمام الولايات المتحدة. وكان من المقرر أن تنتهي صلاحيته في عام ٢٠٠٨م، ولكن تم تجديده أربع مرات منذ ذلك الحين. وقام الكونجرس بتجديد قانون النمو والفرص في إفريقيا آخر مرة في عام ٢٠١٥م، وهو الآن يترقب مدى إمكانية تجديده المقبل في عام ٢٠٢٥م.

وتشير الأوضاع القائمة والسابق عرضها، بين جنوب إفريقيا والولايات المتحدة، إلى احتمالية تعثّر الحماس نحو تجديد «أجوا» بين صنّاع القرار السياسي في الولايات المتحدة.[٢٢] ويساعد في الخلاف

القائم بشأن قانون انتزاع ملكية الأراضي في جنوب إفريقيا، بالإضافة إلى عدة أسباب أخرى أهمها ما يأتي:

- يشير خبراء التجارة الدولية إلى أن الولايات المتحدة والعديد من نظرائها فشلوا في استخدام البرنامج بشكل فعّال. كما أن نحو ثمانية عشر مشاركًا فقط، في قانون النمو والفرص في إفريقيا قاموا بصياغة إستراتيجيات وطنية، للاستفادة من البرنامج، ممّا يشير إلى أن هدف البرنامج المتمثل في دفع التنمية الاقتصادية الإفريقية لا يحقق الهدف المطلوب.
- يفتقر البرنامج إلى الأحكام اللازمة، لمساعدة المصدرين والمستثمرين الأمريكيين على التنافس مع نظرائهم في أوروبا، وأماكن أخرى.
- ضرورة إدخال تحسينات على القانون؛ حيث إنّه لا يشمل القطاعات سريعة النمو، مثل: الخدمات الرقمية والمالية.
- خروج البلدان من القانون، حيث سبق أن أعلن الرئيس الأمريكي «جو بايدن» عن نيته إنهاء مشاركة كل من الغابون، والنيجر، وأوغندا، وجمهورية إفريقيا الوسطى، بسبب انتهاكات حقوق الإنسان، وعدم الاستقرار السياسي، أو عدم مراعاة التحول نحو اقتصاد السوق، وجميعها شروط رئيسة لقانون «أجوا»، للاستفادة من المزايا التي يتيحها. ومثال على ذلك، أن إثيوبيا في السابق كانت واحدة من أكبر المستفيدين من قانون النمو والفرص في إفريقيا، وبسبب الصراع في شمالي البلاد منذ عام ٢٠٢٢م، فقدت البلاد معها أكثر من مائة ألف وظيفة، ولا يزال القتال مستمرًّا. ويقول الخبراء: إن عمليات الطرد هذه قد تدفع الدول إلى تعزيز علاقاتها التجارية مع القوى الأخرى؛ وعلى سبيل المثال: جادل بعض قادة الأعمال الإثيوبيين، لصالح الاقتراب من الصين، بالنظر إلى نهج بكين غير المرتبط بالاستثمار.[٢٣]
- لم يسهم القانون في الحد من علاقات الدول الإفريقية، بغير حلفاء الولايات المتحدة الأمريكية؛ حيث ارتفعت التجارة بين الصين وإفريقيا منذ عام ٢٠٠٠م، تجاوزت الصين الولايات المتحدة كأكبر شريك تجاري منفرد في عام ٢٠٠٩م، ووصلت التجارة الصينية مع المنطقة إلى أعلى مستوى لها على الإطلاق، حيث تجاوزت ٢٨٠ مليار دولار في عام٢٠٢٣م، كما هو موضّح في الشكل رقم (١)، في حين أنه في العام ذاته، بلغت التجارة البينية بين الولايات المتحدة وإفريقيا ٦٧,٥ مليار دولار. وعبر السنوات الماضية، كانت الصين تتفوق على الولايات المتحدة في تجارتها مع إفريقيا.[٢٤] وتحتفظ الصين بمناطق تعاون تجارية واقتصادية خاصة، في العديد من بلدان جنوب الصحراء الكبرى، وقد قدّمت أكثر من ١٥٠ مليار دولار في هيئة قروض تنمية للقارة منذ عام ٢٠٠٠م. وبالإضافة إلى ذلك، فإن جميع بلدان جنوب الصحراء الكبرى، باستثناء عدد قليل منها، تشكّل جزءًا من مبادرة الحزام والطريق الصينية.

شكل رقم (١) تطور تجارة الصين مع إفريقيا خلال الفترة (٢٠٠٥-٢٠٢٣م)

(مليار دولار أمريكي)

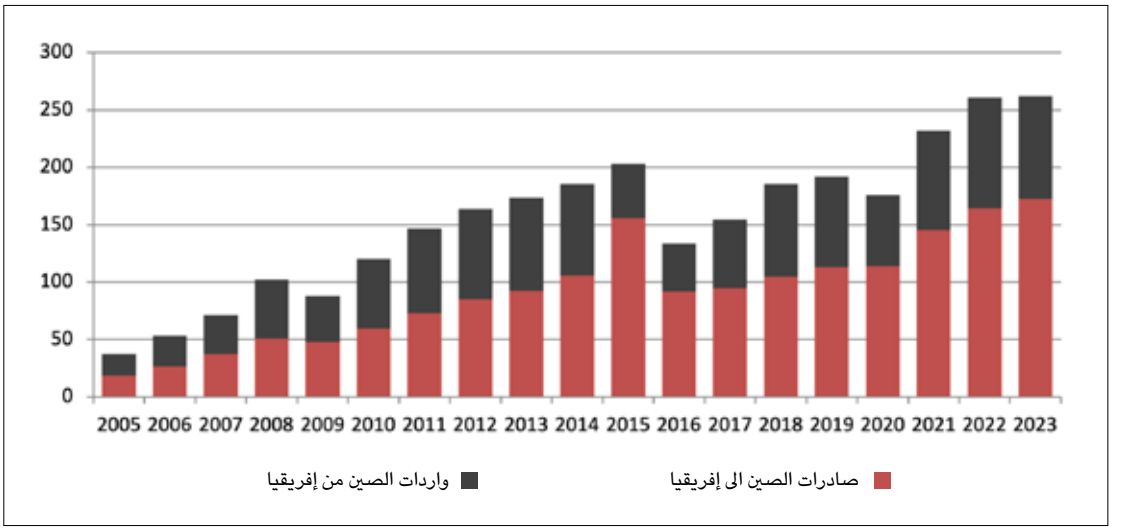

Source: "UN Comtrade," *UN Comtrade Database*, February 20, 2025, https://comtradeplus.un.org/.
China Africa Research Initiative, "China-Africa Bilateral Trade Data Overview," September 2024, https://www.sais-cari.org/data-china-africa-trade

وتتمثّل خسائر احتمال إلغاء قانون أجوا بالنسبة لجنوب إفريقيا، في كونها قد تخسر اتفاقًا مهمًّا، قد قام بنقل التكنولوجيا بين البلدين، في مجموعة من المجالات، بما في ذلك، على سبيل المثال لا الحصر: التعافي الاقتصادي، والعلوم، والابتكار، والتعليم، والزراعة، والقطاع العسكري، والصحة، من خلال التدريب والتمويل، والبحث والابتكار، بين الحكومات والمؤسسات والقطاعات الخاصة.(٢٥) وكذلك فإن تجارتها مع الولايات المتحدة، قد تواجه نقطة تحول كبرى، حيث تعتمد الولايات المتحدة على جنوب إفريقيا، للحصول على مجموعة من المعادن المهمة، ففي عام ٢٠٢١م، استوردت الولايات المتحدة ما يقرب من ١٠٠٪ من احتياجاتها من الكروم، من جنوب إفريقيا، بالإضافة إلى أكثر من ٢٥٪ من احتياجاتها من المنجنيز، والتيتانيوم، والبلاتين. ووفقًا لمعهد بروكينجز، فإن هناك جدلًا في الولايات المتحدة، حول ما إذا كان ينبغي استبعاد جنوب إفريقيا من تجديد قانون النمو والفرص في إفريقيا، في عام ٢٠٢٥م، وذلك إمّا لأسباب سياسية، أو بسبب وضعها كدولة من الطبقة المتوسطة العليا. وأيًّا كانت النتيجة، فإن بيانات معهد بروكينجز، تظهر أن الاستبعاد من قانون النمو والفرص في إفريقيا، من شأنه أن يؤدي إلى ارتفاع الرسوم الجمركية اسميًّا، على صادرات جنوب إفريقيا إلى الولايات المتحدة، وانكماش الناتج المحلي الإجمالي

بنسبة ٠,٠٦٪ فقط. وستشهد خسارة كل من قانون النمو والفرص في إفريقيا، ونافذة نظام الأفضليات المعمم انخفاضًا أعلى في الناتج المحلي الإجمالي بنسبة ٠,١١٪ وعلى المستوى القطاعي. كما ستتضرر الزراعة بشدة، خاصة في صناعات الحمضيات والنبيذ؛ إذ يعتمد المزارعون في جنوب إفريقيا على الوصول إلى السوق الأمريكية، بدون رسوم جمركية، للحفاظ على الربحية.

وإذا تم فرض حواجز تجارية جديدة، فقد يؤدي ذلك إلى تقليل الطلب على منتجات جنوب إفريقيا، ممّا قد يؤدي إلى تأثيرات مضاعفة في قطاع الزراعة؛ حيث يعتمد آلاف العمال على الصادرات الموسمية. وعلى نحو مماثل، فقد يواجه قطاع التعدين في جنوب إفريقيا، الذي يزود الولايات المتحدة بالمعادن الأساسية اللازمة لصناعة الصلب، وإنتاج البطاريات، وتصنيع الإلكترونيات، انخفاض الطلبيات، وانخفاض القدرة التنافسية العالمية.

وستكون هناك درجة أعلى من الانخفاض، بالنسبة لمنتجات صادرات الأغذية والمشروبات، والتي من المرجح أن تنخفض بنسبة ١٦٪، والنقل والمعدات بنسبة ١٣٪، وسيكون الانخفاض ١٨٪ و١٤٪ على التوالي، إذا أُخِذَ نظام الأفضليات المعمم في الحُسبان. ومع ذلك، فإن فقدان جميع الوصول التفضيلي إلى سوق الولايات المتحدة يشهد أيضًا انخفاضًا كبيرًا في صادرات جنوب إفريقيا من الحبوب والمحاصيل (١٠٪)، والفواكه والخضروات (٤,٥٪)، والمنسوجات والجلود والملابس (١١٪)، والكيماويات (١٣٪)، والمعادن الأخرى (٦,٥٪).[٢٦] ووفقًا لبحث أجرته شركة «كابيتال إيكونوميكس»، أكّدت فيه أن ٥٦٪ من صادرات قطاع السيارات في جنوب إفريقيا مؤهلة لقانون أجوا، وأن إلغاءه أو استبعاد جنوب إفريقيا منه سيضرّ ضررًا كبيرًا بصناعة السيارات والمركبات هناك.[٢٧]

يضاف إلى ذلك خسائر اقتصادية على المستوى الإفريقي ككل؛ ففي عام ٢٠٢٣م، بلغت التجارة البينية بين الولايات المتحدة وإفريقيا ٦٧,٥ مليار دولار، وبلغ متوسط الواردات غير النفطية، بموجب قانون النمو والفرص في إفريقيا ٤,٣ مليارات دولار، بين عامي ٢٠١٨ و٢٠٢٢م، وهو ما يزيد قليلًا على عُشر إجمالي واردات الولايات المتحدة من المنطقة.[٢٨] يضاف إلى ذلك كون جنوب إفريقيا تمتلك شبكة سكك حديدية معقدة، يبلغ طولها حوالي ٣١٠٠٠ كيلومتر، و(٢٠٩٠٠ كيلومتر)، يتم من خلالها نقل السلع، وبدونها تصبح حركة السلع والخدمات في منطقة الجماعة الإنمائية للجنوب الإفريقي (السادك) صعبة؛ حيث تمثل البنية التحتية للسكك الحديدية حوالي ٨٠٪ من إجمالي إفريقيا، ممّا يدلّ مرّة أخرى على مكانة البلاد كلاعب رئيس، في تسهيل التجارة والاستثمار في الجنوب الإفريقي.

- انقطاع التمويل والمساعدات الأمريكية: يأتي قرار قطع الأموال الأمريكية عن جنوب إفريقيا، بعد أسبوع واحد فقط من إعلان ترامب تجميد جميع المساعدات الخارجية. وهذا أمر لا يستهان به،

خاصة إذا أخذنا في الحُسبان، أن العديد من المنظمات غير الحكومية في جنوب إفريقيا تعتمد على الجهات المانحة الدولية، والتي كانت الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية دائمًا لاعبًا رئيسًا فيها. وكانت جنوب إفريقيا قد اعتمدت اعتمادًا كبيرًا على هذا الدعم التمويلي منذ عقود. ووفقًا للوكالة الأمريكية للتنمية الدولية، تلقّت جنوب إفريقيا ٤٤٠ مليون دولار (٨,٢٢٥ مليار راند) كمساعدات في عام٢٠٢٣م، ونحو ٣٢٣ مليون دولار (٦,٠٤٧ مليار راند) في عام ٢٠٢٤م. وكان أهم وأكبر المستفيدين من هذا التمويل (٢٢٠ مليون دولار في عام ٢٠٢٣م)، هي خطة الرئيس الطارئة للإغاثة من الإيدز The President's Emergency Plan for AIDS Relief (PEPFAR)،[٢٩] والتي تم الموافقة عليها لأول مرة في عام ٢٠٠٣م، وتمثّل نحو ١٧٪ من برنامج مكافحة فيروس نقص المناعة البشرية/ الإيدز في البلاد. وهو أيضًا أحد أكثر البرامج التي نفّذتها الولايات المتحدة تأثيرًا على الإطلاق، وتعزّز هذه المساعدة استجابة جنوب إفريقيا لوباء فيروس نقص المناعة البشرية/ الإيدز، وتساعد على ضمان أن يعيش جميع سكان جنوب إفريقيا حياة أطول وأكثر صحة، كما يوفر الأدوية المنقذة للحياة لأكثر من ٢٥ مليون إفريقي.(٣٠) وقد أسهمت استثمارات خطة بيبفار في تعزيز الأمن الصحي، من خلال دعم الموارد البشرية الصحية، وكذلك بناء القدرات السريرية لدعم الاستجابة لكوفيد-١٩.

كما تعمل برامج الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية على تعزيز المؤسسات الصغيرة والمتوسطة الحجم، وخلق فرص العمل، وتحسين التدريب والمهارات الوظيفية، وتعزيز التعليم الأساسي، ومكافحة العنف القائم على النوع الاجتماعي. وطوال فترة تفشّي جائحة كوفيد-١٩، قدّمت الولايات المتحدة ما يقرب من ٧٥ مليون دولار من المساعدات المتعلقة بكوفيد-١٩ إلى جنوب إفريقيا، وقدَّمت ما يقرب من ٨ ملايين جرعة لقاح.[٣١] وإذا تم قطع هذا التمويل، فإن برامج الصحة العامة - وخاصة في المجتمعات الريفية والمحرومة - سوف تواجه تحدّيات خطيرة، وقد يؤدّي انخفاض التمويل إلى الحد من إمكانية الوصول إلى الأدوية، وتعطيل مراكز العلاج، وتقويض أنظمة دعم الرعاية الصحية، التي يعتمد عليها الملايين. كما تجدر الإشارة إلى أنه في عام ٢٠٢٤م استثمرت برامج الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية (USAID) ما يقرب من ٦٠ مليون دولار أمريكي، في مبادرات لمعالجة تغيّر المناخ، وتعزيز المساواة بين الجنسين، ودعم منع العنف المجتمعي، ودعم المبادئ الديمقراطية.[٣٢]

كما يؤثر ذلك في القارة الإفريقية كلها؛ فوفقًا لبيانات الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية، ووزارة الخارجية الأمريكية لعام ٢٠٢٢م، تلقّت كلّ دولة إفريقية شكلًا من أشكال المساعدات الأمريكية، تُراوح بين ١٢٥ مليون دولار أمريكي و٥٠٠ مليون دولار أمريكي. هذا بالإضافة إلى ما يقرب من ٨

مليارات دولار من المساعدات التنموية، التي تحصل عليها إفريقيا من قبل وزارة الخارجية الأمريكية، والوكالة الأمريكية للتنمية الدولية (USAID) بين السنة المالية ٢٠١٢م، والسنة المالية ٢٠٢٢م.[٣٣] ومن شأن الانسحاب الكلي أو الجزئي، أن يعيق التقدّم الاقتصادي والمجتمعي، ويؤدي إلى تفاقم الفقر، ممّا يؤدي إلى تفاقم الأزمات الإنسانية، وخاصة في الدول التي تواجه تحديات أمنية متصاعدة. ففي عام ٢٠٢٤م، شكّلت البرامج الداعمة للديمقراطية، وحقوق الإنسان، والحوكمة، والأمن، ١٠٪ من حزمة المساعدات الإفريقية المقترحة، من الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية، بقيمة ٨ مليارات دولار. وكان المتلقون الرئيسون للمساعدات الأمريكية غير الإنسانية، هم نيجيريا (٦٢٢ مليون دولار أمريكي)، وموزمبيق (٥٦٤ مليون دولار أمريكي)، وتنزانيا (٥٦٠ مليون دولار أمريكي)، وأوغندا (٥٥٩ مليون دولار أمريكي)، وكينيا (٥١٢ مليون دولار أمريكي). وهذا الانسحاب التمويلي من إفريقيا، قد يسمح بزيادة خطر تزايد انتهاكات حقوق الإنسان، وتضاؤل ثقة الجمهور في حكوماتهم، ممّا يجعل البلدان عرضة لمزيد من التطرف العنيف؛ فغالبًا ما تستغلّ الجماعات الإرهابية المستويات المنخفضة من ثقة المواطنين، وانتهاكات قوات الأمن، والفقر الكامن، والإقصاء، كأدوات أساسية للتجنيد. والعواقب المحتملة لذلك مثيرة للقلق، وخاصة في دول غرب إفريقيا، والصومال، وموزمبيق، حيث تنتشر الجماعات المتطرفة العنيفة على نطاق واسع.[٣٤]

التأثير على الأداء الاقتصادي الكلي لجنوب إفريقيا: سرعان ما أثّرت قرارات الرئيس «ترامب» سلبًا على مؤشرات الاقتصاد الكلي في جنوب إفريقيا؛ حيث تم تداول الـ (راند) عند ١٨,٨٤٥٠ مقابل الدولار الأمريكي، أي أضعف بنسبة ٠,٧٪ من مستوى إغلاقه، قبل هذه القرارات الأمريكية. كما تأثّرت بورصة جوهانسبرج، من خلال انخفاض مؤشر «أفضل ٤٠ شركة» بنسبة ٠,٥٪، في حين انخفض سعر السندات الحكومية القياسية لعام ٢٠٣٠م، وارتفعت تكلفة التأمين على ديون جنوب إفريقيا ضد التخلف عن السداد إلى أعلى مستوياتها، منذ أوائل أغسطس.[٣٥] ومن شأن العملة الأضعف، أن تؤدي إلى ارتفاع تكاليف الواردات، والوقود، والسلع الأساسية، ممّا يزيد من الضغوط على الأسر في جنوب إفريقيا، التي تكافح بالفعل من أجل الحد من ارتفاع التضخم. يضاف إلى ذلك احتمال تأثر مبادرة «ازدهار إفريقيا»، التي سبق وتم إطلاقها في عهد فترة «ترامب» الأولى عام ٢٠١٨م، وهي مبادرة حكومية أمريكية، تهدف إلى تعزيز التجارة والاستثمار بين الولايات المتحدة، والدول الإفريقية. والتوترات القائمة بين البلدين قد تؤثر على التعاون الاقتصادي والتجاري؛ وبالتالي على فاعلية مبادرة «ازدهار إفريقيا» في جنوب إفريقيا.[٣٦]

خامسًا- السيناريوهات المتوقعة لطبيعة العلاقة بين جنوب إفريقيا والولايات المتحدة في عهد ترامب

السيناريو الأول- استمرار الصدام: من المحتمل أن يستمر الصدام بين جنوب إفريقيا والرئيس الأمريكي دونالد ترامب، وخاصة إذا استمرّت الحكومة الجنوب إفريقية في تنفيذ قانون ملكية الأراضي الزراعية، ممّا قد يؤدّي إلى مزيد من الضغوط والعقوبات الأمريكية، ويزيد من التوتر بين البلدين .يضاف إلى ذلك أنه في حالة عودة إطلاق النار والحرب في غزة بأمر من ترامب، فمن شأن ذلك أن يصعّد من جديد مواقف جنوب إفريقيا في هذا الملف؛ وبالتالي الاصطدام مع ترامب. يضاف إلى ذلك أن هناك احتمالًا أن تسعى جنوب إفريقيا إلى تعزيز علاقاتها مع الصين وروسيا كبديل، ومع كون الإستراتيجية الأمريكية لا هوادة فيها في نظرتها للصين وروسيا، باعتبارهما تهديدين نظاميين، فقد يزيد ذلك من حدة التوتر مع جنوب إفريقيا.

السيناريو الثاني- احتواء التوتر: وهو السيناريو القائم على فكرة أن المصالح المشتركة بين البلدين ستكون دافعة نحو حالة من التوافق؛ نظرًا لأن العلاقة بين جنوب إفريقيا والولايات المتحدة الأمريكية لا تعتمد على المساعدات المالية الأمريكية من أجل البقاء فحسب، فإن العلاقات الاقتصادية الأوسع بين البلدين، أكثر أهمية بكثير من المساعدات المباشرة وحدها، وإذا ضعفت هذه العلاقات، فقد تمتد التأثيرات إلى قطاعات متعددة، ممّا قد يؤدي إلى فقدان الوظائف، وانخفاض الصادرات، وعدم الاستقرار المالي. ولم تكن فقط جنوب إفريقيا المتضرر الوحيد من قرارات الرئيس ترامب، بل يعتبر الاقتصاد الأمريكي أيضًا أحد أهم المتأثرين؛ نظرًا لاعتمادها على المعادن الجنوب إفريقية، التي تعتبر ضرورية لاقتصادها وأمنها القومي. ومن الممكن أن تؤثر الأزمات الاقتصادية الشاملة في جنوب إفريقيا، على قدرتها المستمرة في مجال التعدين، والقدرة على إنتاج السلع عالية المستوى، التي تحتاج إليها الولايات المتحدة، كما أن وقف التمويل والمساعدات الأمريكية لجنوب إفريقيا، من شأنه أن يجعل الولايات المتحدة تفقد أداة لا تقدر بثمن من أدوات القوة الناعمة، التي تستمر في إحداث فرق تحويلي في حياة الملايين من الناس في القارة،[٣٧] وهذا من شأنه أن يروض الإجراءات الأمريكية القاسية المحتملة ضد جنوب إفريقيا، في المستقبل القريب.

وعلى المستوى الكلي، فقد يؤدي الانسحاب من إفريقيا - أيضًا - إلى زيادة المخاطر الأمنية التي تواجه الولايات المتحدة؛ ممّا يخلق فراغًا، يمكن للمتمردين استغلاله، وتعريض سلامة الأميركيين في كل مكان للخطر. إن تداعيات تضاؤل الصحة العامة، والمساعدات الإنسانية لإفريقيا، من شأنها أن تغذي فكرة التخلي عنها، ويمكن أن تؤدي إلى مزيد من الضرر للعلاقات الدبلوماسية طويلة الأمد. وتتعارض العديد من هذه المخاطر مع المصالح الأمريكية، خاصة بالنظر إلى التهديد الإرهابي المستمر في الصومال، حيث تعمل حركة الشباب على تعزيز علاقاتها مع الحوثيين في اليمن. ويعتبر سحب دور الولايات المتحدة في إفريقيا،

من شأنه أن يوقف مبادرات التنمية الحيوية، ويؤدّي إلى تفاقم عدم الاستقرار والفقر، وتعطيل التحالفات الجيوسياسية. وهذا من شأنه أن يضعف قدرة الولايات المتحدة على تعزيز الديمقراطية وحقوق الإنسان، في حين يقوض نفوذها في إفريقيا، ومكانتها في جميع أنحاء العالم.[٣٨]

خاتمة

تشير الأوضاع القائمة بين جنوب إفريقيا والولايات المتحدة الأمريكية إلى أن العلاقات بين الجانبين قد توتّرت بشكل ملحوظ، رغم كون ترامب في بداية فترة رئاسته الثانية، ومع احتمالية أن يتّسم المشهد بالعديد من الأحداث، وخاصة في ظل اتجاه الأولى لتعزيز تقاربها مع روسيا والصين، ومحاولة الثانية المعاقبة على ذلك بطرق معظمها اقتصادية. ومن خلال العرض السابق، يمكن القول: إن قرارات ترامب ضد جنوب إفريقيا لم يكن مفادها فقط هو قانون الأراضي، بل هي تراكمات عديدة سابقة، حتى لحكم ترامب الثاني. وتتعدَّد الانعكاسات الاقتصادية السلبية لهذه التوترات بين البلدين، وإن كان أهمها احتمالية عدم تجديد قانون (أجوا)، أو تجديده مع استبعاد جنوب إفريقيا، مع العلم أن واشنطن تستخدم قانون النمو والفرص في إفريقيا، كأداة سياسية، وليس أداة اقتصادية، في حين أن العكس هو الصحيح بالنسبة لجنوب إفريقيا. ورغم أن جنوب إفريقيا لا تعتمد على المساعدات الأمريكية للبقاء على قيد الحياة، فإن اقتصادها متشابك بشكل عميق مع التجارة والاستثمارات الأميركية. إن فقدان القدرة على الوصول إلى قانون أجوا، أو مواجهة القيود التجارية، أو رؤية انخفاض في الاستثمار الأمريكي، يمكن أن يكون له عواقب بعيدة المدى. ومع استمرار التوترات، يواجه صناع السياسات الاقتصادية في جنوب إفريقيا عملية توازن صعبة، للحفاظ على الاستقلال الدبلوماسي، مع ضمان عدم تعريض الخلافات السياسية للنمو الاقتصادي، والاستثمار، والأمن الوظيفي، للخطر.

ومع ذلك، فإن المستقبل على المدى الطويل مليء بعدم اليقين، وسيعتمد على الإجراءات المحلية والدولية التي تتخذها جنوب إفريقيا. وفي الوقت نفسه، فلا بدّ أن تعي الولايات المتحدة، أن الانسحاب الجزئي أو الكلي من إفريقيا، من شأنه أن يخلق فراغًا كبيرًا، ممّا يسمح للقوى الأخرى مثل: الصين، وروسيا، بتوسيع نطاق نفوذها. وقد يؤدّي هذا إلى تقييد وصول الولايات المتحدة إلى الأسواق الناشئة، وضياع الفرص التجارية في منطقة تزخر بالإمكانات، ويعزز تطوير السياسات التي تتعارض مع مصالح الولايات المتحدة. وربما تكون انعكاسات سياسات ترامب على الولايات المتحدة نفسها، الدافع نحو تبنّي سيناريوهات توافقية مع جنوب إفريقيا. وفي جميع الأحوال، تحتاج جنوب إفريقيا إلى توسيع شراكاتها الاقتصادية، لتقليل الاعتماد على أي دولة منفردة، ومن الممكن أن يساعد تعزيز العلاقات مع الأسواق الأوروبية، والصينية، والإفريقية، إلى جانب الإصلاحات الاقتصادية المحلية، في جذب مستثمرين بديلين، وخلق استقرار طويل الأمد.

الهوامش والإحالات

(1) Idrees Ali and Daphne Psaledakis, "Trump to cut off funding for South Africa over expropriation act," *Reuters*, February 3, 2025, https://www.reuters.com/world/africa/trump-cut-off-all-future-funding-south-africa-2025-02-02/.

(2) US.Department of State BUREAU OF AFRICAN AFFAIRS, *U.S. Relations With South Africa: Bilateral Relations Fact Sheet* (Washington, DC: US.Department of State, 2022), https://www.state.gov/u-s-relations-with-south-africa/.

(3) The Office of the United States Trade Representative (USTR), *South Africa* (Washington, DC: USTR, 2024), https://ustr.gov/countries-regions/africa/southern-africa/south-africa.

(4) Trading Economics, *United States Exports to South Africa* (New York City, NY: Trading Economics, 2024), https://tradingeconomics.com/united-states/exports/south-africa.

(5) Lyndall Singh, "Trade between US and South Africa is mutually beneficial if it doesn't compromise SA's sovereignty," *The Mail & Guardian*, September 3, 2023, https://mg.co.za/thought-leader/2023-09-03-trade-between-us-and-south-africa-is-mutually-beneficial-if-it-doesnt-compromise-sas-sovereignty/.

(6) Embassy of the Republic of South Africa, *South Africa- United States relations* (Washington, DC: Embassy of South Africa, 2024), https://www.saembassy.org/invest/.

(7) Scott Firsing, "US-South Africa Relations Are Strained, But Metals and Minerals Might Be a Soothing Balm," *Institute for Global Dialogue*, September 30, 2024, https://igd.org.za/2024/09/30/us-south-africa-relations-are-strained-but-metals-and-minerals-might-be-a-soothing-balm/.

(8) US. Department of State BUREAU OF AFRICAN AFFAIRS, U.S. Relations With South Africa.

(9) The Office of the United States Trade Representative (USTR), South Africa.

(10) Embassy of the Republic of South Africa, South Africa- United States relations.
- Firsing, "US-South Africa Relations Are Strained, But Metals and Minerals Might Be a Soothing Balm".

(11) Bhargav Acharya and Alexander Winning, "Trump attack on South Africa exposes divisions over race and land," *Reuters*, February 3, 2025, https://www.reuters.com/world/africa/south-africas-ramaphosa-engage-trump-over-aid-suspension-2025-02-03/.

(12) Max Primorac, *Time to Cut U.S. Foreign Aid to South Africa* (Washington D.C, The Heritage Foundation, 2024), https://www.heritage.org/global-politics/report/time-cut-us-foreign-aid-south-africa.

(13) Kobi Johnsson, "Introduction to US Relations With South Africa," *The Alliance for Civic Engagement*, August 17, 2023, https://ace-usa.org/blog/research/research-foreignpolicy/intro-to-us-south-african-relations/.

(١٤) «خيارات صعبة: حدود التوتر الراهن في العلاقات بين جنوب إفريقيا والولايات المتحدة،» مركز المستقبل للأبحاث والدراسات المتقدمة، (١٩، مايو، ٢٠٢٣م)،
https://futureuae.com/o.tar/Mainpage/Item/8235/خيارات-صعبة-حدود-التوتر-الراهن-في-العلاقات-بين-.

(15) Priyal Singh, "Breaking down the BRIC wall between South Africa-US relations," *Institute for Security Studies*, March 6, 2023, https://issafrica.org/iss-today/breaking-down-the-bric-wall-between-south-africa-us-relations.

(16) U.S. Mission South Africa, ADDRESSING EGREGIOUS ACTIONS OF THE REPUBLIC OF SOUTH AFRICA (Pretoria: U S Embassy & Consulates In South Africa, 2025), https://za.usembassy.gov/addressing-egregious-actions-of-the-republic-of-south-africa/.

(17) Chad De Guzman, "Why Trump and South Africa Are at Odds," *TIME*, February 9, 2025, https://time.com/7213703/trump-south-africa-elon-musk-white-land-expropriation-act-explainer/.

(18) Gerald Imray, "How Trump's Pledge to Punish South Africa Reflects Musk's Criticism of His Homeland," *AP*, February 4, 2025, https://apnews.com/article/trump-elon-musk-south-africa-aid-freeze-69f81617f8aea157eac0cc021e1b1556.

(19) Ali and Psaledakis, “Trump to cut off funding for South Africa over expropriation act”.

(20) Rachel Savage, “Trump says he will cut off funding to South Africa over land ‘confiscations,” *The Guardian*, February 3, 2025, https://www.theguardian.com/us-news/2025/feb/03/donald-trump-cutting-funding-south-africa-land-confiscations-cyril-ramaphosa.

(21) Guzman, “Why Trump and South Africa Are at Odds”.

(22) Claire Klobucista and Mariel Ferragamo, “AGOA: The U.S.-Africa Trade Program,” *Council on Foreign Relation*, December 4, 2023, https://www.cfr.org/backgrounder/agoa-us-africa-trade-program.

(23) Ferial Haffajee and Peter Fabricius, “SA likely to secure trade status extension with US, say officials – but for how much longer?,” *Daily Maverick*, November 1, 2023, https://www.dailymaverick.co.za/article/2023-11-01-sa-likely-to-secure-trade-status-extension-with-us-say-officials-but-for-how-much-longer/.

(24) Witney Schneidman, “Congress, Africa and Trumb: What Does The Future Hold?,” *Brookings*, January 30, 2025, https://www.brookings.edu/articles/congress-africa-and-trump-what-does-the-future-hold/.

(25) Embassy of the Republic of South Africa, South Africa- United States relations.

(26) ERICK KABENDERA, “Harris or Trump? South Africa’s AGOA fate hangs in the balance,” *African Arguments*, November 5, 2024, https://africanarguments.org/2024/11/harris-or-trump-south-africas-agoa-fate-hangs-in-the-balance/.

(27) Bhargav Acharya and Alexander Winning, “Trump attack on South Africa exposes divisions over race and land,” *Reuters*, February 3, 2025, https://www.reuters.com/world/africa/south-africas-ramaphosa-engage-trump-over-aid-suspension-2025-02-03/.

(28) Schneidman, “Congress, Africa and Trumb: What Does the Future Hold?”.

(29) Dominic Niadoo, “How Would South Africa be Affected If The Us Cuts Trade Relations?,” *IOL*, February 4, 2025, https://www.iol.co.za/news/world/how-would-south-africa-be-affected-if-the-us-cuts-trade-relations-fef88466-8a1a-4b35-94f3-cd6217d6b7b9.

(30) Schneidman, “Congress, Africa and Trumb: What Does the Future Hold?”.

(31) US. Department of State BUREAU OF AFRICAN AFFAIRS, U.S. Relations With South Africa.

(32) Gerald Imray, “Trump plans to cut U.S. funding to South Africa over land law, punishing a Musk target,” *Los Angeles Times*, February 3, 2025, https://www.latimes.com/world-nation/story/2025-02-03/trump-plans-to-cut-us-funding-to-south-africa-over-land-law-musk-has-also-criticized-the-country.

(33) Schneidman, “Congress, Africa and Trumb: What Does the Future Hold?”.

(34) Kelly Stone, “Trump’s funding cuts will hurt South Africa and the region,” *The Institute for Security Studies*, February 6, 2025, https://issafrica.org/iss-today/trump-s-funding-cuts-will-hurt-south-africa-and-the-region.

- Basillioh Rukanga & Khanyisile Ngcobo, “Trump threatens to cut funding for South Africa over land policy,” *BBC* News, February 3, 2025, https://www.bbc.com/news/articles/cn01z1yy0jno.

- Anita Powell, “Trump takes aim at new South African land expropriation law,” *VOA News*, February 04, 2025, https://www.voanews.com/a/trump-takes-aim-at-new-south-african-land-expropriation-law/7963443.html.

(35) Tannur Anders, “South African markets slump after Trump suspends US aid,” *CNBC Africa*, February 3, 2025, https://www.cnbcafrica.com/2025/south-african-markets-slump-after-trump-suspends-us-aid/.

(36) Ronak Gopaldas and Priyal Singh, "The Trump threat: how worried should South Africa be?," *Institute for Security Studies*, January 20, 2025, https://issafrica.org/iss-today/the-trump-threat-how-worried-should-south-africa-be.

-Mvemba Dizolele, et al.,"Experts React: The Challenges and Opportunities for the Trump Administration in Africa," *Center for Strategic & International Studies*, January 13, 2025, https://www.csis.org/analysis/experts-react-challenges-and-opportunities-trump-administration-africa.

(37) Schneidman, "Congress, Africa and Trumb: What Does the Future Hold?".

(38) Stone, "Trump's funding cuts will hurt South Africa and the region".

- Anita Powell, "Trump takes aim at new South African land expropriation law," VOA News, February 04, 2025, https://www.voanews.com/a/trump-takes-aim-at-new-south-african-land-expropriation-law/7963443.html.

- Ronak Gopaldas and Priyal Singh, "The Trump threat: how worried should South Africa be?," *The Institute for Security Studies*, January 20, 2025, https://issafrica.org/iss-today/the-trump-threat-how-worried-should-south-africa-be.

تقارير

المستعربون في جمهورية غينيا وإشكالية الاندماج

د. كوناتي موسى عمر، باحث في تاريخ الأديان والحضارة الشرقية والإفريقية، جامعة الجنرال لانسانا كونتي بسونوفوتيا، كوناكري.

إنّ طبيعة الحياة الدينية، والنظرة الشعبية قد أسهم كلٌّ منهما - بحسب السياقات - في إيجاد تسمية ثقافية، غلبت على الذين يتعلّمون اللّغة العربية، ويتخصّصون في العلوم الدينية والأدبية، وهم المسمَّون في غينيا بـــ (المستعربين)، ويمثّلون علماء البلاد، وأئمّتها، ودعاتها، ويؤدّون للمجتمع وظائف دينية متنوعة.

وهم في الوقت نفسه، روّاد الثقافة الإسلامية، والمسؤولون عن التعليم الإسلامي في الجمهورية، والمؤسسون للمدارس الفرنسية العربية، التي يتعلم بها أبناء المسلمين وبناتهم.

والجدير بالقول: إن المستعربين الغينيين متميّزون عن غيرهم من المستعربين الآخرين في معظم البلدان الإفريقية، غير الناطقة بالعربية، وهذا التميز ملموس من عدّة نواح، ومنها: اعتراف الدولة بالمدارس الفرنسية العربية العاملة بالمنهج الحكومي الخاص بها، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، توظيفها إيّاهم في مختلف القطاعات العامة في الداخل، وكذلك في السفارات والقنصليات في الخارج. ومع ذلك، فإنّهم يعانون إشكالات، منها ذاتية وأخرى موضوعية، فأمّا الذاتية فمكمونة في عزوف بعض المدارس الفرنسية العربية عن المنهج الحكومي، الذي يلزم بتدريس اللغة الفرنسية إلى جانب اللغة العربية، وهذا العزوف يؤدّي إلى عدم الاعتراف، وإغلاق المؤسسة.

وأمّا الموضوعية فتكمن في عدم سماح الدولة لغير حملة الشهادة الثانوية الوطنية، من تلاميذ المدارس الفرنسية العربية، والتي تصدرها وزارة التعليم ما قبل التعليم الجامعي، بالمشاركة في امتحانات الوظيفة العمومية، وهذا من أكبر ما يمكن اعتباره إشكالية معيقة - أحيانًا - للاندماج. ولكن هذه الحالة خاصة بالمستعربين المخالفين للقانون الوزاري، وأمّا الملتزمون به فإنّ فرص الاندماج متاحة لهم.

ولهذا، فإنّ إشكالية الاندماج بالنسبة لمستعربي غينيا، إنما هي نسبية، وليست كلية، بدليل أنه خلال عام ٢٠٢٤م، شارك مستعربون ومستعربات من المجازين، وحملة شهادة الماجستير والدكتوراه، في مباريات التوظيف، إلى جانب المتفرنسين، فوفّق الكثير منهم للقبول، وهم اليوم يعملون في مختلف قطاعات الدولة. ولقد باشروا أعمالهم، ومن المتوقع أن يبدؤوا في تقاضي الرواتب، ابتداء من شهر فبراير عام ٢٠٢٥م. وهذا في غاية المساواة التوظيفية في الحقوق بين مختلف روّاد اللغات في غينيا، والتي تقوم بها حكومة غينيا، وفقها الله لما فيه صلاح البلاد والعباد، ويعكس فعلًا اهتمامها باللغة العربية وبروّادها. ومن هذا المنطلق، فإنّ اللّغة العربية تمثّل للمستعربين والمستعربات في غينيا هويّة دينية وثقافية، لأهمّيتها في ماضيهم، وحاضرهم، ومستقبلهم؛ فهي إذن قضية وجود وقيم.

وعليه، فإنّ تداعيات العولمة تقتضي أن يحافظوا على وجودهم وقيمهم وكيانهم كوحدة ثقافية، ضمن المكونات الثقافية الموجودة، وأن يعزِّزوا حضورهم بالجدارة والامتياز. ولتحقيق ذلك، فإنّهم مطالبون بالمشاركة في بناء الوطن، وخدمة الشعب، من خلال تفعيل أداء المدارس الفرنسية العربية، لتكون قوية في مناهجها ومواردها وبناها. ولضمان بقاء المؤسسة الفرنسية العربية واستمراريتها، فإنّه يجب العمل في إطار السياسة التعليمية المرسومة من الدولة، والتي توفّر فرص الاندماج الوظيفي للمخرجات، إنقاذًا لهم من البطالة. فلا بدّ إذن من البرهنة عمليًّا على جدوى الثقافة الإسلامية في الواقع، وحاجة المجتمع إليها.

وأودّ من خلال هذا المقال المتواضع إثارة اهتمام الفاعلين في قطاع التعليم العربي الإسلامي إلى قضية المنهج، وما يحظى به من الأهمية في أجندة الدولة، وما يترتّب على عدم الانصياع له، وعليه، فيجب تضافر الجهود للإصلاح والاستصلاح، بلوغًا -إن شاء الله- إلى الغاية المنشودة. وأنا على يقين -إن شاء الله- أن ذلك لن يكون مستحيلًا أبدًا، خصوصًا إذا رسمنا الخطة القويمة والهادفة، في إطار عمل جماعي هادف ومشترك، كوسيلة للتغيير، الذي يطمح إليه المستعربون، مصداقًا لقوله تعالى: (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم).[1] وللإحاطة بالموضوع، فإنّنا نمهّد بالآتي:

أولًا- أهداف المقال

يهدف هذا المقال إلى الآتي:

١- محاولة تبيان قضية المستعربين والمستعربات الغينيين، فيما يتعلّق بأنماط حياتهم الدينية، والثقافية، والمجتمعية، أو بالتحولات المرحلية التي اجتازوها، أو بالأسباب التي أكسبتهم هذه التسمية.

٢- إبراز التيسيرات التي تمنحها حكومات غينيا المتعاقبة للمسلمين عامة، وللمستعربين والمستعربات بخاصة، وهذا ممّا ميّزهم عن غيرهم.

٣- إبطال قول من يزعم أن الحكومة تعادي الإسلام؛ فهي ليست كذلك، وإنما تريد ترسيخ النظام، والحد من العشوائية المنهجية، التي لا تستجيب لمتطلبات الاندماج.

٤- التنبيه على أن إشكالية اندماج المستعربين والمستعربات بغينيا، هي إشكالية نسبية، وليست بكلية، لأن الحكومة قد وفّرت أكثر من فرصة، وفتحت أيضًا أكثر من نافذة، ويكفيها شاهدًا، استثمارها بالاستجابة للمتطلبات.

ثانيًا- المشكلة العلمية

الواقع، أن موضوع المستعربين والمستعربات يحتاج إلى بحث يبرز الحقائق الثقافية، والدينية، والمجتمعية، التي يعيشونها، بل ويكشف أيضًا عن التعاون الإيجابي، الذي يربطهم بحكوماتهم، ممّا يتمخض عنه اندماجهم في الوظيفة العمومية في مختلف القطاعات. فالوقوف على ذلك، وتسطيرها للرأي الإسلامي الداخلي والخارجي، مع تبيان المزايا والخصائص المتاحة لهم، بالإضافة إلى ما استطاعوا أن يحقّقوه من التحول المأمول، هو من البواعث العلمية على الكتابة في هذا المجال، توضيحًا للحقائق، وتبيانًا لها، حتى يسري بها النفع، ويدركها الوعي العام والخاص. وهذا في حد ذاته معدود مشكلة علمية معتبرة، للقيام بعمل كهذا لمعالجتها.

ثالثًا- دراسات سابقة

يشكّل اندماج المستعربين في البلدان غير الناطقة بالعربية إشكالية وظيفية مشتركة، تهمّ الفاعلين في هذا القطاع كافة. وتُنَظَّم اليوم المحاضرات، وتُقام الندوات في مختلف البلدان المعنية بالقضية، بما في ذلك جمهورية غينيا، وهذا ليس فقط لمجرد إثارة القضية، وإنما في محاولة لإيجاد الحلول المناسبة للإشكالية. وبخصوص الحالة الغينية، فإني لم أقف على دراسات تناولت موضوع المستعربين والمستعربات بغينيا، من حيث الإشكالية الوظيفية، في بحث علمي منشور، علمًا أن هناك بحوثًا كثيرة جدًّا حول اللغة العربية، وقضايا الدعوة والإسلام، وما شابه ذلك. وسأحاول هنا عرض معطيات علمية للغينيين ولغيرهم، ممّن لهم صلة ببعض محاور المقال. وأملي أن يجعل الله هذه المبادرة المتواضعة موفّقة موضوعًا، ومضمونًا، ونتائج، وينفع بها الناس، وفاقًا لقوله تعالى: (وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض)،[٢] وأذكر منها ما يأتي:

١- **المستعربون الأفارقة وجدلية العلاقة بالعربية:** مقال برفسور الخضر عبدالباقي محمد، منشور في دورية: قراءات إفريقية، الصادرة في ١٨- ديسمبر عام ٢٠٢٠م. وهو مقال جيّد، والفرق بينه وبين هذا المقال، هو أنّه عالج قضية المستعربين بوجه عام، وأمّا هذا المقال فقد ركّز على إشكالية اندماج المستعرب في غينيا فقط.

٢- **المستعربون الأفارقة وتحديات الهوية قراءة سوسيو ثقافي:** مقال برفسور الخضر عبدالباقي محمد، منشور في دورية: قراءات إفريقية ١ مارس ٢٠١٨م. وهذا أيضًا مقال جيّد. يشترك مع هذا المقال، في تناول قضية من قضايا المستعربين، ويختلف معه في تحديد الإشكالية. فقد ركّز هو على قضية الهوية، وعالج هذا المقال إشكالية الاندماج في غينيا فقط.

٣- **النظم التعليمية الوافدة في إفريقيا، قراءة للبديل المناسب:** للأستاذ الدكتور قطب مصطفى سانو، منشورات كتاب الأمة القطرية، العدد ٦٣- المحرم ١٤١٩هـ، قدّم الأستاذ الدكتور رؤيته فيما يتعلّق بإصلاح بنى التعليم الإسلامي في إفريقيا، وهي متصلة إلى حدّ ما بحلول الاندماج بشكل غير مباشر، وأمّا هذا المقال فقد تناول قضية الاندماج في غينيا فقط، وهذا هو وجه الاختلاف.

٤- **أزمة التعليم الإسلامي في إفريقيا بين الأمس واليوم، ومحاولة لإيجاد طرق لتطويره:** لكوني عبدالرحمن بن الحاج كونادي كوني، حقوق الطبع لاتحاد الطلبة والتلاميذ بجمهورية كوت ديفوار بالقاهرة عام ١٩٨٩م. ناقش فيه المؤلف الأزمة التي تواجه التعليم الإسلامي في إفريقيا، وأمّا هذا المقال فقد تطرّق لإشكالية الاندماج الوظيفي، والديني، والمجتمعي في غينيا فقط.

٥- **منهاج تعليم اللغة العربية والتربية الإسلامية بغينيا للمرحلة الابتدائية والإعدادية (دراسة تحليلية تقويمية):** وهي رسالة ماجستير للمرحوم عبدالله نبي كمارا، حضَّرها بتمويل المنظمة الإسلامية الإيسيسكو، وهي غير منشورة.

٦- **الإسلام والمسلمون في غينيا (الواقع والآفاق):** أطروحة الدكتوراه للدكتور كوناتي موسى عمر، ولقد تناولت الأطروحة مجمل المظاهر الدينية، والثقافية، والمجتمعية، للمسلمين بغينيا عمومًا، والعمل جارٍ في تنقيحها، قصد نشرها، وأسأل المولى التوفيق.

٧- **أزمة المستعربين في إفريقيا:** وهو بحث غير منشور، أُعِدَّ في المغرب عام ٢٠٠٦ م، والفرق بينه وبين هذا المقال، هو أنه عالج الأزمة بوجه عام، وأمّا هذا المقال فقد ركّز على إشكالية الاندماج في جمهورية غينيا.

٨- **بنات أفكاري:** للشيخ عبدالرحمن باه، ولقد ضمَّن الكتاب معلومات عامة، عن تطورات دينية في زمن الرئيس أحمد سيكو توري – رحمهما الله- وأوردته هنا، من أجل هذه المعلومات، ذات العلاقة بالأحداث الإسلامية في غينيا، ويعدّ من المستعربين الكتاب.

رابعًا- منهج الدراسة

وأمّا المنهج فقد اتّبعت المنهج التاريخي، لوصف القضايا القديمة للمستعربين، موظّفًا المنهج الوصفي في قضاياهم المعاصرة. وقد استشرت أهل العلم والمعرفة من الكوادر المستعربين الأكاديميين، من ذوي الخبرة

والتجربة، من باب الاستقصاء العلمي. وسأدرس الموضوع - إن شاء الله - من خلال مظاهر أعتبرها مهمّة في توضيح الصورة، وبلورة الأفكار، وتحديد الإطار، سائلًا المولى -تعالى- التوفيق، إنّه وليّ ذلك والهادي إلى الصواب، فهو الأعلم والأحكم.

خامسًا- هيكل المقال

لقد قسّمته بعد المقدمة ومحتوياتها إلى خمسة محاور رئيسة، مذيّلًا إيّاه بخاتمة تضمّنت أهم النتائج المتوصل إليها، ويتَّضح ذلك فيما يأتي:

المحور الأول - جغرافية مقتضبة عن جمهورية غينيا

تقع غينيا على الساحل الغربي لإفريقيا، بين دائرتي عرض ٧,٣٥ – ١٢,٣٠ شمالًا، وبين خطّي طول ١٥,٩٨شرقًا، فوق مساحة تقدر بحوالي ٢٤٥٨٥٧ كم^2، ويمتدّ ساحلها على المحيط الأطلسي نحو ٢٧٤كم، وتشترك في حدودها مع ست دول، وهي: ساحل العاج، ومالي، والسنغال، وغينيا بيساو، وسيراليون، وليبيريا. ويبلغ طول حدودها مع ساحل العاج ٥٦كم، ومع مالي٨٥٩كم، ومع السنغال ٢٧٨كم، ومع غينيا بيساو ٣٧٨كم، ويبلغ أطول الحدود بين غينيا وسيراليون ٦٦٨كم، في حين أن حدودها مع ليبيريا ٥٠٢كم. وتحتل في القارة الإفريقية موقعًا مميّزًا، خصوصًا فيما يتعلق بالثروة المائية، لهذا تسمى: خزينة مياه إفريقيا الغربية، لكون معظم الأنهار بإفريقيا الغربية تنبع منها، مثل: نهر النيجر ثالث أطول نهر في هذه القارة. وحسب المتخصصين، فإن طول هذا النهر يبلغ ٤٢٩٩ كم. و٥٥٠ كم منه يجري على أرض غينيا، ويعتبر جنوب مدينة فارانا الواقعة في ضاحية غينيا العليا منبعًا له، ومنه يتجه نحو الشمال الشرقي، مجتازًا جمهورية مالي، ليصل إلى الجهة الجنوبية الشرقية لكل من دولة النيجر، ونيجيريا الفيدرالية، وواصلًا إلى الخليج الغيني. وبالإضافة إلى هذا النهر الكبير، فإن غينيا تتوفّر على أنهار أخرى كثيرة، تنبع من مرتفعات فوتا جلون وأماكن أخرى عبر البلاد.[٣]

وتنقسم الجمهورية إداريًّا إلى أربع مناطق طبيعية، وتسمى في الفرنسية حسب اللغة الإدارية Qattre restions naturels، وتتوفر كل منها على خصائص طبيعية معينة، وتجسد جميعها مكوّنًا من مكونات الجمهورية، وتتمثّل فيما يأتي:

١- غينيا الساحلية:

وتشكّل كوناكري أهم مدنها، وهي في الوقت نفسه عاصمة الجمهورية، والمدينة الاقتصادية، وقطب الحياة السياسية، وتقع على جزيرة «تومبو» التاريخية، وهي من الدول الإفريقية التي خضعت للاستعمار

الفرنسي.[٤] وتقطن فيها مجموعات عرقية، ومنها: صوصو Sousou، وباغا Baga، ولاندوما Landouma، ونالو Nalou، ومغي فوري Miguiforé، ومن مدنها الكبرى بعد كوناكري: كنديان Kindia ، فركاريا Forékaria، بوكي Boké، بوفا Bofa [٥]

٢- غينيا العليا la Haute guinée:

هي منطقة سفانية، تبلغ مساحتها: ٩٩٤٣٢كم² متوسطة الارتفاع، ويوجد بها منحدرات منخفضة للغاية في بعض الأماكن. وتتميز بوحدة جغرافية، ومنطقة سافانية ممتازة، ومشهورة بجودة ذهبها وتضاريسها، ومن هناك، واتساع مجاريها المائية، ووفرة السهول الرسوبية، ويُراوح معدل هطول الأمطار فيها ما بين ١٦٠٠ ملم في الجنوب و١٢٠٠ ملم في الشمال. ويقطن بها مجموعات عرقية متصلة الأصول بـ»ماندن» وهي الآتية: جالونكا Diallonké، طارونكا Toronka، كورنكو Kouronko، وُلادلاكا Ouladaka، كيروانكا Kéreanika, Sarakoule، ليليه Lélé، واسلونكا Wasolonka [٦]. ومن أهم مدنها: كانكان Kankan، وسغيرن: Siguirn، وفارانا: Farana، وكوروسا Kouroussa، ودابولا Dabola.[٧]

٣- غينيا الوسطى Moyenne guinée

وتسمى أيضًا فوتا جلون Fouta Diallon ، وتقع في شمال غينيا وغرب السنغال، مساحتها: ٥٢٩٤٤ كم²، وهي أكثر المناطق جبالًا في الجمهورية، وتعدّ مرتفعات فوتا جلون من أعلى المرتفعات في غربي إفريقيا، وبها أيضًا قمم عالية، تعدّ من أعلى القمم، فالإقليم جغرافي مميز، ذو طبيعة جبلية، يمتاز بثروة مائية وفيرة ومهمة للجمهورية الغينية، والجبال الفوتاجلونية: مجموعة من الجبال التي ينبع منها نهر غامبيا والنيجر، وهما من أهم الأنهار في إفريقيا،[٨] وتسكنها سلالات عرقية كثيرة، من جالونكا Diallonké، وفولبى Foulbé، وكونياك Koniaké، وباجرانكا Badiaranka، وفولاكوندا Foulakounda، وسراكوله Sarkoulé، وتوكولور Toukoler [٩] وتعتبر مدينة لابى Labe ومامو Mamou، بتا Pita، دالابا Dalaba.[١٠]

٣- غينيا الغابية: La Guinée forstiere

تبلغ مساحة غينيا الغابية ٤٥٩٦٣ كم²، ويتميز الإقليم بموسم ممطر يُراوح بين سبعة أشهر وتسعة، ومتوسط هطول الأمطار السنوي حوالي: ٢٥٠٠ ملم تمكنها من الزراعة طوال السنة،[١١] وتسكن المنطقة مجموعات عرقية كثيرة، منها: غيريسي Guerz، وكيسي Kissi، وكونو Kono، وطوما Toma، ومانيان Manian، ومانوMano، وكونياكي Koniake [١٢] ومن المدن الغابية الكبرى: غيغيدو Gekedou، ماسنتا Macenta، كسدو Kissidougou، بيلا Beyla.

ومن الملاحظ أن الإسلام منتشر بشكل كبير بين سكان هذه المناطق الجغرافية المذكورة، وكذلك المدارس العربية الفرنسية. فالمناطق الثلاث: غينيا الساحلية، والعليا، والوسطى، من أكثرهن شعبية إسلامية، وتعدّ

من مساحات انتشار الإسلام في الجمهورية. وأمّا المنطقة الغابية فقد تأثر سكانها الأصليون بالتنصير إبان الاحتلال. ولكن بمساكنة المسلمين لهم، واختلاطهم بهم، انتشر الإسلام في مدنهم وقراهم، ودخل الكثير منهم في الإسلام. ومن نعم الله ونصره، أن المهتدين الجدد منهم ناشطون اليوم في دعوة قومهم إلى الإسلام، وقد أنشؤوا لهذا الغرض جمعية دعوية، تسمى: جمعية المهتدين الجدد، وبفضل الله -تعالى- ثمّ بسبب جهود الجمعيات الخيرية الدعوية، من البلدان العربية والإسلامية، فإن الإسلام يغطي اليوم مساحات الجمهورية بصفة عامة، والمناطق الغابية منها بصفة خاصة، ساطعًا في الآفاق، وأمّا البنى الإسلامية من مدارس ومساجد فمنتشرة كذلك في جميع الأرجاء، وترمز إلى الوجود الإسلامي في منطقة غابية، التي كانت بالأمس القريب عامرة بالأصنام من كل صنف، ومستهدفة بالتنصير الاحتلالي، فها هي اليوم بفضل الله الهادي تعجّ بمساجد تعلو مآذنها السطوح.[١٣]

المحور الثاني- المستعرب في المصطلح الغيني

يبدو أن مصطلح: المستعربين يحمل دلالات متنوعة، حسب ما اطّلعت عليه، ويختلف المعنى باختلاف المراد من الكلمة، والمجال المستخدم فيه. وبالنسبة لغينيا، فإن مصطلح المستعرب Arabophones لم يكن معروفًا سابقًا في الحياة الثقافية بغينيا، ولم يكن أيضًا يطلق على أي فئة في المجتمع. ولقد أسهمت عوامل دينية وثقافية، وكذلك تحوّلات سياقية في نشأة التسمية، ولن نستطيع إطلاقًا أن نفهمه، إلَّا بالعودة إلى أطوار ذات خلفية تاريخية مهمة في الموضوع، وهي متصلة بطبيعة الحياة الدينية للمجتمع الغيني، الذي يتكون من المسلمين، والنصارى، والوثنين، ولا دينين. فلكل مواطن الحق في اختيار الدين والثقافة التي يهوى، وتلك هي الرؤية الدينية التي يقررها الدستور الغيني. وقد ورد في أحد بنوده ما نصه:(إن غينيا لا تتجزأ علمانية، وديمقراطية، واجتماعية، وإنها تضمن المساواة أمام القانون لجميع المواطنين، دون تمييز في الأصل، والنسب، والسلالة، والعرق، والجنس، والديانة، والقطر، أو المعتقد السياسي، وأنها تحترم جميع المعتقدات).[١٤]

وهذا ما أجاز لكل طائفة أن تنشر الدين الذي تعتقده وتدين به، من خلال الخطط المرسومة، والوسائل المتاحة لها. وأمّا المسلمون فقد رأوا أن تعليم اللغة العربية وتعلمها هو أنسب وسيلة لفهم الدين فهمًا صحيحًا، ولأنّها لغة التنزيل، فحفزهم ذلك على العناية بها؛ فتعلموها، وعلموها أبناءهم وبناتهم منذ بلوغ سن التعلم، ونلمس عمق هذه العناية في عرض أطوار مهمة، لها علاقة وطيدة بظهور هذا المصطلح، الذي يرمز إلى كيان ثقافي يختص بفئة معينة. وتختلف تلكم الأطوار في صورها وفي أحداثها كافة، مع كون المسألة الدينية والثقافية قاسمًا مشتركًا بينها، وأوجزها فيما يأتي:

أولًا- طور الإمبراطوريات

قامت في غينيا في القرن الحادي عشر إمبراطوريتان: إحداهما تزعَّمها الإمام ساموري توري[١٥] الذي طال نضاله ضد فرنسا، الذي قارب ست عشرة سنة.[١٦] والثانية بقيادة الحاج عمر تال – رحمهما الله - وهما من أبرز الشخصيات الإسلامية في القرن المذكور. ولقد انتشر الإسلام والتعليم العتيق في عهدهما بشكل مقدر، وامتاز كل منهما بمزايا وخصائص دينية.

فلقد حظي الإسلام باهتمام ساموري، ومن مظاهر ذلك، أنه في عام ١٨٨٤م، سمّى نفسه إمامًا للمسلمين الخاضعين لسلطته. وفي هذا تقول الدكتورة إلهام محمد ذهني: كان الإمام ساموري توري قائدًا حربيًّا، وفاتحًا، وزعيمًا إسلاميًّا مجاهدًا، لقّب نفسه رسميًّا بأمير المؤمنين. وفي شهر يوليو من عام ١٨٨٤م، لم يتردد، بناء على ذلك، في إعلان حكومة دينية بين عامي ١٨٨٦و١٨٨٨م، وذلك تحت ضغط العلماء المسلمين بمدينة كانكان.[١٧] وأضافت أيضًا في سياق الكلام عن تقسيم دولة الإمام: وأمّا المرحلة الثانية فقد امتدت من عام ١٨٨٥ إلى عام ١٨٨٨م، واتسمت هذه المرحلة بالصبغة الدينية، وإعلان ساموري الجهاد لنشر الإسلام بين الوثنيين، وفتحه العديد من المدارس الإسلامية لتحفيظ القرآن، والتوسع في إنشاء المساجد.[١٨]

وأمّا الحاج عمر تال[١٩] فقد جمع بين النضال ضد المستعمرين والتعليم والتأليف، وكان له تلاميذ كُثر شكّلوا عصبة مقاومته، وألّف أيضًا كتبًا نفيسة يدعم فيها التصوّف التيجاني، الذي كان خليفته في غرب إفريقيا.[٢٠] والملاحظ أن هذا العصر لم يكن مستقرًّا لعامل المقاومة ضد الوجود الأجنبي، ومع ذلك فقد بذلا جهدًا مقدرًا في نشر الإسلام بين القبائل الوثنية، وتخصيب الأرضية للتعليم العتيق، الذي سيأخذ مسارًا آخر يومًا ما. وكان الفاعلون في مجال هذا النوع من التعليم يُسمّون: كرامو، أو كراموغو حسب اختلاف اللهجات، أي الشيخ.

ثانيًا- طور الاحتلال

صحيح أن فرنسا قد قضت على حركة المقاومة التي تزعمها المسلمون، ولكنها لم تستطع أن تقضي على روح الإسلام التي تأصلت في النفوس، وإنما قامت بتعميق هوة التنصير، من خلال بناء الكنائس في المدن والقرى،[٢١] ومع ذلك، فقد ظلّ المسلمون يمارسون التعليم العتيق، تحت رقابة إدارة الاحتلال، التي كانت تعطي التصاريح لهم، كما حصل للشيخ محمد فادقا مع المفوض الفرنسي الأعلى لمدينة «دكار»، وكان الأمر يتعلق بفتح مدرسة في كنديا، وفي رجب يونيو عام ١٩٤٨م، فتح أول مدرسة عربية في منطقة غينيا الساحلية، فظهرت مدارس كثيرة في كل من كانكان، عاصمة غينيا العليا، ولابى عاصمة غينيا الوسطى، وأنزريكوري عاصمة الغابية وهكذا. واشتهر الفاعلون في هذا العصر بمعلمي الصبيان المسلمين.

ثالثًا- من طور الاستقلال حتى اليوم

يعتبر هذا الطور من أزهى الأطوار، التي عرف فيها الإسلام واللغة العربية تحوّلات جذرية، ونقلة نوعية حقيقية في المشهد الديني والثقافي؛ إذ بعد الاستقلال بسنوات، تزايدت الكتاتيب في المدن والقرى من قبل الشيوخ، فعرفت إقبالًا سريعًا من لدن المسلمين، الذين بلغ مدى حبهم للغة العربية، إلى رفضهم تسجيل أبنائهم بالمدارس الفرنسية، باعتبارها لغة النصارى، وكاد ذلك يؤدي إلى العزوف عن المدارس الفرنسية التابعة للدولة. ولذا نجد أن ٩٠٪ من أبناء المسلمين بغينيا بدأوا مسيرتهم التعليمية بالكتاتيب، قبل أن يتحولوا عنها فيما بعد إلى المدارس الفرنسية. ومن النادر جدًّا أن نجد في غينيا طفلًا مسلمًا، لم يلتحق بكتاب في قريته أو في مدينته، وهذا ما يؤكده لنا أحيانًا بعض القادة السياسيين الكبار، الذين يعترفون بالتحاقهم بالكتاب في فترة من فترات حياتهم، ولكنهم تحولوا في النهاية عن المدارس العربية إلى المدارس الفرنسية لظرف أو لآخر.

ولقد كنت والكثيرون من أبناء المسلمين وبناتهم، ممّن استفادوا من دروس الكتاتيب في أواسط السبعينيات، على يد مشايخ اشتهروا بمثل هذه العلمية الدينية. وكان في كل إقليم شيوخ مخلصون، فتطوّرت الكتاتيب مع المدة إلى مجالس علمية، تشع علوم الدين واللغة العربية. وشكّل ذلك منطلقًا جديدًا سيغيّر المسار على المدى القريب والبعيد والمتوسط تغيّرًا إيجابيًّا، معطيًا نمطًا عمليًّا أوسع أفقًا، لما سمي فيما بعد بالمدارس الإسلامية، التي تأسّست في كل أرجاء الجمهورية، وهي مع افتقارها إلى البنى التعليمية الملائمة، إلَّا أنّها أعطت صورة جديدة للمسلمين.

ألفت التزايد انتباه الحكام، الذين يدين معظمهم دين الإسلام، فأصدرت حكومة الرئيس أحمد سيكو توري -رحمه الله- مرسومًا في عام ١٩٧٧م، قضى بإنشاء مفتشية خاصة باللغة العربية في الجمهورية سميت بـــــــ L'inspection de langue arabe، وبهذا أدمجت في نظام التعليم العام للدولة. وآخرَ في عام ١٩٧٨م، قضى بتحويل الكتاتيب والمجالس العلمية إلى رحاب المدارس الحكومية، التي كانت موجودة في كل منطقة.[٢٢]

ولكن التعليم الإسلامي تطوّر في عهد الجنرال - رحمه الله - أكثر من ذي قبل، إذ أنشأ المسلمون مزيدًا من المدارس الإسلامية، التي تحوّلت إلى الفرنسية العربية. ومن مظاهر النقلة النوعية، أنه في عام ١٩٩١م، تم تضمين منهجها المناهج الحكومية، التي تشرف عليها وزارة التعليم ما قبل الجامعي، وحظيت بمراجعات المعهد الوطني للأنشطة التربوية INRAP، وبدأ تلاميذ المدارس الإسلامية يدرسون تخصصات علمية، مثل: علوم اجتماعية، وتجريبية، ورياضيات مطبقة. وقد تم حصر هذه التخصصات اليوم في نوعين أساسين، هما: العلوم الأدبية والعلمية، وهذا ما سمح لهم بالمشاركة في الاختبارات الوطنية الموحدة (الابتدائية،

والإعدادية، والثانوية)، التي تنظم بإشراف الوزارة، التي تصدر الشهادات الموحدة، وصارت المدارس الإسلامية تسمى: نظام التعليم الغيني ما قبل الجامعي: المدارس الفرنسية العربية les ecoles franco arabe، وهذه المدارس على نوعين، نوع تابع للحكومة، وآخر أهلي، ويدرّسان وفق المنهج الحكومي، ويحظى التلاميذ المتميزون منهما بالمنح الدراسية إلى الخارج. فالتلاميذ الذين يدرسون بالمدارس العربية، سواء التابعة منها للحكومة أو الأهلية، والمدرسون العاملون في مجالها، يسمون من قبل الحكومة وعامة الناس: المستعربين، أي: «المتعلمون للغة العربية والثقافة الإسلامية»، ولا تحمل التسمية أي دلالة ازدرائية، فهذه من أسباب نشوء التسمية التي هي دينية، لارتباطها بتعليم الدين في أول الممارسة، وثقافية لارتباطها بالعلوم. فالمسلمون المتعلمون للغة العربية، والعاملون في قطاع التعليم الإسلامي، هم المسمَّون في غينيا: المستعربين، ولا يطلق على أحد سواهم، تمييزًا بينهم وبين المتفرنسين؛ فهؤلاء وأولئكم هم النخب الثقافية في غينيا، وبينهم تعايش ثقافي متبادل. فتلك هي الخطوط العريضة عن تلكم الأطوار، التي أسهمت في تكوين الفكرة، ونشوء المصطلح الذي صار شائعًا اليوم في غينيا.

وأشير إلى أن المصطلح، وإن كان يتّسم بالحداثة في الظهور والذيوع في الأوساط الأكاديمية، والمهنية، والشعبية، بغينيا، إلّا أنّه قديم في التاريخ الإسلامي لغينيا؛ فهو متجدر في أحداثه ومجرياته. وهناك مؤشرات تاريخية تؤكد ذلك،[٢٣] خصوصًا أن المسلمين بغينيا، قد انصهروا في الثقافة الإسلامية، التي تؤطر اليوم حياتهم في جميع النواحي، وهي ملموسة الآثار في آفاق البلاد.

المحور الثاني - مظهر الاندماج الديني

إن المستعربين الغينيين، باعتبارهم علماء وأئمة البلاد، يحظون بتقدير كبير من الدولة، ولا سيّما في المجال الديني، وتسميهم الدولة برجال الدين Les Religieux، ولقد نالوا شرفًا عظيمًا من فخامة رئيس الجمهورية الأولى أحمد سيكو توري[٢٤] الذي أنشأ بغينيا، وللمرة الأولى، مؤطرًا دينيًّا أسماه (المجلس الإسلامي)، وذلك في عام ١٩٧٦م، وعيّن الشيخ الحاج يوسف نبهاني شريف أمينًا عامًّا له في السنة نفسها، وخلفه في السنة ١٩٧٨م الشيخ الحاج فودى سوريبا كمارا، رحمهم الله جميعا. وكان من المهام الدينية المنوطة بالمجلس تنظيم رحلات الحج والعمرة إلى بيت الله العتيق، وكان له فروع في المحافظات والمقاطعات عبر الجمهورية.[٢٥] وتعكس مبادرة الإنشاء بصورة إيجابية عميقة مدى الاهتمام الكبير الذي أولاه بالإسلام، هذا من جهة، ومن جهة أخرى؛ ففيها التأكيد على أن المسلمين يشكلون من إجمالي السكان الغالبية العظمى، والحدث يميّز غينيا عن غيرها من البلدان الإفريقية غير العربية، في كثير من الجوانب ولله الحمد والمنة، ويعتبر تأصيلًا لسياسة دينية، ستعزز على المدى القريب والبعيد والمتوسط مكانة المسلمين في الجمهورية

بصفة عامة، والمستعربين والمستعربات بصفة خاصة، وستفتح لهم -بحول الله- آفاق الاندماج في أعلى المستويات.

وقد تحقّق ذلك فعلًا في ظلّ الاستمرارية التي هي سمة الحكومات، لأنه بعد وفاة الرئيس سيكو توري في ٢٦ مارس من عام ١٩٨٤م، في الولايات المتحدة، والتي على إثرها استولى العسكريون على السلطة في ٣ أبريل من عام ١٩٨٤م، بزعامة فخامة الرئيس الجنرال لَانْسَنَا كونتي[٢٦] -رحمه الله تعالى- فإنه أحيا مبادرة سلفه بتحويل المجلس الإسلامي، إلى الرابطة الإسلامية الوطنية La Ligue IslamiqueNationale، وظلّت تمارس المهام الإسلامية المنوطة بها سنوات، إلى أن حولها أيضًا إلى وزارة إسلامية أسماها: وزارة الرابطة الإسلامية الوطنية: Le Ministèr de la Ligue islamique nationale، وعيّن الأستاذ عبدالكريم جباتي خريج الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة في المملكة العربية السعودية وزيرًا لها، وكان قبل ذلك سفيرًا لغينيا لدى المملكة. إنها خطوة دينية مهمة لم تكن مسبوقة، وبها تميزت منظومة المستعربين في غينيا بهذه النقلة الدينية الفريدة، ولا أذكر دولة إفريقية محكومة بالعلمانية، قامت بمثل ما قامت به غينيا من تخصيص حقيبة وزارية بالمسلمين يقودها المستعربون، ويكون الأمين العام في رتبة وزير، ويشارك أيضًا في الاجتماعات الوزارية.

وفي أواخر عام ٢٠٠٧م، تم تغيير الوزارة إلى الأمانة العامة للشؤون الدينية Secretariat-general des affaires réligieuses. وبهذه الصيغة الجديدة، صارت الأمانة مسؤولة عن شؤون المسلمين والنصارى، الذين كانوا يشتكون من التهميش الديني؛ إذ صار لهم داخل الأمانة مكتب يدير الشؤون المسيحية، تحقيقًا للمساواة الدينية، ولا تزال الأمانة العامة تؤدي المهام الدينية إلى وقتنا الحاضر، وهي تضمن التعايش الديني السلمي بين المسلمين والنصارى، مع تولي المسلمين القيادة. ومن المفيد هنا عرض أسماء الأمناء العامين الذين تم تعيينهم من المستعربين برتبة وزير، ولقد درس كل منهم في بلد عربي ما، ويتّضح ذلك في الجدول الآتي رقم:[٢٧]

م	الاسم الكامل	تاريخ التعيين	فترات الحكم
١	المجلس الإسلامي الوطني: الأمين العام فضيلة الشيخ/ الإمام الحاج يوسف النبهاني شريف (رحمه الله)	١٩٧٦م – ١٩٧٧م	سنة واحدة (١)
٢	وزارة الشؤون الإسلامية: الوزير فضيلة الشيخ/ الحاج فودي سوريبا كمارا (رحمه الله)	١٩٧٨م - ١٩٨٤م	ست سنوات(٦)
٣	وزارة الشؤون الدينية: الوزير فضيلة الشيخ الإمام/ الحاج جونو عبد الرحمن باه (رحمه الله)	١٩٨٤م - ١٩٨٧م	ثلاث سنوات(٣)

م	الاسم الكامل	تاريخ التعيين	فترات الحكم
٤	الرابطة الإسلامية الوطنية: الأمين العام فضيلة الشيخ / أحمد تيجان تروالي (حفظه الله)	١٩٨٨م - ١٩٩٣م	خمس سنوات(٥)
٥	الرابطة الإسلامية الوطنية: الأمين العام فضيلة الشيخ/ محمد صالح سيلا (حفظه الله)	١٩٩٣م - ٢٠٠٠م	سبع سنوات (٧)
٦	الرابطة الإسلامية الوطنية: الأمين العام فضيلة الشيخ/ الحاج إبراهيم سوري فاديغا (رحمه الله)	٢٠٠٠م - ٢٠٠٤م	أربع سنوات (٤)
٧	الرابطة الإسلامية الوطنية: الوزير والأمين العام فضيلة الشيخ/ الأستاذ عبد الكريم جوباتي (حفظه الله)	٢٠٠٤م - ٢٠٠٦م	سنتان (٢)
٨	الرابطة الإسلامية الوطنية: الأمين العام فضيلة الشيخ/ الحاج إبراهيم سوري فاديغا (رحمه الله)	من مايو إلى أغسطس ٢٠٠٦م	أربعة أشهر
٩	الرابطة الإسلامية الوطنية: الأمين العام فضيلة الشيخ/ الإمام الأستاذ الحاج عبد العزيز سوما (رحمه الله)	٢٠٠٦م - ٢٠٠٧م	سنة واحدة (١)
١٠	الأمانة العامة للشؤون الدينية: الأمين العام فضيلة الشيخ/ الحاج محمود النبهاني شريف (حفظه الله)	٢٠٠٧م - ٢٠٠٨م	سنة واحدة (١)
١١	الأمانة العامة للشؤون الدينية: الأمين العام فضيلة الشيخ/ الأستاذ الدكتور قطب مصطفى سانو (حفظه الله)	٢٠٠٩م – ٢٠١١م	سنتان (٢)
١٢	الأمانة العامة للشؤون الدينية: الأمين العام فضيلة الشيخ/ الحاج عبد الله جاسي (حفظه الله)	٢٠١١م – ٢٠١٦م	خمس سنوات(٥)
١٣	الرابطة الإسلامية الوطنية: الوزير والأمين العام فضيلة الشيخ/ الأستاذ عبد الكريم جوباتي (حفظه الله)	٢٠١٦م - ٢٠١٧م	سنة واحدة (١)
١٤	الأمانة العامة للشؤون الدينية: الأمين العام فضيلة الشيخ/ الأستاذ علي جمال بنحورا (حفظه الله)	٢٠١٧م - ٢٠٢١م	أربع سنوات (٤)
١٥	الأمانة العامة للشؤون الدينية: الوزير والأمين العام فضيلة الشيخ/ الأستاذ كرمو جورا (حفظه الله)	من٥سبتمبر٢٠٢١ م حتى اليوم	

ويتكوّن مجلس الأمانة العامة للشؤون الدينية على النحو الآتي:

- الأمين العام
- نائب الأمين العام

- رئيس الديوان
- المستشارون
- الهيئات المساعدة
- الإدارات الوطنية
- الهيئات العامة
- الهيئات ذات الصلة
- هيئات غير مركزية
- الهيئات الاستشارية[٢٨]

والرابطة هي التي تشرف عبر مندوبياتها في المناطق الإدارية، أو في المحافظات والمقاطعات والبلديات، على مساجد البلاد وكنائسها، وعلى مستوى المسلمين، فهي التي تحضر افتتاح المساجد الجديدة، وتشهد مراسيم تنصيب الأئمة والمؤذنين والمستشارين الخاصين بالأئمة، وتتدخل لحل النزاعات البينية، كما أنها تتمتع بصلاحية العقوبة لأي انتهاك قانوني، وللأمين العام الصلاحية في تعيين أئمة المسجد المركزي لغينيا، مسجد الملك فيصل، وهو الباني، وبه سُمّي، ويدل بناؤه على تميّز العلاقات الثنائية بين جمهورية غينيا والمملكة العربية السعودية، في المجالات الدينية وغيرها.

المحور الثالث- مظهر الاندماج الاجتماعي

إن المجتمع الغيني بغالبيته الإسلامية محبٌّ للدِّين، ومحترم للعلماء الذين هم المستعربون، الذين تعلّموا اللغة العربية في مختلف البلدان العربية، وتخصّصوا في مجالات متنوّعة: دينية، واجتماعية، وثقافية، وتربوية، ويحظون بالاحترام لدى المجتمع فردًا وجماعة، وحتى لدى غير المسلمين أيضًا، ويؤدون كل ما يتعلق بالمسائل الاجتماعية لدى الأسر المسلمة، كقيامهم بمراسيم العقيقة، وحضور مراسيم الزواج، ومناسبات الجنائز. ولهذا يقدرهم المجتمع، ويصغي إلى نصائحهم الدينية وتوجيهاتهم الأخلاقية، ولهم تأثير كبير في المسلمين، الذين يعتبرونهم ورثة الأنبياء، مسترشدين بالحديث الذي رواه أبو الدرداء، رضي الله عنه وأرضاه: (إن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر).[٢٩]

وممّا يعكس أهميّتهم المجتمعية، أن الدولة تستعين بهم دائمًا فيما يتعلق بتمرير بعض القرارات، أو بحل نزاعات طائفية، أو توعية المجتمع ببعض المخاطر الصحية، كقضية الإيبولا، وكوفيد ١٩، وغيرهما من الأوبئة المهددة للصحة العمومية. فهم الذين يقومون بالتوعية من خلال الخطب المنبرية، وهم بمثابة

السواعد اليمنى للدولة في كل حين. ولا يتولى الحكم أي حاكم، إلا ويمنحهم التقدير اللائق، ويتودّد إليهم، ولا سيّما إذا تعلّق الأمر بالأصوات الانتخابية. وتشكّل فئة المستعربين في الحياة العامة والخاصة داخل المجتمع الغيني عنصرًا مهمًّا، وتكتسي الأهمية من الإسلام الذي يعتنقونه؛ فالمسلمون الغينيون يعتزون بدينهم، ويحترمون الفاعلين في مجالهم من علماء، ودعاة، وأئمة، باعتبارهم رموز الدين، معتبرين إياهم مبلغين عن الله، وأثرهم وتأثيرهم الروحي الأخلاقي ملموس في الأفراد والجماعة؛ إذ يتخذ الناس منهم أسوة للتأسي والاقتداء.

المحور الرابع- مظهر الاندماج الوظيفي

إن الدستور الغيني يساوي بين أبناء الوطن فيما يتعلّق مثلًا باحترام توجهاتهم العقدية، وميولاتهم الثقافية، فلا فضل لأحد على آخر في المواطنة والحقوق، وفي إطار ذلك، نلاحظ من خلال تاريخ الجمهورية، أن الدول الغينية المتعاقبة حرصت كلها على احترام هذا المبدأ، وكان من نتائج ذلك أن قرّرت تدريس اللغة العربية في المدارس الابتدائية، والمعاهد المتوسطة، والثانوية التابعة لها، معترفة في الآن ذاته بنظيراتها التابعة للمؤسسات التعليمية الأهلية، بل وسمحت في عام ١٩٩٩م بفتح شعبة في رحاب جامعة جمال عبدالناصر، المسماة باسم الرئيس المصري الراحل الذي تبرعت جمهورية مصر العربية تحت رئاسته ببناء حجرتين للشعبة. وترأس الشعبة آنذاك المدعو فتحي المصري، ولما افتتحت جامعة الجنرال لانسانا كونتي في حي سونفونيا، تحولت الشعبة فيما بعد إلى قسم اللغة والحضارة التابع لكلية الآداب والعلوم الإنسانية،[٣٠] إلى جانب كليات فرنسية أخر. وتطوّر القسم تطوّرًا سريعًا، نظرًا لتوافد المستعربين، الذين تخصّصوا في مجالات متنوعة، فتوافرت بذلك الموارد البشرية الكافية، التي بموجبها سمحت الدولة أيضًا بإنشاء برنامج الماجستير في اللغة والحضارة في عام ٢٠١٣-٢٠١٢م. وبعده تم افتتاح برنامج الدكتوراه في عام ٢٠١٧ - ٢٠١٨م، في رحاب الجامعة نفسها. ويعتبر هذا من النقلة النوعية في مسيرة اللغة العربية في بلد إفريقي غير ناطق بها.

وفي سياق ذلك، قرّرت الدولة عبر وزارة الشغل العمومية توظيف المستعربين المجازين من حاملي الشهادات العليا من ماستر ودكتوراه وسواهما، سواء الوافدون منهم من الجامعات العربية، أو ممّن تخرجوا من مؤسسات الدولة في مختلف القطاعات العامة؛ إذ لا نكاد نجد قطاعًا حكوميًّا في غينيا، إلَّا والمستعربون موظفون فيه، وحتى في سلك الجيش بمسمياته المختلفة، وكذا في البنك المركزي، والإذاعة الوطنية، ووزارة الكهرباء، وهلمّ جرًّا، فليس في المقدور تقديم إحصاء عن العدد الفعلي، لأنه ستطول القائمة لو ذكرنا جميع المستعربين المندمجين في الوظيفة العمومية. ولكن المجال الذي لهم فيه حضور كبير جدًّا، هو قطاع

التعليم بنوعيه: العالي، وما قبل الجامعي. ففي قسم اللغة والحضارة العربية وحده مثلًا، ما يقارب أربعين دكتورًا، ولا يوجد مثل هذا العدد في أي كلية أخرى بالجامعة، سوى القسم العربي. وهذا بالنسبة للمرحلة الجامعية، وأمّا مرحلة ما قبل الجامعي، فإنهم موجودون بكثرة في الابتدائيات، والإعداديات، والثانويات، التابعة للدولة.

المحور الخامس- نحو الاندماج المأمول

ما يجدر تبيانه هنا، هو أن إشكالية الاندماج بالنسبة للمستعربين بغينيا، هي نسبية إلى حدّ ما، ذلك أنهم لا يشعرون بأي تهديد خطير، لا من قبل عامة الناس، ولا من لدن السلطة السياسية؛ فلا يعانون مضايقات، وإنما يمارسون دينهم بكل حرية، وهم عاملون في كل القطاعات العامة والخاصة، متمتعون بمثل ما يتمتع به غيرهم من أهل الثقافات الأخرى.

بيد أن الطموح إلى مزيد من الاندماج، الذي يقود إلى قيادات أوسع أفقًا، ولا سيّما في ظل التنافس الثقافي، وبذلك نخلق التوازن في الحراك الثقافي، ونكون مؤثرين في أماكن صنع القرارات، وسنسهم - بإذن الله - في بناء الوطن من خلال تحقيق العدالة الاجتماعية، وتحسين الأخلاق المجتمعية بغرز الفضيلة، منطلقين طبعًا من روح الإسلام النبيلة، ومبادئه الكريمة، التي تصلح الفرد والمجتمع، والراعي والرعية، بالحكمة والموعظة الحسنة، بعيدًا عن الفظاظة والعنف. ولكن، ما لهذا أن يتحقّق، إلّا أن يراجع المستعربون المناهج التعليمية، المعمول بها في بعض المدارس الفرنسية العربية، والتي لا تضمن الاندماج، لكونها مناهج بعيدة عن متطلبات سوق العمل.[٣١]

ولحرص الدولة على مستقبل تلامذة هذه المدارس، فإن وزارة التعليم العالي والبحث العلمي والابتكار أصدرت تعليمات تدعو إلى ضرورة مراجعة منهج قسم اللغة والحضارة العربية بجامعة الجنرال لانسانا كونتي بأسلوب أعمق، حتى يتّسق مع متطلبات الاندماج الوظيفي، آخذين بالاعتبار تضمينه العلوم التجريبية، إلى جانب العلوم الشرعية، وهذا يؤكد نصيحة السفير السعودي السابق لدى غينيا، الدكتور حسين بن ناصر الدخيل الله،[٣٢] جزاه الله خيًرا، الذي ما فتئ يدعو المستعربين، أن يجعلوا من اللغة العربية لغة عمل في المجتمع، قاله في زيارة وفد جامعة الإعمار له. وهذه المبادرة الوزارية، قليلة النظير في البلدان الإفريقية التي تحكمها العلمانية، ونستلهم منها دلالات، تكمن في أن الدولة مطمئنة مع المستعربين، لما ينشرونه بين المجتمع، من مبادئ الإسلام المتسامح، بينما يتجسد البعض الآخر في حبها للتنوع الثقافي، وإدراكها أهميتها في تقدم الوطن. ولقد تم فعلًا تكوين لجنة مهنية بهذا الخصوص - وأنا عضو فيها - وأسأل الله التوفيق، وهذا يعكس اهتمام الحكومة الغينية بروّاد العلوم، دون أي اعتبار. ويترجم إرادتها في

تحقيق المساواة الثقافية، بل ويفتح الباب واسعًا للاندماج، وما علينا إلّا الانصهار في هذه السياسة المقدرة، والعمل بما يحقق الهدف، وينهض بمنظومة اللغة العربية، ويصحح المفاهيم حيالها، حتى تحظى بالثقة الثقافية بين نظيرتها الفرنسية المهيمنة، وهذا يضمن - بإذن الله - بقاء منظومات المستعربين، ويشجع على تعلم اللغة العربية.

خاتمة ونتائج

أختم هذا المقال بتسجيل نتائج توصّلت إليها، خلال هذه المسيرة العلمية المتواضعة، التي أسأل المولى -تعالى- أن ينفع بها الناس. وألخّصها في النقاط الآتية:

١- أن دارسي اللغة العربية الذين يسميهم المجتمع بالمستعربين، ليسوا مختلفين عن غيرهم من أهل الثقافات الأخرى كالمتفرنسين، فيما يخص الاندماج؛ فليس لهم إشكالية خاصة، وإنما هي مشتركة على وجه العموم؛ إذ يعاني الجميع الإشكالية من حيث ولوج سوق العمل، وهذا من القواسم المشتركة بينهم. وإن الطرفين يستفيدان من فرص العمل التي تتاح عبر الاختبارات الوطنية، غير أن فرص الاندماج تكون أوفر للمستعربين من غيرهم، لأنهم يؤدون إلى جانب الوظيفة العمومية، وظائف دينية ومجتمعية، لا يؤديها الآخر.

٢- أن اللغة العربية التي تعلّمها المستعربون معترفٌ بها لدى الدولة، وهي مدروسة في مدارس ابتدائية، وثانوية، وإعدادية، تابعة للدولة، وموجودة في مدن وقرى الجمهورية، تشرف عليها وزارة التعليم ما قبل الجامعي، والتي تقوم بمراجعات المناهج، وكذلك تعترف بتلك التي تملكها المؤسسات الأهلية، التي تدرس وفق مناهج الدولة الخاصة بالمدارس العربية الفرنسية. وكان من مقتضيات هذا الاعتراف، افتتاح قسم اللغة والحضارة العربية في الجامعة الحكومية، ويقوم بالتدريس به دكاترة مستعربون، وأن الدولة وفّرت المنح الدراسية لطلاب المدارس العربية الفرنسية للدراسة في الخارج. ولقد كنت وأصدقائي الدكاترة الموجودون بالقسم، ممّن استفادوا من هذه المنح الحكومية، عندما كنا طلابًا بالجامعات السعودية، وكذلك في أثناء التحاقنا بالماجستير وسلك الدكتوراه في المغرب. فالدولة بأنظمتها المتعاقبة مشكورة على ذلك، وإني لأسأل المولى أن يحفظ قادة البلاد ويجعل لهم بطانة صالحة.

٣- أن المستعربين الذين كانوا يدرسون في القسم، ولم يكن لديهم درجة الدكتوراه، فإن الدولة في إطار الخطة الوزارية التي كانت تهدف إلى الرفع من مستوى عموم الأساتذة، سواء المتفرنسين والمستعربين من مختلف موظفي الكليات، وتمكينهم من مواصلة الدكتوراه، والاستفادة من الدعم المالي المخصص بالبرنامج الجديد. وأمّا الإخوة المستعربون، الذين لم يكونوا من الموظفين، فقد حظي بعضهم بالدعم

المالي من مؤسسة وقف البنك الإسلامي بغينيا Waqf Bid، ولقد مكن المشروع من ترقية العديد من الفئتين: المتفرنسين والمستعربين على حد سواء، إلى درجة الدكتوراه، ويؤكد أن إشكالية اندماج المستعربين الغينيين، إنما هي نسبية إلى حد ما، وليست كلية، وذلك لمجموع القرائن التي أسلفت ذكرها، ضمن فقرات المقال.

٤- أن جمهورية غينيا، ممثّلة في حكوماتها المتعاقبة، فإنها على الرغم من كون شعبها غير ناطق باللغة العربية، تتجسد في مجال المساواة الثقافية، والاعتراف بالعلوم، دون أي اعتبارات تهميشية، وهي النموذج الأفضل، والمثال الحي، ضمن البلدان الإفريقية الأخرى؛ فلقد وفّرت للمستعربين الغينيين من القيم الوظيفية، والمزايا الثقافية، والمكانة الدينية، ما لا يحظى به غيرهم في مناطق إفريقية غير العربية، ومنها: الاعتراف باللغة العربية، والسماح بتدريسها في مؤسساتها التعليمية في مرحلتيها: ما قبل الجامعي والجامعي، وكذلك فتح البرامج العليا لها من الماجستير والدكتوراه، مع توفير المنح الدراسية لطلاب المدارس الفرنسية العربية، لمواصلة الدراسة في الخارج، وتوظيفهم أيضًا بعد المسيرة الأكاديمية، ودعمهم للارتقاء، وإنهم كذلك مستفيدون من المحفزات التي قرّرتها الدولة الحالية، بقيادة فخامة الرئيس «مامادي دنمبيا» جنرال الجيش -وفقه الله في مسيرته التنموية- لأساتذة الجامعات الحكومية، بل وتخصيص أمانة عامة للشؤون الدينية، يختار أمينها العام من المستعربين. إنّها خصائص كفيلة لإبراز مكانة المستعربين في البلاد، ولله الحمد والمنة، (وما بكم من نعمة فمن الله وإذا مسكم الضر فإليه تجأرون).[٣٣]

٥- أن للإسلام أثرًا وتأثيرًا في الحياة العامة والخاصة، بدليل أن التلفزة الوطنية للدولة، خصّصت للأمانة العامة للشؤون الدينية برنامجًا أسبوعيًّا للدعوة والإرشاد، ويسمى: «برنامج الله أكبر» ويبثّ في كل أسبوع مرّة، يستضاف فيه العلماء المستعربون، ومثل هذا البرنامج موجود لدى كثير من الإذاعات الأهلية، وهذا شرف كبير للإسلام والمسلمين.

وأخيرًا أقول إن هذه الرحلة العلمية القصيرة، قد فتحت لي أفقًا آخر، وشغفًا علميًّا متجدّدًا، سأستثمره -بإذن الله- للتوسع في الموضوع، والتعمق في بحثه، قصد ملامسة أغواره التي لا يتسع مجال لمقال لها، لكونه موضوعًا مهمًّا للغاية، وأسأل المولى التوفيق.

توصية

إن تلكم الخصائص والمزايا التي حظيت بها منظومة الثقافة الإسلامية لدى حكام البلاد، إنما يعود فضلها إلى الله الموفق، سبحانه وتعالى، الذي يسر لهم الأسباب، ثم إلى النهج الديني والثقافي القويم والهادف، الذي

يسيرون عليه في الوطن، ويوعون به المجتمع، ويتعاملون به مع سادة البلاد من الحكام، وشيوخ القبائل، وممثلي التنسيقيات بالجهويات. وكلها دروس وعبر، استفادوا فيها من النهج النبوي المنبثق عن قوله تعالى: (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة)،[٣٤] التي كانت سر نجاح محمد الموصوف بالرحمة العالمية، عليه وآله الصلاة والسلام: (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين).[٣٥]

ولهذا، فإني أوصيهم بالحفاظ على هذه الثقة الثقافية والدينية، التي يحظون بها من المواطنين كافة، ومن الحكام بخاصة، وضرورة ترسيخ ثقافة التعايش السلمي في البلاد، والبعد عن كل مظاهر العنف، وأن يتجاوزوا الخلافات الدينية، والاعتبارات العشائرية والإقليمية والمذهبية، المفرقة للقوة (وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين).[٣٦] وأن تلتزم المدارس الفرنسية العربية بالمنهج الحكومي الخاص بها، ليتمكن الشباب المسلمون الدارسون بها من إجادة اللغة الفرنسية، التي هي اللغة الإدارية، إلى جانب اللغة العربية. وبذلك سيتحقق الاندماج المأمول بإذن الله؛ إذ سيحتلون مناصب عليا ومهمة إلى جانب المتفرنسين، مشاركين في صنع القرارات (ويومئذ يفرح المؤمنون).[٣٧]

طالبًا أخيرًا من الإخوة العرب - ولله درهم- دعم قضية المستعربين عبر إفريقيا، بتوفير المنح الدراسية لهم، تمكينًا لمواصلة المسيرة الجامعية، وهذا من جهة، ومن جهة أخرى، إتاحة الفرصة لهم عبر المنابر الإعلامية، ولا سيّما المكتوبة منها، لنشر أفكارهم التي تعبّر عن قضاياهم الدينية والثقافية، وكذلك دعوتهم لحضور المؤتمرات والندوات، تعزيزًا لكفاءاتهم العلمية، والرفع من مستواهم الأكاديمي، من جهة ثالثة.

الهوامش والإحالات

(١) (الرعد: ١١)

(٢) (الرعد: ١٧)

(٣) جعفر جالو، «نبذة عن الثروات الطبيعية في غينيا والخطوط العريضة لتنمية الاقتصاد في جمهورية غينيا،» ٤، نقلاً عن عثمان حسن كانه، «واقع الدعوة الإسلامية في غينيا،» ١٨.

(٤) جمال حمدان، أفريقيا الجديدة، فصل العواصم الإفريقية، (القاهرة: دار النهضة، ١٩٧٩م)، ٦٩-١٠٨.

(5) Diallo Abdou Goudoussi et Bah Aminata, *Géographie de la Guinée et de l'Afrique* (Paris:L'Harmattan, 2010), 64.

(٦) كوناتي موسى عمر، «كرامو كانطو سليمان نموذجا للنبوغ الإفريقي .. مخترع حروف هجاء لغة "أنكو"،» قراءات إفريقية، (٧، مارس، ٢٠١٦م)، http://qiraatafrican.com/7868/كرامو-كانطو-سليمان-نموذجا-للنبوغ-الإف2-/.

(7) Diallo et Bah, *Géographie de la Guinée et de l'Afrique.*

(8) Diallo et Bah, *Géographie de la Guinée et de l'Afrique.*

(9) Diallo et Bah, *Géographie de la Guinée et de l'Afrique.*

(١٠) كوناتي موسى عمر، «قبيلة الغيريسي في غينيا الغابية أنزريكوري والضواحي،» مكتب لجنة مسلمي إفريقيا (العون المباشر حاليا) بمبادرة من الشيخ سميط -رحمه الله – ٢٠٠٩، غير منشور. وتعاون معي في إعداده الأخ الفاضل صديق سدبي. خبير في شؤون حياة القبائل الغابية – جزاه الله خيًرا- فكل المعلومات المتعلقة بالغريسي، هو من زوّدني بها، وإنما قمت فقط بترجمتها من اللغة المانكية إلى العربية، ومن ثم ترتيبها علميًّا.

(١١) منهج التاريخ والجغرافيا للصف العاشر المتوسط لوزارة التعليم ما قبل الجامعي.

(١٢) كوناتي موسى عمر، «قبيلة الغيريسي في غينيا الغابية أنزريكوري والضواحي.»

(١٣) تناول الأستاذ محمود دابو المسألة الدينية في هذه المنطقة وما نتج عنها من تحولات إيجابية في رسالته الماجستير: محمود دابو، «الحضارة الإسلامية في غينيا الغابية،» (رسالة ماجستير، جامعة الجنرال لانسانا كونتي بسونفونيا، د.ت). وهي موجودة في مكتبة الماجستير بالجامعة.

(١٤) المادة الأولى من القانون الأساسي الذي صوّت عليه الشعب الغيني يوم ٢٣، ديسمبر من عام ١٩٩٠م.
نقلًا عن: كوناتي موسى عمر، «الإسلام والمسلمون في غينيا الواقع والآفاق،» (أطروحة دكتوراه، جامعة عبد المالك السعدي، ٢٠٠٧م) ٧٢.

(١٥) لقد اختلف في تاريخ مولده، وترجح أغلبية المؤرخين ولادته في فترة ما بين سنتـي (١٨٣٠و١٨٣٥م) في قرية مينيانمبادو. وقد تلقّى في صباه تعليمًا دينيًّا على يد والده لانفيا توري Lanfia وأكمله على يد أحد المرابطين.
ينظر: إلهام ذهني، جهاد الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا ضد الاستعمار الفرنسي (١٨٥٠-١٩١٤م)، (الرياض: دار المريخ للنشر، ١٩٨٨م)، ٥٦.

(١٦) محمد وقيدي، الحضارة الإسلامية في مالي، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة الإيسيسكو، (الرباط: مطبعة الهلال العربية، ١٩٩٦م)، ١٨٩.

(١٧) ذهني، جهاد الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا ضد الاستعمار الفرنسي، ٥٦.
ولا أعرف المرجعية التاريخية التي استندت إليها الأستاذة في حكمها على ساموري توري بأنه لم يكن يعتنق أية طريقة صوفية، فهو حكم فيه نظر عندي، لأن غينيا في هذا القرن الذي ألّفت عنه كتابها، كان فيها آنذاك طريقتان صوفيتان: الأولى الطريقة القادرية، والثانية الطريقة التيجانية. فالأولى كانت منتشرة في غينيا العليا، فهي المناطق التي سيطر عليها ساموري، بينما الثانية كانت منتشرة في فوتا جالون والضواحي.

(١٨) ذهني، جهاد الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا ضد الاستعمار الفرنسي، ٥٣.

(١٩) ولد حوالي سنة ١٧٩٦م بقرية حلوار Halawar بالسنغال، وتحيط الاستغراقية المحلية بولادته وطفولته، وكذا أسرته، بحالة من التقديس وجملة من الخوارق... وفي أحضان أسرة متعلمة أحبت العلم وأهله، واختارت الإسلام عقيدة لها، وقاومت الوثنية. ترعرع ونشأ عمر فحفظ القرآن، واطلع على شرحه ومعانيه تحت إشراف أخيه ألفا أحمد. درس اللغة العربية وعلوم القرآن بعناية والده وزوج أخته. كما سعى وراء المزيد من المعرفة، وأخذ العلم من أفواه الرجال، حيث ترك بلدته حلوار، وتنقل أولًا بين مدن فوتا تورو Futator قبل أن يشد الرحال إلى ولاية جنوب بلاد شنقيط، التي كانت له بها إقامة طويلة، أخذ خلالها على الكثير من علمائها، وتعرّف على الكثير من شيوخ التيجانية، ثمّ سافر لقضاء مدة أطول في فوتا الون FutaDiallon مارس خلالها التدريس، ومن هناك إلى بلاد المشرق العربي. حافظ كتاب الله العزيز، وتعلم تعاليم الدين الإسلامي وقواعد اللغة

العربية، وعلى اطلاع كامل بأهم المذاهب الإسلامية خصوصًا المذهب المالكي نتيجة لتتلمـذه على أساتذة إمّا مغاربة، أو أخذوا عن مغاربة من بلاد شنقيط، وكان يعطي أهمية كبيرة للتربية الدينية، وللتهذيب الروحي خاصة فيما يتعلق بتعليم الطلبة. والشيخ عمر الذي كان إمامًا ومربيًا، كان أيضًا كاتبًا جمع بين الفكر وسلامة الأسلوب، وكان خطيبًا بارعًا ذكيًّا وفطنًا.

ينظر:

Moussa Kamara, "La vie d'El-Hadji Omar," Traduite et Annotée par Amar Samba, *Bulletin de l'Institut Fondamental d'Afrique Noire, Série B: Sciences humaines*, 32: 1, 1970, 64.

أحمد الأزمي، الطريقة التيجانية بالمغرب والسودان الغربي خلال القرن التاسع عشر الميلادي (المغرب: مطبعة فضالة، ٢٠٠٠م)، ٣/٤٣.

(٢٠) الأزمي، الطريقة التيجانية بالمغرب والسودان الغربي خلال القرن التاسع عشر الميلادي ٣/٤٣.

(٢١) ومن ذلك ما بنوها في سانت اليكسيس (Alexis Saint سنة ١٩٠٤م) وهذا على سبيل المثال فقط.

Culture et civilisation islamiques. La Guinée (Rabat: l'Organisation islamique pour l'éducation, les sciences et la culture (ISESCO), 1988), 29.

(٢٢) عبدالله نبي كمارا، «منهاج تعليم اللغة العربية والتربية الإسلامية بغينيا للمرحلة الابتدائية والإعدادية (دراسة تحليلية تقويمية)،» (رسالة ماجستير غير منشورة: المنظمة الإسلامية الإيسيسكو، د.ت)، ٣٧.

(٢٣) ينظر:

الخضر عبد الباقي محمد، «المستعربون الأفارقة وجدلية العلاقة بالعربية،» قراءات إفريقية، (١٨، ديسمبر، ٢٠٢٠م).

الخضر عبد الباقي محمد، ««المستعربون الأفارقة» وتحدّيات الهويّة .. (قراءة سوسيو/ثقافية نقدية)،» قراءات إفريقية، (١، مارس، ٢٠١٨م)، https://qiraatafrican.com/7217/المستعربون-الأفارقة-وتحدّيات-الهو/.

(٢٤) ولد في قرية بضاحية فارانا التي تقـع بين غينيا العليا وغينيا الغابية، وتفصلها عـن العاصمة كوناكري بـ ٤٥٥ كم، وعن كانكان بـ٣٥٢ كم، وهي قريبة من منابع نهر النيجر. وفي هذه القرية الماندنكية ولد سيكو توري في ١٥ يناير من عام ١٩٢٢. ويتصل نسبه بالإمام ساموري، وهذا ما أثبته التاريخ الحديث لغينيا. وكانت طفولته كطفولة أي طفل إفريقي، حيث ظل إلى جوار والدته حتى بلغ السن السابعة. وبعدها: أدخل إلى مدرسة قرآنية، فتعلم رفقة مجموعة من أصدقائه بعض السور القرآنية على معلم القرية.

وفي أكتوبر عام ١٩٤٦م، شارك في المؤتمر التأسيسي للحزب الديمقراطي الإفريقي: R D..A، الذي انعقد في العاصمة المالية بماكو، وكان الرئيس الإيفواري الراحل هوفيت بواني، من دعا إلى إنشاء حزب سياسي موحد، يجمع المناضلين الأفارقة، وكان الهدف منه هو توحيد الصفوف، من أجل خوض غمار معركة الاستقلال. وحضرت هذا المؤتمر التاريخي وفود من كل من غينيا، وكوديفوار، والسنغال، وداهومي (بنين حاليًّا)، والنيجر، والسودان الفرنسي (مالي حاليًّا)، والكامرون، وتشاد. فعيّن سيكو توري نائبًا لرئيس الحزب، وأسّس له فرعًا في غينيا بمقتضى بنود المؤتمر وسمّاه: P.D.G. وقد شغل عدة مناصب سياسية مهمّة أيام الاستعمار.

وفي عام ١٩٥٨م، أصدر ديغول دستورًا، قضى بمنح الأقاليم الإفريقية المستعمرة من قبل فرنسا، حرية الاختيار بين قبول هذا الدستور الجديد أو رفضه، وأن الرفض سيعقبه الاستقلال فورًا. وأوضح كذلك أن رفض الدستور سيعني حتمًا امتناع فرنسا عن تقديم المعونة الفنية والإدارية للجهة الرافضة، وأمّا الذين سيصوتون عليه بالقبول فسيصبحون أعضاء فيما أسماه بالجماعة الفرنسية، وهي نوع من الفيدرالية، وسيتمتعون كذلك بالاستقلال الداخلي أو الحكم الذاتي، مع بقائهم في التبعية الفرنسية.

أجري التصويت على دستور ديغول وقال ٩٥٪ من الغينيين (لا). وألقى سيكو توري أمام ضيفه خطابًا حماسيًا، دافع فيه عن الأسباب التي أدّت به إلى رفض المشروع الفرنسي الجديد، وقال لديغول قولة أصبحت ممّا يروى في التاريخ الإفريقي: إن الجماعة الفرنسية التي يريد ديغول تشكيلها، تشبه اتحاد الشعوب البريطانية – الكومنولث – لن تحقق شيئًا سوى الإبقاء على وضعنا كأناس مستعمرين أذلاء تابعين... ونحن سوف نفضل الفقر في الحرية، على الغناء في العبودية. خطاب أربك العلاقات الغينية الفرنسية في عهد ديغول.

وفي إثره، حصلت غينيا على استقلالها التام غير المشروط من فرنسا في ٢ أكتوبر من العام ١٩٥٨م، وأصبح سيكو توري أول رئيس للجمهورية الغينية المستقلة حتى يوم الاثنين ٢٦ مارس من العام ١٩٨٤م، وهو العام الذي توفي فيه بإحدى المصحات الأمريكية، الساعة التاسعة وثلاثًا وعشرين دقيقة ليلًا.

انظر لمزيد من الاستزادة والتوسع عن حياته:

Ibrahima Baba Kaké, *Sékou Touré, le héros et le tyran* (Paris: Groupe Jeune Afrique, 1985).

محمد نور عطار، غينيا (منذ الاستقلال وحتى اليوم) ط١ (جدة: د.ن، ١٩٩٥م)، ١٥-٢٧.

وللعلم فإنني قد كتبت حول نضال غينيا من أجل حريتها بحثًا أسميته: رجال المقاومة بغينيا، غير منشور بعد.

(٢٥) الحاج عبدالرحمن باه، بنات أفكاري (د.ن، د.ت). ذكر في مقدمة كتابه صفحة (هـ)، (هكذا رقم) شيئًا من الاهتمامات الدينية للرئيس سيكو الذي عاصره.

(٢٦) من مواليد عام ١٩٣٤م في لومبايا- موسايا بمحافظة دوبريكا، أكمل علومه الابتدائية، ودخل مدارس الأطفال التابعة لجمعية بيجرفيل في ساحل العاج، وتابع في سان لويس بالسنغال تكملة علومه الثانوية، والتحق بعدئذ بالجيش الفرنسي في أول يونيو عام ١٩٥٥م.
وبعد الاستفتاء في أول سبتمبر عام ١٩٥٨م، وإعلان استقلال غينيا في ٢ أكتوبر من السنة نفسها، أعفي من الخدمة العسكرية الفرنسية بناء على طلبه، وصعد في بوني بالجزائر على ظهر السفينة جوفرسس في ٢١ ديسمبر عام ١٩٥٨م، ونزل في مرفأ كوناكري في ٣١ ديسمبر من العام نفسه.
وفي أول مارس عام ١٩٥٩م، التحق بالجيش الوطني الغيني الحديث برتبة عريف، ونقل إلى فرقة كوناكري في ثكنة ألفا ياياً، وفي أول يونيو من العام المذكور، نُقِل إلى الكتيبة الأولى في غينيا العليا بكانكان، ثمّ عاد إلى المقرّ العامّ في كوناكري، وأصبح السكرتير العام لأركان الحرب العام لدى قوى الجيش الغيني، وفي هذا المقر التحق بمدرسة الضباط في ثكنة ألفا ياياً ابتداء من ١٨ أبريل عام ١٩٦١م.
وبعد تخرّجه في مدرسة الضباط، نقل إلى مركز الاستعلامات الحربية لدى الكتيبة في كنديا بتاريخ ١٥ يناير عام ١٩٦٢م، وعاد بعدها من جديد إلى الكتيبة الخاصة في كوناكري بتاريخ أول مايو عام ١٩٦٣م، وأصبح برتبة مساعد ملازم بتاريخ أول يوليو عام ١٩٦٣م، حيث عين بوظيفة أمين الصندوق.
وفي أول يوليو عام ١٩٦٥م، رقّي إلى رتبة ملازم، وخدم في جمعية الفنون الحربية رقم ٢ في كوندرا، قبل أن يصبح في مايو عام ١٩٦٨م قائد فرقة في غوال. وفي ١٢ أكتوبر عام ١٩٦٨م، ترك غوال ودخل في الفرقة الرابعة في أنزريكوري برتبة مساعد المسؤول.
في ٢٦ ديسمبر عام ١٩٦٩م، ترك أنزريكوري، ودخل في الفرقة الثانية في كنديا، وعين مرة ثانية برتبة السكرتير العام لأركان الحرب العام للجيش الغيني بتاريخ ٢٠ مايو عام ١٩٧٠م، وعند الهجوم البرتغالي على غينيا في ٢٢ نوفمبر عام ١٩٧٠م، قام بالعمليات الدفاعية عن العاصمة ابتداء من جزيرة تمارا إلى شواطئ كوناكري، وعيّن برتبة ضابط للخدمات التي قدمها لبلاده، وذلك بتاريخ ٢٧ فبراير عام ١٩٧١م.
في ٨ يونيو قام بأعمال قائد منطقة بوكي، وعلى إثرها عين برتبة مساعد قائد القوات الحربية البرية في ١٩ مايو عام ١٩٧٥م، ثم تمت ترقيته إلى رتبة قائد قوات ابتداء من ٢٨ سبتمبر عام ١٩٧٧م. وعين برتبة كولونيل بتاريخ أول مارس عام ١٩٨٢ م، حكم البلاد قرابة ٢٤ عامًا، توفي مساء الاثنين ٢٢ من شهر ديسمبر عام ٢٠٠٨م على الساعة السادسة وخمس وأربعين دقيقة، وتولى شباب من العسكريين من رتب متفاوتة الحكم في اليوم الموالي أي: ٢٣ ديسمبر من الشهر نفسه، وتم تعيين الكابتن الشاب موسى دديس كمارا خلفًا له. عن: طلال محمد نور عطار القائم سابقًا بأعمال السفارة السعودية بجمهورية غينيا في كتابه: «غينيا من الاستقلال حتى اليوم،» ١٠٣.

(٢٧) محمود دابو، «حركة التعمير وأثرها في التنمية الاجتماعية في مدينة كوناكري (٢٠٢٣- ١٩٥٨م)،» (أطروحة دكتوراة، جامعة الجنرال لانسانا كونتي بسونفونيا، د.ت)، ٢٦٤-٢٦٥.

(٢٨) دابو، «حركة التعمير وأثرها في التنمية الاجتماعية في مدينة كوناكري (٢٠٢٣- ١٩٥٨م)،» ٢٦٤-٢٦٥.

(٢٩) أخرجه د. كتاب (العلم ب. الحث على طلب العلم ٢-١٢٤) وت. كتاب (العلم ب. فضل العلم على العبادة ٥-٤٨) ومه. في المقدمة ب. (فضل العلم والعالم ١-٩٨)، وكلهم من حديث أبي الدرداء

(٣٠) هي الجامعة الحكومية الثانية بكوناكري، بعد جامعة جمال عبد الناصر، وتأسست في عام: ٢٠٠٦م. ولقد فتحت الحكومة، في إطار حسن تعاونها الدائم مع المستعربين، قسم اللغة والحضارة، في جامعتين حكوميتين في المناطق الداخلية بجامعة مدينة أنزريكوري عاصمة غينيا الغابية، وفي جامعة مدينة لابي عاصمة غينيا الوسطى. بل ورخصت أيضًا إنشاء جامعات أهلية. فتأسست بمقتضى ذلك جامعة الإعمار في عام: ٢٠٠٦م، وجامعة غينيا العالمية في عام ٢٠١٩م، وتعلم بهما المستعربون والمستعربات. وقد عزز ذلك فعلًا قضية الاندماج من نوع آخر؛ إذ يحاضر فيهما الدكاترة المستعربون في الأقسام العربية، بينما يحاضر إخوانهم المتفرنسون في الأقسام العلمية كإدارة الأعمال، والحاسب الآلي، والصحة المهنية.

(٣١) ولقد أشار إلى هذا كل من: قطب مصطفى سانو، «النظم التعليمية الوافدة في إفريقيا قراءة للبديل المناسب،» كتاب الأمة ٦٣، (الدوحة: وظارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٩٩٨م).
عبد الرحمن بن الحاج كونادي كوني، أزمة التعليم الإسلامي في إفريقيا بين الأمس واليوم، ومحاولة لإيجاد طرق لتطويره ، بحث غير منشور، ١٩٨٩م، ٣٠.

(٣٢) كان هذا السفير من أحد السفراء السعوديين المتميزين، فيما يخص حضور المناسبات الثقافية، واللقاءات العلمية التي يدعى إليها من قبل قادة المستعربين، بل من خيرة السفراء العرب في غينيا. وكان يشرّفنا بحضوره الدبلوماسي في المجامع الدينية والثقافية، غير مكترث ببعد المكان، ولا بكثرة الزحام الذي تشهده شوارع كوناكري يوميًّا، وهو دبلوماسي وعربي فريد من نوعه، علمًا، وخلقًا، وتواضعًا، وكان يشارك حتى عن بعد، فجزاه الله خيًرا.

(٣٣) (النحل: ٥٣).

(٣٤) (النحل: ١٢٥).

(٣٥) (الأنبياء: ١٠٧).

(٣٦) - (الأنفال: ٤٦).

(٣٧) - (الروم: ٤).

التغير المناخي والصراع على الموارد في غرب إفريقيا: سياقات متشابهة وتحديات محتملة

د. مروة صبحي منتصر، مدرس العلوم السياسية، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة، القاهرة.

مع موجة الانقلابات الأخيرة في غربي إفريقيا، أصبحت منطقة الساحل محور الاهتمام العالمي؛ فمنذ عام ٢٠٢٠م، وقعت ستة انقلابات على الأقل، في مالي، وغينيا، والسودان، وبوركينا فاسو.[١] وتعدّ منطقة الساحل المنطقة الأكثر عرضة لتغيّر المناخ؛ فهي منطقة شبه قاحلة، تضم بعض أفقر دول العالم، وأكثرها هشاشة، مثل: مالي، والنيجر، وبوركينا فاسو، وتشاد، وموريتانيا. وبسبب آثار الانحباس الحراري العالمي، عُرف حزام الساحل منذ فترة طويلة، بأنه نقطة ساخنة، للصراع على الأراضي والموارد المائية. كما تعد المنطقة أيضًا نقطة مرجعية لخطاب تغير المناخ. فقد وقع أول «صراع بشأن تغير المناخ» في عام ٢٠٠٣م، عندما كشفت الحرب في دارفور، كيف يمكن أن يؤدي التقاء العوامل البيئية والسياسية إلى الصراع. ومنذ ذلك الحين، استمرت المنطقة في التأثير على خطاب تغير المناخ، والأمن المناخي.[٢]

ومن هنا، تسعى هذه المقالة إلى تحليل الروابط بين تغير المناخ، والصراعات على الموارد الطبيعية، وانعدام الأمن في الجماعة الاقتصادية لدول غربي إفريقيا. كما تحاول هذه المقالة تقديم تحليل مقارن مركّز، للصراعات الناجمة عن المناخ في منطقة الساحل، وغربي إفريقيا. وفي حين أشارت الدراسات السابقة إلى الصلة العامة، بين تغير المناخ والصراع، فإن هذه الورقة تتعمق في ديناميكيات اجتماعية وسياسية محددة، ومحفزات بيئية في هذه المناطق، وتفحص كيف يؤثر تغير المناخ على الصراع. ولا تزال هناك فجوات في البحث، وخاصة في فهم كيفية تفاعل ندرة الموارد الناجمة عن المناخ، مع الحوكمة والتوترات العرقية، وانقطاع سبل العيش. وباستخدام البيانات الثانوية من تقارير المناخ، ودراسات الحالة، يوفر هذا التحليل منظورًا دقيقًا للتأثير الجيوسياسي لتغير المناخ، على الموارد الطبيعية في إفريقيا، والصراعات ذات الصلة.

أولًا - تغير المناخ والصراع على الموارد الطبيعية: علاقة ديناميكية

تُعدّ المفاهيم المتعلقة بتغير المناخ، والصراعات على الموارد الطبيعية، ضرورية لفهم التوترات في غربي إفريقيا. ويشير تغير المناخ إلى التغير المستمر في أنماط المناخ، نتيجة الأنشطة البشرية، مثل: انبعاثات الغازات المسببة للاحتباس الحراري، وفقًا لاتفاقية الأمم المتحدة، ويعود تغير المناخ إلى الأنشطة البشرية، التي تؤثر في الغلاف الجوي، ممّا يزيد من التوترات الاجتماعية والسياسية، مثل: توزيع الموارد، والأمن الغذائي، والهجرة، ممّا يسهم في تفاقم الصراعات في مناطق مثل: الساحل، وغرب إفريقيا.

يمثّل تغيّر المناخ تهديدًا رئيسًا للسلام والأمن البشري، حيث يعزّز المخاطر الحالية، ويخلق تحديات جديدة. وقد أشارت الهيئة الحكومية الدولية المعنية بتغير المناخ (IPCC ٢٠٢٤) إلى أن التأثيرات السلبية الناجمة عن تغير المناخ، مثل: الأحداث المناخية المتطرفة، تسببت في خسائر وأضرار واسعة النطاق، تفوق التقلبات المناخية الطبيعية.[٣]

وعلى الجانب الآخر، فإن الموارد الطبيعية، وفقًا لإطار عمل الجماعة الاقتصادية لدول غربي إفريقيا، هي «هبات مادية من الطبيعة» تستخدم لدعم الحياة والنشاطات الاقتصادية. وعندما يتم إدارة هذه الموارد بشكل سيئ، أو تقاسمها بطريقة غير عادلة، أو استغلالها دون مراعاة السياق المجتمعي، فيمكن أن تسهم في تصاعد التوترات، وتحفز الصراعات العنيفة، أو تغذي الصراعات القائمة.[٤] فالصراعات على الموارد الطبيعية، هي «صراعات اجتماعية» قد تكون عنيفة أو غير عنيفة، وتتمحور حول كيفية سيطرة الأفراد أو الدول على هذه الموارد، أو الوصول إليها، وتشمل هذه الصراعات صراعات بين أصحاب المصلحة المحليين، أو بين الحكومات والمجتمعات.[٥]

ثانيًا – سياقات الأمن المناخي في غرب إفريقيا

في السنوات الأخيرة، تم التوصل إلى اتفاق واسع النطاق، على أن تغيّر المناخ له آثار أمنية خطيرة. وتمتد جذور أدبيات الأمن المناخي في مجال الأمن البيئي، منذ التسعينيات؛ فمنذ عام ٢٠٠٧م، بدأ مجتمع الأمن المناخي في تمييز نفسه، من خلال دراسة تأثير تغير المناخ على الحرب، والأمن القومي، والقدرات العسكرية. وغالبًا ما يؤكد هذا التركيز المبكر إمكانية «حروب المناخ»، ولا يزال يغذي العمل الحاسم، بشأن مخاطر عسكرة تغير المناخ، وعلى الروابط بين العسكرة وانبعاثات الكربون.[٦]

تعدّ منطقة الساحل وغرب إفريقيا، من أكثر المناطق عرضة لتأثيرات تغيّر المناخ في العالم؛ حيث تحدّدها المنظمات الدولية بأنّها «أعلى تركيز في العالم لبلدان البؤر الساخنة»، وتواجه تهديدات بيئية، وصراعات مرتفعة، ومستويات مرونة منخفضة. ورغم عدم اليقين الكامل حول آثار الاحترار العالمي، تشير النماذج إلى زيادة تقلبات هطول الأمطار، والأحداث المتطرفة، مع ارتفاع درجات الحرارة بشكل أسرع من المتوسط العالمي.[٧]

توقّع تقرير مركز التنمية العالمية انخفاض إنتاج المحاصيل في إفريقيا بنسبة ٢,٩٪ بحلول عام ٢٠٣٠م، و ١٨٪ بحلول عام ٢٠٥٠م، مع خسارة في الإيرادات تصل إلى ٣٠٪. وتعدّ منطقة شمال غرب إفريقيا، بما في ذلك مالي، والنيجر، وبوركينا فاسو، هي الأكثر عرضة لتأثيرات تغيّر المناخ. وتشير مفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين إلى زيادة في درجات الحرارة بين ٢ و٤,٣ درجة مئوية بحلول عام ٢٠٨٠م، مع فترات جفاف ورطوبة شديدة، ممّا يزيد من الوفيات المرتبطة بالحرارة، وانخفاض جودة المياه.[٨]

وتعدّ الأزمات الغذائية من أخطر التحديات، بسبب تغير نمط هطول الأمطار، والاعتماد على الزراعة الرعوية، وعدم الاستقرار الإقليمي، وارتفاع أسعار المواد الغذائية العالمية. وعلى سبيل المثال، فقد أدّت الأمطار الغزيرة في عام ٢٠٢٢م إلى فيضانات في عدة دول في منطقة بحيرة تشاد، وكانت أكثر ضررًا بنسبة ٨٠٪ وأكثر كثافة بنسبة ٢٠٪ بسبب تغير المناخ.[٩]

وقد أدّى هذا -إلى جانب تقدم مساحة الصحراء الكبرى بما يزيد على ميل واحد كل عام- إلى تفاقم التوترات بين المزارعين والرعاة، بسبب اختفاء المراعي، وتبخر آبار المياه. وبالإضافة إلى أزمة المزارعين والرعاة، تستغل الجماعات المسلحة، المرتبطة بتنظيم القاعدة وتنظيم داعش الصراع، وضعف الحكومات المركزية، وتمكنت من نشر جذورها في المنطقة، لتصبح كابوسًا دائمًا للقرويين. وكما قال حمادون سيسي، وهو راع مالي، يرأس لجنة مصالحة، تشارك في الوساطة في الصراعات بين المجتمعات: «إنهم يأتون كحماة للمجتمعات، ثم يحاولون فرض أسلوب حياتهم علينا».[١٠]

ونتيجة للصراع على المياه والموارد الطبيعية، تقدر الأمم المتحدة أن أكثر من ١٣ مليون شخص في منطقة الساحل يحتاجون إلى مساعدات إنسانية. كما تضاعف عدد الأشخاص الذين يواجهون الجوع الحاد ثلاث مرات، ليصل إلى ٧,٤ مليون شخص، بينما نزح حوالي ١,٥ مليون شخص داخليًّا، وهي زيادة تبلغ عشرين ضعفا على مدار عامين. ومع تفاقم الصراع، ونزوح الملايين، وإجبارهم على الهجرة، ينتشر العنف، مما يؤدي إلى استنزاف الدولة والجيش إلى أقصى حد ممكن، والنتيجة هي إمّا فشل الدولة، أو الانقلابات، حيث تتعرض السيادة للتهديد.[١١]

ثالثًا - تداعيات تغير المناخ والصراع على الموارد الطبيعية في غربي إفريقيا

في الجماعة الاقتصادية لدول غرب إفريقيا، أدى تغير المناخ إلى تأثيرات سلبية على سبل عيش المواطنين، وخاصة في المناطق الريفية. وتشمل هذه التأثيرات انخفاض هطول الأمطار في شمالي نيجيريا، والجفاف في النيجر، والفيضانات في شمال الكاميرون، وارتفاع درجات الحرارة في تشاد، بالإضافة إلى تآكل السواحل في السنغال. وتشهد منطقة الساحل نموًّا سكانيًّا سريعًا (٣٪ في عام ٢٠٢٤، ومن المتوقع أن يزيد إلى ٤٪ في عام ٢٠٢٥) في بيئة تشهد تقلّصًا في الموارد الطبيعية، ممّا يعرض سبل العيش للخطر.[١٢]

تتمتع بعض دول غرب إفريقيا بموقع ساحلي إستراتيجي، ممّا يجعلها عرضة للفيضانات، نتيجة ارتفاع مستويات سطح البحر، كما تتأثر البلدان غير الساحلية - أيضًا - بتداعيات تغير المناخ، ممّا يهدّد دول المنطقة كافة. ومع تزايد التحضر في المناطق الساحلية؛ حيث يهاجر ما بين ٧٢ و٩٤ مليون شخص إلى المدن الكبرى، مثل: لاغوس، وأبيدجان، وداكار، وأكرا، تصبح هذه المناطق أكثر عرضة للمخاطر.

وقد أدّى الجفاف إلى تعطيل حياة نحو ٢٠ مليون راعي ماشية في غربي إفريقيا، وزيادة الصراع، خاصة في منطقة موبتي بمالي. كما تشكّل تقلّبات توفر المياه تهديدًا كبيرًا للسكان، وخاصة لأولئك الذين يعتمدون على الزراعة الرعوية. وعلى سبيل المثال، يعاني حوض بحيرة تشاد تقلّبات حادّة في المياه، ممّا أثر في الأمن الغذائي لـ ٥٠ مليون شخص، منهم ٦,٩ مليون يعانون انعدام الأمن الغذائي الشديد.[١٣] وفي هذا الصدد؛ يمكن إبراز أهم التداعيات الأمنية لتغير المناخ، وذلك على النحو الآتي:

أ- تغير المناخ والصراع على موارد الأراضي الزراعية

تتعرّض الأراضي الزراعية في إفريقيا للتدهور بمساحة تصل إلى ١٣٢ مليون هكتار، ممّا يعرض ملايين المواطنين للخطر، بجانب تأثيرات تغير المناخ؛ فحوالي ٤٥٪ من أراضي إفريقيا تتأثر بالتصحر، و ٥٥٪ معرضة لخطر التصحر في غربي إفريقيا، وقد تدهورت الموارد الطبيعية بسبب إزالة الغطاء النباتي، والتآكل الناتج عن الرياح والمياه منذ عام ١٩٧٥م، وانخفضت مساحة الغابات في المنطقة من ١٣١ ألف كيلومتر مربع، إلى ٨٣ ألف كيلومتر مربع. ويعود جزء كبير من إزالة الغابات إلى التوسع الزراعي، الذي تضاعف ما بين عامي ١٩٧٥ و٢٠١٣م، ليصل إلى ١١٠٠ ألف كيلومتر مربع. كما يسهم سوء إدارة الأراضي الزراعية في تفاقم التدهور.[١٤]

وفي غربي إفريقيا، تتأثر الموارد الطبيعية بالفعل بالتدهور، خاصة في الأراضي الزراعية سريعة النمو؛ حيث تمت إزالة الغطاء النباتي الطبيعي، وتعرضت التربة الهشة للتآكل بفعل الرياح والمياه. ومنذ عام ١٩٩٠م، انخفضت مساحة الغابات في غربي إفريقيا بنسبة تقدر بحوالي٥٠٪، حيث انخفضت مساحة الغابات من نحو ١٣١ ألف كيلومتر مربع، إلى ٦٥ ألف كيلومتر مربع فقط، بحلول عام ٢٠٢٠م، وكان جزء كبير من إزالة الغابات مدفوعًا بالتوسع الزراعي، الذي تضاعفت مساحته ما بين عامي ١٩٩٠ و٢٠٢٠م، ويمتد على مساحة تقدر بنحو ١,٣ مليون كيلومتر مربع، ويسهم سوء إدارة الأراضي الزراعية في زيادة تدهور الأراضي.[١٥]

ووفقًا لتقرير لمنظمة الأغذية والزراعة (الفاو)، فقد بلغ الإنتاج العالمي من الأخشاب مستويات قياسية، بنحو ٤ مليارات متر مكعب سنويًّا. وتشير التقديرات إلى أنه تم حصاد ما يقدر بنحو ٢,٠٤ مليار متر

مكعب من الأخشاب المستديرة الصناعية في عام ٢٠٢٢م، وهو ما كان مماثلًا للحجم في عام ٢٠٢١م، وتم حصاد حوالي ١,٩٧ مليار متر مكعب في عام ٢٠٢٢م، لاستخدامها كوقود خشبي، وهو ما يشكل أقل من نصف (٤٩,٤ ٪) من إجمالي حصاد الأخشاب، وكانت النسبة أعلى بكثير في إفريقيا، حيث بلغت ٩٠٪.[١٦] وقد أدّى استبدال وتفتيت الموائل الطبيعية بسبب الزراعة، إلى زيادة المنافسة على الأراضي الصالحة للزراعة في غربي ووسط إفريقيا، ممّا أجبر المزارعين والرعاة على الهجرة، بحثًا عن سبل عيش أكثر أمانًا. وهذه الظروف، ارتبطت بصراعات على الموارد الطبيعية، مثل: أراضي الرعي، والمياه. وأبرز المناطق المتضررة، تشمل: موبتي، وغاو في مالي، وتيلابيري، وتاهوا في النيجر، والمناطق الشرقية من بوركينا فاسو، وشمالي نيجيريا. وأسفر استنفاد الموارد الطبيعية عن تصاعد الصراع بين المزارعين والرعاة؛ حيث لقي حوالي ٤٠٠٠ شخص حتفهم في نيجيريا ما بين عامي ٢٠١٦ و٢٠١٩م، بينما أسفر العنف المتزايد في مالي عن مقتل نحو ٧٠٠ شخص في عام ٢٠٢٠م.[١٧]

وكذلك، في يناير عام ٢٠٢٣م، فقد قُتل العشرات من رعاة الماشية والمارة بالمناطق الشمالية النيجيرية، والمعروفة أيضًا باسم "الحزام الأوسط"، في انفجار قنبلة بسبب الاشتباكات بين الرعاة والمزارعين الفولاني، ومعظمهم من المسيحيين.[١٨]

وفي مايو عام ٢٠٢٣م، قال مسؤولون محليون: إن أكثر من ١٠٠ شخص في وسط نيجيريا، لقوا حتفهم في عدة أيام من العنف الطائفي، الذي دمّر مئات المنازل، وتسبب في فرار الآلاف. وتعدّ الاشتباكات بين رعاة الماشية، والمجتمعات الزراعية في ولاية بلاتو، هي الأسوأ منذ سنوات، في منطقة عانت منذ فترة طويلة التوترات العرقية والدينية، والهجمات الانتقامية.[١٩]

ب- تغير المناخ والصراع على تشكيل المياه العابرة للحدود

رغم أن المياه مورد متجدد، فإن توافرها غير قابل للتنبؤ بدقة، كما يظهر في حالة بحيرة تشاد، التي تمتد عبر نيجيريا، وتشاد، والنيجر، والكاميرون. فقد كانت البحيرة مصدرًا اقتصاديًّا حيويًّا لـ٣٠ مليون شخص في المنطقة، لكن مواردها تراجعت في العقود الأخيرة، ممّا أثر بشكل كبير في سبل العيش، وأدى إلى صراعات على المياه. وتتجلى هذه الصراعات في شكلين: صراعات الملكية، وصراعات الاستخدام. وتحدث صراعات الملكية، عندما يتنافس سكان الدول المشاطئة على تخصيص موارد البحيرة، بينما تنشأ صراعات الاستخدام بسبب التنافس المتزايد، بين مستخدمي المنبع والمجاري.[٢٠]

كان الصراع على حقوق الصيد جزءًا رئيسًا من نزاع ملكية مياه بحيرة تشاد. وفي الثمانينيات، حدثت انتهاكات ضد الصيادين النيجيريين، من قبل الدرك الكاميروني والتشادي، وأسفرت المناوشات في عام

١٩٨٣م عن فقدان أرواح واعتقالات. وتكررت الاعتداءات على الصيادين النيجيريين، بما في ذلك الاستيلاء على معدات الصيد، ومع تقلص البحيرة، استمر الصراع حول الموارد؛ ففي عام ٢٠٠٧م، اشتكى صياد نيجيري من ملاحقة قوات الدرك له، واستيلائها على أدوات الصيد. ورغم قلة التقارير بعد تمرد بوكو حرام عام ٢٠٠٩م، فقد تسببت التغيرات المناخية في تحولات اجتماعية واقتصادية، أسهمت في تجنيد أفراد لصالح بوكو حرام والدولة الإسلامية.[٢١]

وفيما يتعلق بالصراع على الاستخدام، أصبحت الصراعات العنيفة متكررة في المناطق المجاورة للبحيرة في إقليم الكاميرون، بسبب ندرة المياه المتزايدة. ومع ذلك، فقد زاد عدد السكان الذين يعتمدون على البحيرة في معيشتهم من ٣,٥ مليون في عام ١٩٦٠م، إلى أكثر من ٤٥ مليون نسمة في عام ٢٠٢٠م. وقد أدى ندرة المياه إلى اندلاع اشتباكات منتظمة، بين مربي الماشية والصيادين في لوغون، وشاري بالكاميرون؛ ففي أغسطس عام ٢٠٢١م، على سبيل المثال، فرّ حوالي ١١٠٠٠ مدني من لوغون وشاري إلى تشاد، بعد صراع على المياه، بين مربي الماشية والصيادين، قُتل فيها ٤٠ شخصًا، وأصيب ٧٠ آخرون.[٢٢]

ج- تغير المناخ والهجرة والصراع على الموارد

يؤدي تغير المناخ إلى تسريع الهجرة والنزوح في غربي إفريقيا، خاصة في منطقة الساحل؛ فحوالي ٢٥ مليون راعٍ يسافرون جنوبًا مع مواشيهم خلال موسم الجفاف، ثم يعودون شمالًا في موسم الأمطار. والجفاف الممتد، والطقس غير المنتظم، يزيدان من حالة عدم اليقين للرعاة، ممّا يتطلب أساليب جديدة لإدارة القطعان في شمالي نيجيريا، وأدى انكماش بحيرة تشاد والتصحر إلى تحول الحركة الموسمية لمربي الماشية الفولانيين إلى استقرار دائم في الجنوب، حيث يتنافسون على الموارد مع المجتمعات المضيفة، ممّا أدى إلى صراعات على الموارد، وقد تتطور إلى صراعات عرقية. وتسهم المنافسة على أراضي الرعي، وندرة المياه، وتدهور آليات حل النزاعات في زيادة العنف الانتقامي. وبسبب تدهور الوضع في المنطقة، فقد استقر العديد منهم في مناطق جنوبي نيجيريا، مثل إيلورين، وأومواهيا، وأوغبوموسو، وشاكي، وأوباكالا، وأوزو - أوواني، وأويو، حيث انتهى بهم الأمر إلى التنافس على الموارد النادرة المتاحة، مع مجموعات اقتصادية أخرى، أو مع مجتمعات مضيفة.[٢٣]

د- تغير المناخ وتنامي الجماعات المسلحة في غربي إفريقيا

يُعدّ تغيّر المناخ عاملًا رئيسًا في توسيع نفوذ الجماعات الإرهابية في إفريقيا؛ حيث تشكل الدول الأكثر تعرضًا للظواهر المناخية المتطرفة، بيئات مثالية للتجنيد، نظرًا للصراع والعنف والفقر. ووفقًا للأمم

المتحدة، تنفذ عمليات حفظ سلام في ٨ من أصل ١٥ دولة مهددة بتغير المناخ. وعلى سبيل المثال، فقد أدى نقص المياه في شمالي الكاميرون، إلى زيادة النزاعات بين الصيادين والمزارعين، ممّا دفع حوالي ١٠٠,٠٠٠ شخص إلى النزوح.[٢٤]

تضم منطقة حوض بحيرة تشاد أجزاء من الكاميرون، وتشاد، والنيجر، ونيجيريا. ويعتمد حوالي ٩٠٪ من سكان المنطقة على مياه البحيرة، ومياه الأمطار المتناقصة، ومنذ عام ٢٠١٧م، تواجه المنطقة واحدة من أكبر الأزمات الإنسانية في العالم؛ إذ يعاني أكثر من ٧ ملايين شخص انعدام الأمن الغذائي الشديد، ونزوح ما يقرب من مليوني شخص، بسبب النزاع في المنطقة. وفي الآونة الأخيرة، تفاقمت الظواهر المناخية الحادة في المنطقة، مع ارتفاع معدلات الجفاف والتصحر، وتدهور الأراضي الزراعية بشكل خاص. ويتنافس حوالي ٣٠ مليون شخص في نيجيريا، وتشاد، والنيجر، والكاميرون، على مصادر المياه في البحيرات المتضائلة، ممّا يمهّد الطريق لزيادة أنشطة الجماعات الإرهابية العاملة في المنطقة، ولا سيّما جماعة بوكو حرام.[٢٥]

ووفقًا لتقرير مؤشر الإرهاب العالمي لعام٢٠٢٤ ،[٢٦] فقد احتلَّت دول الساحل الإفريقي وغرب إفريقيا مراتب متقدمة في ترتيب الدول الأكثر تضررًا من الإرهاب، وعلى النحو الآتي:

- بوركينا فاسو (الثانية عالميًّا).
- مالي (الرابعة عالميًّا).
- نيجيريا (الثامنة عالميًّا).
- النيجر (العاشرة عالميًّا)
- تشاد (الــتاسعة عشرة عالميًّا).

تقع سبعة من البلدان الإفريقية في العشرة الأولى من البلدان، التي تتزايد فيها الأعمال الإرهابية في إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى، ومنطقة الساحل، وهي: النيجر، والكاميرون، وبوركينا فاسو، وموزمبيق، وجمهورية الكونغو الديمقراطية، ومالي، وإثيوبيا.

وتعدّ دراسة «تغير المناخ، والصراع العنيف في غربي إفريقيا»، التي نشرها معهد ستوكهولم لأبحاث السلام الدولي حالة بحيرة تشاد في غربي إفريقيا أنموذجًا معبّرًا؛ إذ يهدّد الانكماش الهائل الذي يصيبها، مصدر رزق ٣٠ مليونًا من المزارعين والصيادين، الذين يعتمدون عليها، وهو ما حوّل محيطها إلى بيئة مثالية لتجنيد المقاتلين من قبل مجموعات مسلحة، مثل: بوكو حرام، التي تشهد أنشطتها ازدهارًا داخل الدول الأربع المتشاطئة على البحيرة، وهي: النيجر، ونيجيريا، وتشاد، والكاميرون.[٢٧] وتضيف الدراسة، أن الجماعات المسلحة استفادت من هذا التردي الاقتصادي من عدة أوجه؛ حيث عزفت على وتر المظالم السياسية والاقتصادية، لتهييج السكان على السلطات، وتحشيدهم خلفها، كما عملت على تقديم القروض

والرواتب، لاستقطاب المجندين في المجتمعات المعرضة لتغير المناخ، والتدهور البيئي، فضلًا عن توظيف التابعين لها في أنشطة غير قانونية، كسرقة الماشية وبيعها، وتهريب المخدرات، والأسلحة، والاتجار بها للحصول على إيرادات.[٢٨]

وتتمثل خطورة هذه التحولات، في بنائها «نظاما اقتصاديا قائما على العنف»، كوسيلة لكسب العيش، بما يمهد الطريق لتفاعلات معقدة، تطلق العنان لدورات مستمرة من العنف، والعنف المضاد.[٢٩]

خاتمة

تعدُّ التغيرات المناخية عقبة أمام جهود الدول والمنظمات الدولية، لتقديم الخدمات الإنسانية للمجتمعات المتضررة من هذه التغيرات، مثل: التصحر، والفيضانات. وفي بعض الدول الهشة، مثل: غربي إفريقيا، والساحل، تزداد العمليات الإرهابية، بسبب الكوارث الطبيعية والنزاعات الداخلية، ممّا يؤدي إلى نزوح وهجرة؛ ممّا يعرض المجتمعات للتطرف. ويجب التركيز على خلق بيئة آمنة في المناطق المتأثرة، من خلال تقديم مساعدات إغاثية، وتشجيع المشاريع الصغيرة، وتقليل البطالة، لتوفير مصادر رزق للمجتمعات المتضررة. وفيما يأتي عرض لأهم الحلول المقترحة لمواجهة أزمة التغير المناخي، وما ينجم عنها من صراعات على الموارد الطبيعية، وأهم السيناريوهات المستقبلية المتعلقة بها:

أ- تعزيز التعاون الإقليمي والدولي

- **تعميق التعاون بين دول غربي إفريقيا ومنطقة الساحل:** وذلك من خلال إنشاء مؤسسات إقليمية، متخصصة في إدارة الموارد المشتركة، مثل: المياه، والأراضي. ويشمل ذلك تبادل المعلومات والبيانات المناخية، مما يساعد في التنبؤ بالأزمات المستقبلية، وتنسيق إستراتيجيات التكيف.
- **دعم منظمات دولية مثل: الأمم المتحدة والاتحاد الإفريقي:** من أجل تعزيز التعاون بين الدول المتأثرة بتغيرات المناخ، وتعزيز دورها في المفاوضات المتعلقة بالمناخ.

ب- تحسين إدارة الموارد الطبيعية

- **إعادة تأهيل الأراضي المتدهورة مثل:** الأراضي الرعوية، والزراعية، وذلك من خلال تقنيات مثل: الزراعة المستدامة، والمحافظة على التنوع البيولوجي.
- **إدارة المياه بشكل مستدام:** وخاصة في المناطق التي تعاني ندرة المياه، مثل: بحيرة تشاد، ومجاري الأنهار الكبرى في المنطقة، ومن خلال تحسين تقنيات الري، وحماية مصادر المياه.

- **تشجيع الابتكار الزراعي:** من خلال استحداث أساليب زراعية مقاومة للجفاف، وزراعة محاصيل تتحمل الظروف المناخية القاسية، وهو ما يسهم في تقليل التنافس على الموارد.

ج- زيادة الاستثمار في الطاقة المتجددة

- **تعزيز الاستثمار في الطاقة الشمسية والرياح:** وهما من أبرز مصادر الطاقة المتجددة، التي يمكن استغلالها بشكل كبير في منطقة الساحل، وغربي إفريقيا. وسيساعد ذلك في تقليل الاعتماد على الوقود الأحفوري، وبالتالي تقليل التلوث، وتحسين الوضع الاقتصادي للمجتمعات المحلية.
- **دعم تطوير تقنيات الطاقة النظيفة:** لتحسين الوصول إلى الكهرباء في المناطق الريفية والنائية، مما يسهم في تحسين الظروف المعيشة، والحد من التوترات بين المجتمعات.

السيناريوهات المستقبلية

- **السيناريو الأول:** إذا تم تنفيذ إستراتيجيات التكيف والتخفيف بشكل فعال، بالتوازي مع تعزيز التعاون بين الدول، وتوفير الدعم الدولي؛ فمن الممكن أن تتحسن القدرة على إدارة الموارد الطبيعية، ممّا يقلل من حدة النزاعات، ويوفر بيئة أكثر استقرارًا. وفي هذا السيناريو، يمكن أن تصبح المنطقة أنموذجًا للتكيف مع التغير المناخي.
- **السيناريو الثاني:** إذا لم تتم مواجهة أزمة التغير المناخي بشكل فعال، واستمرت التحديات البيئية والاقتصادية في التصاعد، فإن المنطقة قد تشهد المزيد من الصراعات المسلحة على الموارد، مما يؤدي إلى المزيد من النزوح، وزيادة الفقر، والتوترات بين المجتمعات المحلية.
- **السيناريو الثالث «الانتقالي:»** وهذا السيناريو هو الأقرب إلى الواقع، ومن المحتمل أن تستمر بعض المناطق في مواجهة التحديات البيئية، لكن سيتم تبني الحلول الجزئية، التي تساعد على التخفيف من آثار الصراعات. وقد تتشكل تحالفات إقليمية جديدة، لكن التوترات قد تستمر في بعض المناطق، التي تواجه نقصًا حادًّا في الموارد.

الهوامش والإحالات

(١) في بوركينا فاسو، مع انتشار التمرّد الإسلامي في المناطق الشمالية والشرقية، أطاح الكابتن إبراهيم تراوري بالرئيس المؤقّت بول هنري سانداوغو داميبا في العام ٢٠٢٢م، وسط استياء عارم من مقاربته للقضايا الأمنية والاقتصادية. وفي العام ٢٠٢١م، ألقت القوات المسلّحة الغينية القبض على الرئيس ألفا كوندي، وحلّت الدستور والحكومة، وعيّنت ضابطًا عسكريًّا رئيسًا مؤقّتًا للبلاد. وشهدت مالي انقلابات متتالية في أقل من عام، وقد بلغت ذروتها باستيلاء العقيد أسيمي غويتا على السلطة، من القادة المدنيين الانتقاليين في العام ٢٠٢١م، وإطالة الحكم العسكري في البلاد حتى العام ٢٠٢٢م، وفي السودان، حلّ الجنرال عبدالفتاح البرهان الحكومة الانتقالية، واعتقل القادة المدنيين في العام ٢٠٢١م، وهو ما أشعل قتالًا مسلّحًا مستمرًّا حتى اليوم.

(2) Tor Benjaminsen, "Does climate change cause conflicts in the Sahel? " *International Institute for Environment and Development*, September 13, 2016, https://www.iied.org/does-climate-change-cause-conflicts-sahel.

(3) IPCC, Cli*mate Change and Land* (Geneva: IPCC, 2024), https://www.ipcc.ch/srccl/.

(4) "ECOWAS, CILSS and WAEMU communique on COP26 and climate change," *ECOWAS*, November 11, 2021, https://ecowas.int/ecowas-cilss-and-waemu-communique-on-cop26-and-climate-change/.

(5) Patrick Huntjens and Katharina Nachbar, "Working Paper 9: Climate change as a threat multiplier for human disaster and conflict," *The Hague Institute for Global Justice*, May 2015, https://thehagueinstituteforglobaljustice.org/wp-content/uploads/2023/07/working-Paper-9-climate-change-threat-multiplier.pdf.

(6) Thomas Homer-Dixon, "Environmental scarcities and violent conflict: Evidence from cases," *International Security*, 19: 1, 1994, 5-7, https://homerdixon.com/wp-content/uploads/2017/05/Environmental-Scarcities-and-Violent-Conflict-Evidence-from-Cases.pdf.

(7) Laura Jaramillo, et al., *Staff Climate Note: Climate Challenges in Fragile and Conflict-Affected States* (Washington, DC: International Monetary Fund, 2023), 22 - 24, https://www.imf.org/en/Publications/staff-climate-notes/Issues/2023/08/24/Climate-Challenges-in-Fragile-and-Conflict-Affected-States-537797.

(8) Philip Adom, "The socioeconomic impact of climate change in developing countries over the next decades: A literature survey," *Heliyon*, 10: 15, 2024, 3 - 5, https://www.sciencedirect.com/science/article/pii/S2405844024111656.

(9) Adom, "The socioeconomic impact of climate change in developing countries over the next decades: A literature survey," 6.

(10) Chas Sova, "The First Climate Change Conflict," *UN World Food Program*, November 30, 2017, 18, https://www.wfpusa.org/articles/the-first-climate-change-conflict/.

(11) Sova, "The First Climate Change Conflict," 19.

(12) World Bank Group, *The World Bank in Africa* (Washington, DC: World Bank Group, 2024), https://www.worldbank.org/en/region/afr/overview#1.

(13) Oluwole Ojewale, "Climate change and pastoralism contribute to the Sahel's conflict and insecurity," *Africa at LSE*, April 11, 2022, https://blogs.lse.ac.uk/africaatlse/2022/04/11/climate-change-and-pastoralism-are-part-of-the-sahels-conflict-and-insecurity/.

(14) Food and Agriculture Organization of the United Nations, *The State of the World's Forests 2016: Forests and Agriculture: Land-use Challenges and Opportunities* (Rome: FAO, 2016), 7.

(15) Food and Agriculture Organization of the United Nations, The State of the World's Forests 2016: *Forests, Biodiversity and People* (Rome: FAO, 2020), 6.

(16) Food and Agriculture Organization of the United Nations, *The State of the World's Forests 2020: Forests, Biodiversity and People* (Rome: FAO, 2020), 5, https://www.fao.org/publications/home/fao-flagship-publications/the-state-of-the-worlds-forests/en.

(17) Food and Agriculture Organization of the United Nations, *The State of the World's Forests 2020: Forests, Biodiversity and People, 8.*

(18) Amnesty International, *Violence in Northern Nigeria: Fulani herders and farmers caught in deadly conflict* (London: Amnesty International, 2023).

(19) "More than 100 Killed as herders, farmers clash in Central Nigeria," *France 24*, May 19, 2023, https://www.france24.com/en/africa/20230519-more-than-100-killed-as-herders-farmers-clash-in-central-nigeria.

(20) African Development Bank, *The Shrinking of Lake Chad and its Impact on the Region's Security* (Abidjan: African Development Bank, 2021), 26.

(21) African Development Bank, *The Shrinking of Lake Chad and its Impact on the Region's Security*, 28-29.

(22) Hamza Njoya, et al., "Climate change vulnerability and smallholder farmers' adaptive responses in the semi-arid Far North Region of Cameroon," Discover Sustainability, 3: 41, 2022, https://doi.org/10.1007/s43621-022-00106-6.

(23) Freedom Onuoha and Gerald Ezirim, "Climatic change and national security: Exploring the conceptual and empirical connections in Nigeria," *Journal of Sustainable Development in Africa*, 12: 4, 2010, 255–269.

(24) United Nations Environment Programme, *Climate Change and Terrorism: The Link Between Climate Vulnerability and Armed Conflict in Africa* (Nairobi: UNEP, 2023).

(25) United Nations Development Programme, *Conflict Analysis in the Lake Chad Basin 2020 – 2021* (Dakar: UNDP, 2022), https://www.undp.org/africa/waca/publications/conflict-analysis-lake-chad-basin.

(26) Institute for Economics & Peace, *Global Terrorism Index 2024: Measuring the Impact of Terrorism* (Sydney: IEP, 2024), https://www.economicsandpeace.org/wp-content/uploads/2024/02/GTI-2024-web-290224.pdf.

(27) kheira Tariff, *Climate Change and Violent Conflict in West Africa: Assessing the Evidence* (Solna: SIPRI Insights on Peace and Security, 2022), 4-6, https://www.sipri.org/sites/default/files/2022-02/sipriinsight2203_ccr_west_africa_0.pdf.

(28) Tariff, *Climate Change and Violent Conflict in West Africa: Assessing the Evidence*, 7.

(29) Tariff, *Climate Change and Violent Conflict in West Africa: Assessing the Evidence*, 7

العملات المشفرة في إفريقيا: دوافع الاهتمام والمخاطر المرتقبة

هايدي الشافعي، باحثة بالمركز المصري للفكر والدراسات الإستراتيجية، القاهرة.

أصبحت العملات المشفرة أداة شائعة بشكل متزايد، لإجراء المعاملات المالية في جميع أنحاء العالم في السنوات الأخيرة؛ فقد أعادت تشكيل الأنظمة المالية التقليدية، وقدّمت نماذج جديدة لنقل القيمة والاستثمار والابتكار. وتشهد القارة الإفريقية بشكل خاص اهتمامًا متزايدًا بالعملات المشفرة؛ حيث برزت إفريقيا كأسرع سوق للعملات المشفرة نموًّا بين الاقتصادات النامية، على الرغم من حصتها الصغيرة في اقتصاد العملات المشفرة العالمي، ما يسترعي الاهتمام نحو دراسة حالة العملات المشفرة في القارة الإفريقية، وما يمكن أن ينطوي عليه تبنيها من فرص وتحديات لإفريقيا.

في هذا السياق، تتناول هذه الورقة العملات المشفرة في إفريقيا، من حيث: الوضع الحالي لسوق العملات المشفرة الإفريقي، ودوافع استخدامها، والتحديات التي تواجه العملات المشفرة في إفريقيا.

أولًا- فهم طبيعة العملات المشفرة

تمثّل العملات المشفرة عصرًا جديدًا من التكنولوجيا المالية، وهي عبارة عن عملات أو أصول رقمية افتراضية، تعمل بطريقة لا مركزية، ممّا يعني أنّها لا تخضع لسيطرة أي سلطة مركزية، وتعمل مستقلة عن البنوك ومؤسسات الدفع الأخرى، ويتم تأمينها عن طريق التشفير، باستخدام تقنية البلوك تشين- Blockchain ،[١] وتتميز بالشفافية؛ إذ يمكن لأي شخص لديه إمكانية الوصول إلى جهاز كمبيوتر واتصال بالإنترنت، الوصول إلى الشبكة الخاصة بالعملات المشفرة، في أي مكان حول العالم، وتعدّ العملات المشفرة نوعًا مخصصًا من العملات الرقمية، التي يتم التحكم بها من قبل منشئيها.[٢]

وأوضحت دراسة لـ «John Kiarie» بعنوان: « تأثير العملات المشفرة على السوق المالية في كينيا- Effect of Crypto Currency on Financial Market in Kenya»، أن العملات المشفرة ظهرت في أوائل الثمانينيات، في محاولة لإنشاء عملة لا مركزية للتداول عبر الإنترنت، وكانت تُعرف آنذاك باسم «العملة الإلكترونية»، وتم تحسين الفكرة بشكل أكبر في التسعينيات؛ ففي عام ١٩٩٣م، اخترع عالم الرياضيات «ديفيد تشوم» ما

يقال بأنها أول عملة مشفرة إلكترونية، ومع حدوث الأزمة المالية العالمية عام ٢٠٠٨م، فقدَ عدد من الناس ثقتهم في العملة المادية والنظام المالي، وظهرت أول عملة مشفرة، والمعروفة باسم بيتكوين-Bitcoin في العام نفسه،[٣] وكان هدفها الرئيس هو جعل المدفوعات للمعاملات عبر الحدود أسرع، وأرخص، وأكثر موثوقية. وعند إطلاق البيتكوين، كانت قيمتها تساوي دولارًا أمريكيًّا واحدًا، مقابل بيتكوين واحد، وبحلول ٢٥ يناير عام ٢٠٢٥م، وصلت البتكوين إلى أعلى قيمة لها بنحو ١٠٤ آلاف دولار، مقابل البتكوين الواحد.[٤]

وتبع ظهور العديد من العملات المشفرة الأخرى، وابتداء من الربع الرابع من عام ٢٠٢٤م، كان هناك أكثر من ٢٣٠٠٠ عملة مشفرة، بقيمة سوقية مجمعة تتجاوز ٢ تريليون دولار أمريكي،[٥] ومع ذلك، فإن العملات الأكثر شهرة هي: بيتكوين (BTC)، وإيثريوم (ETH)، وريبل (XRP)، وتيثير (USDT)، وبيتكوين كاش (BCH)، وبيتكوين إس في (BSV)، ولايتكوين (LTC).[٦]

ثانيًا- حالة العملات المشفرة في إفريقيا

وقد شهدت القارة الإفريقية عدة مراحل في تبنّي العملات المشفرة، حيث تميّزت المرحلة الأولية منذ نشأة العملات المشفرة، بالفضول والاستكشاف الحذر، وبحلول عام ٢٠١٤م، أثبتت شركة BitPesa الرائدة في كينيا الفائدة العملية لعملة البيتكوين في تسهيل المعاملات عبر الحدود، بطريقة أسرع وأرخص من المعاملات التقليدية، وكان نجاح BitPesa نقطة الانطلاق للعملات المشفرة، ليس فقط في كينيا، ولكن في العديد من الدول الإفريقية، وتلا ذلك مرحلة انتشار تبني العملات المشفرة في إفريقيا، وبدأت دول مثل: نيجيريا، وكينيا، وجنوب إفريقيا، بالحصول على مراكز متقدمة، في المؤشرات العالمية المتعلقة بالعملات المشفرة.[٧]

وسنوضح في هذا الجزء حالة العملات المشفرة في القارة الإفريقية، وفقًا لـــ: حجم السوق، وعدد المستخدمين، ووضع التنظيم لسوق العملات المشفرة في إفريقيا.

١- حجم سوق العملات المشفرة في إفريقيا

تعدّ إفريقيا أسرع سوق للعملات المشفرة نموًّا بين الاقتصادات النامية، بالإضافة إلى كونها ثالث أسرع سوق نموًّا في العالم.[٨] ومع ذلك، تمتلك منطقة إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى، أصغر حصة في اقتصاد العملات المشفرة العالمي، حيث تمثل ٢,٧٪ من حجم المعاملات في جميع أنحاء العالم، في الفترة ما بين يوليو عام ٢٠٢٣ ويونيو عام ٢٠٢٤م، وهو انعكاس لإجمالي الناتج المحلي الإجمالي الأصغر للمنطقة، مقارنة بالمناطق الأخرى. وشهدت المنطقة نموًّا متواضعًا؛ حيث تلقت ما يقدر بنحو ١٢٥ مليار دولار من العائدات، خلال الفترة من يوليو عام ٢٠٢٣ حتى يونيو عام ٢٠٢٤م، بزيادة قدرها ٧,٥ مليارات دولار، مقارنة بالفترة من يوليو عام ٢٠٢٢ حتى يونيو عام ٢٠٢٣م.[٩]

شكل (١): حصة إفريقيا جنوب الصحراء من معاملات العملات المشفرة خلال الفترة من يوليو عام ٢٠٢٣ إلى يونيو عام ٢٠٢٤م

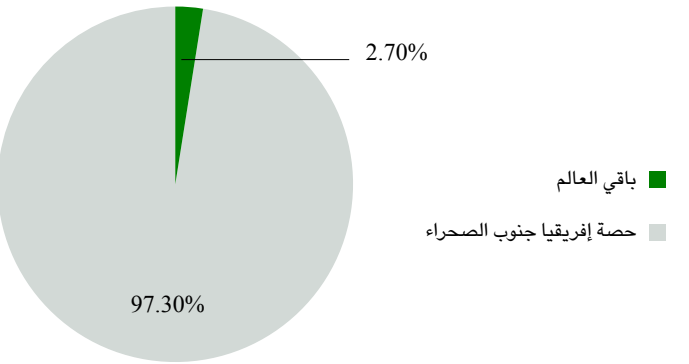

Source: Chainalysis: "Sub-Saharan Africa: Nigeria Takes #2 Spot in Global Adoption, South Africa Grows Crypto-TradFi Nexus", *Chainalysis*. October 2, 2024.
https://www.chainalysis.com/blog/subsaharan-africa-crypto-adoption-2024/

شكل (٢): حصة إجمالي قيمة معاملات العملات المشفرة حسب المنطقة

Q2 2022 - Q2 2024

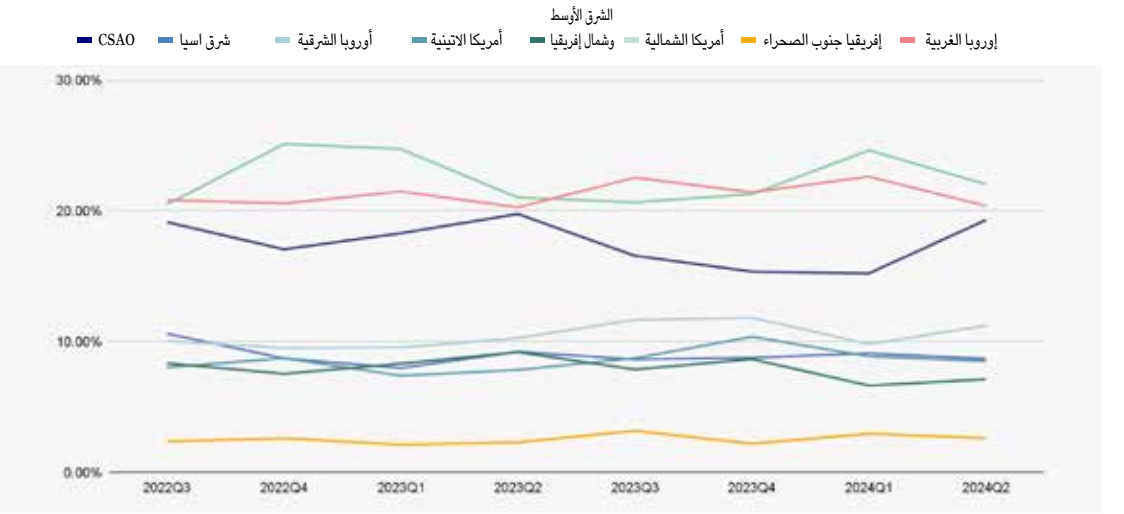

Source: Chainalysis: "Sub-Saharan Africa: Nigeria Takes #2 Spot in Global Adoption, South Africa Grows Crypto-TradFi Nexus", *Chainalysis*. October 2, 2024.
https://www.chainalysis.com/blog/subsaharan-africa-crypto-adoption-2024/

وكما يتّضح من الشكلين (١و٢) فإن إفريقيا جنوب الصحراء تمتلك أقل حصة من معاملات العملات المشفرة في العالم (٢,٧٪)، بينما تستحوذ أمريكا الشمالية على أعلى حصة بنحو (٢٢٪)، تليها أوروبا الغربية بنحو (٢٠,٢٪)، فيما استحوذت منطقة الشرق الأوسط وشمالي إفريقيا على حصة تصل إلى حوالي (٧٪) من قيمة معاملات العملات المشفرة في السوق العالمي.

وتعدّ نيجيريا هي الدولة الأولى في إفريقيا، والثانية على مستوى العالم، في مؤشر تبني العملات المشفرة العالمي لعام ٢٠٢٤م. وفيما يتعلق بقيمة تدفّقات العملات المشفرة (وتشير إلى إجمالي قيمة العملات المشفرة التي يتم تداولها أو تحويلها خلال فترة زمنية معينة)، تلقت نيجيريا ما يقرب من ٥٩ مليار دولار من تدفقات العملات المشفرة، بين يوليو عام ٢٠٢٣ ويونيو عام ٢٠٢٤م.[١٠] ويوضح الشكل (٣) أعلى عشر دول في إفريقيا جنوب الصحراء، من حيث قيمة تدفقات العملات المشفرة.

شكل (٣): أعلى عشر دول في إفريقيا جنوب الصحراء من حيث قيمة تدفقات العملات المشفرة في الفترة من يوليو عام ٢٠٢٣ حتى يونيو عام ٢٠٢٤م.

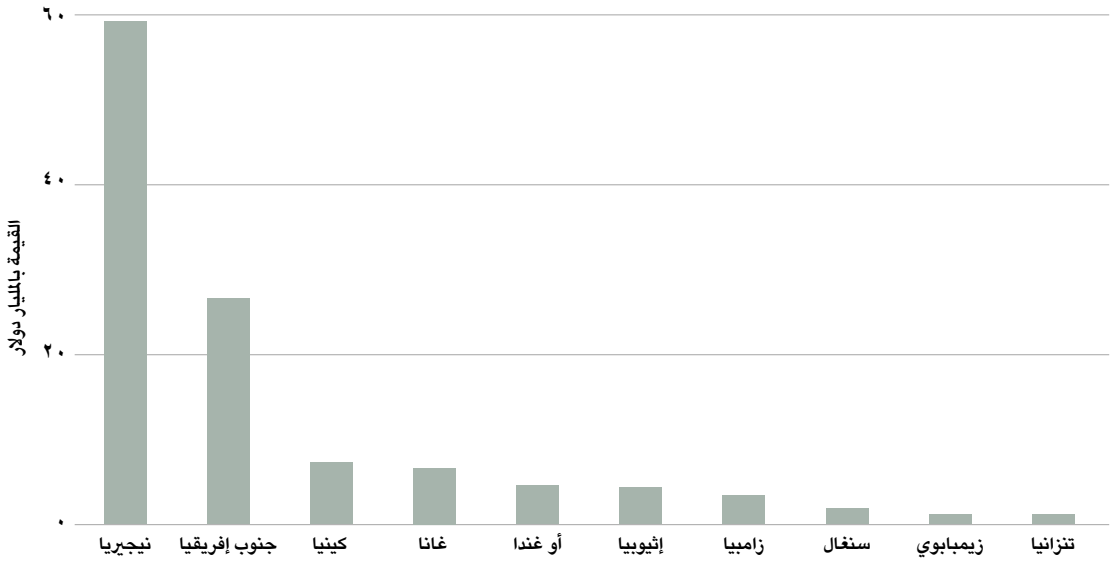

Source: Chainalysis: "Sub-Saharan Africa: Nigeria Takes #2 Spot in Global Adoption, South Africa Grows Crypto-TradFi Nexus", *Chainalysis*. October 2, 2024.
https://www.chainalysis.com/blog/subsaharan-africa-crypto-adoption-2024/

وتأتي جنوب إفريقيا في المرتبة الثانية بعد نيجيريا بحوالي (٢٧ مليار دولار)، ثم كينيا (٧ مليارات دولار)، وغانا (٦,٥ مليارات دولار)، كما تشمل قائمة الدول العشر صاحبة أعلى تدفقات للعملات المشفرة في إفريقيا، جنوب الصحراء، كذلك دولًا أخرى مثل: أوغندا، وإثيوبيا، وزامبيا، والسنغال، وزيمبابوي، وتنزانيا.

وأمّا ما يتعلق بمؤشر ملكية العملات المشفرة (وهو يشير إلى نسبة السكان في دولة ما، الذين يمتلكون عملات مشفرة)، فتأتي جنوب إفريقيا في المركز الأول إفريقيا، والرابع عشرة عالميًّا، وفقًا لتقرير (Triple.A, 2024)، حيث امتلك نحو ١٢,٤٪ من سكانها عملات مشفرة في عام ٢٠٢٤م[١١]

٢- عدد مستخدمي العملات المشفرة في إفريقيا

احتلت إفريقيا المرتبة الثالثة عالميًّا بواقع ٤٤ مليون مستخدم للعملات المشفرة في يونيو عام ٢٠٢٤م، متقدمة بذلك على أوروبا وأميركا الجنوبية، وفقًا لتقرير نشره موقع «The Africa report»[١٢]، بينما أشار تقرير آخر لشركة "Statista"، إلى أن عدد المستخدمين في سوق العملات المشفرة في إفريقيا، من المتوقع أن يصل إلى نحو ٥٣,٨٩ مليون مستخدم، بحلول عام ٢٠٢٥م،[١٣] يتوافق ذلك مع تقرير صادر عن «مركز روتليدج للأبحاث- Routledge Open Research»، يفيد بأن إفريقيا في عام ٢٠٢٣م أصبحت تستضيف ثاني أكبر عدد من حاملي العملات المشفرة في العالم (حوالي ٥٥ مليونًا) بعد آسيا وأمريكا الشمالية. ويشير التقرير إلى أن نيجيريا تمتلك ثالث أكبر احتياطيات بيتكوين في العالم، كنسبة مئوية من الناتج المحلي الإجمالي، وتضم أكثر من ٤٧٪ من مستخدمي البتكوين في العالم.[١٤]

٣- «العملات المستقرة» تقود سوق العملات المشفرة في إفريقيا

تشكّل العملات المستقرة(١٥)جزءًا رئيسًا من اقتصاد العملات المشفرة، في منطقة إفريقيا جنوب الصحراء؛ فاكتسبت العملات المستقرة المرتبطة بالدولار مثل USDT و USDC زخمًا، حيث توفر للشركات والأفراد على حد سواء، طريقة موثوقة لتخزين القيمة، وتسهيل المدفوعات الدولية، ودعم التجارة عبر الحدود. وتمثل العملات المستقرة ما يقرب من ٤٣٪ من إجمالي حجم معاملات العملات المشفرة في المنطقة، يليها البتكوين بنسبة (١٨,١٪).(١٦)ويوضح الشكل (٤) أعلى ٧ دول في منطقة إفريقيا جنوب الصحراء، من حيث تدفقات العملات المستقرة.

الشكل (٤): تدفقات العملات المستقرة في إفريقيا جنوب الصحراء حسب الدولة، خلال الفترة من يوليو عام ٢٠٢٣ حتى يونيو عام ٢٠٢٤م

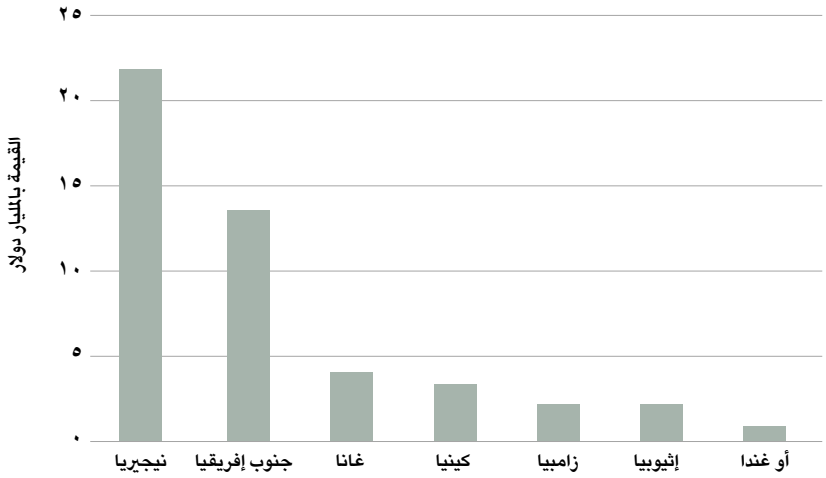

Source: Chainalysis: "Sub-Saharan Africa: Nigeria Takes #2 Spot in Global Adoption, South Africa Grows Crypto-TradFi Nexus", *Chainalysis*. October 2, 2024.
https://www.chainalysis.com/blog/subsaharan-africa-crypto-adoption-2024/

وتأتي نيجيريا في صدارة الدول الإفريقية المستخدمة للعملات المستقرة بحوالي (٢٢ مليار دولار)، وهي بذلك تستحوذ على ما يقرب من ٤٠٪ من جميع تدفقات العملات المستقرة في المنطقة، تليها جنوب إفريقيا (١٤ مليار دولار)، ثم غانا (٤ مليارات دولار)، وكينيا (٣,٥ مليارات دولار).

٤- تنظيم العملات المشفرة في إفريقيا

تباينت المواقف التنظيمية في العديد من الدول الإفريقية، وتراوحت بين التأييد الحذر، والقيود الصارمة، فيما لم يوضح ما يزيد على نصف الهيئات التنظيمية الإفريقية موقفها بشأن العملات المشفرة. وتعدّ جمهورية إفريقيا الوسطى أول دولة إفريقية، تعترف بالبتكوين كعملة قانونية. ومنذ عام ٢٠٢٢م، كانت واحدة من دولتين فقط على مستوى العالم إلى جانب السلفادور، تعترفان بالبتكوين كعملة قانونية، كما عملت دول مثل موريشيوس على تقديم بيئة تنظيمية، تسمح بنمو العملات المشفرة منذ عام ٢٠١٨، ووضعت لها قوانين تحكم وتنظم معاملاتها منذ فبراير عام ٢٠٢٢م، بينما لا تزال دول مثل جنوب إفريقيا وكينيا، تسعى إلى تبني تدابير تسوية، ووضع أطر تنظيمية للتنقل في هذا القطاع، وفي تلك الحالات الأخيرة، لا تكون العملات المشفرة غير قانونية، ولكنها فقط، غير خاضعة للتنظيم.[١٧]

ومن جهة أخرى، حظرت العديد من الدول الإفريقية العملات المشفرة، أو فرضت عليها قيودًا، بسبب تعقيد تتبع معاملات العملات المشفرة، وهو ما يثير مخاوف، مثل: استخدام العملات المشفرة في غسل الأموال، والأنشطة غير المشروعة، والتهرب الضريبي، والاحتيال المالي، ومن الأمثلة على تلك الدول: مصر، وتونس، والجزائر، والمغرب، وسيراليون، وجمهورية الكونغو، وغانا، وليسوتو، وتنزانيا، والكاميرون، وناميبيا. وتجدر الإشارة هنا، إلى أن الحظر الرسمي لاستخدام العملات المشفرة، لا يعني بالضرورة عدم استخدامها في تلك الدول، وإنما يعبر عن الموقف الرسمي للدولة، بينما قد يتم استخدام العملات المشفرة من السكان بشكل غير رسمي، وغير قانوني، وعلى سبيل المثال: تحظر غانا التعامل بالعملات المشفرة، ومع ذلك تعدّ الدولة الواقعة في غربي إفريقيا لاعبًا مهمًّا، في معاملات العملات المشفرة داخل إفريقيا جنوب الصحراء، حيث احتلت المركز الثالث في استخدام العملات المستقرة، بعد كل من نيجيريا، وجنوب إفريقيا.[١٨]

وحتى نيجيريا التي تعدّ رائدة العملات المشفرة في إفريقيا، لم يكن وضع التعامل في العملات المشفرة مستقرًّا فيها على مدى السنوات الماضية؛ ففي عام ٢٠٢١م، أصدر البنك المركزي النيجيري أمرًا إلى جميع البنوك، بإغلاق حسابات العملاء الذين يتعاملون في معاملات العملات المشفرة، ولكن ألغت الهيئة التنظيمية المالية الحظر في ديسمبر عام ٢٠٢٣م.[١٩]

ومع ذلك، فلا يزال من المبكر القول: إلى أي مدى ستصبح العملات المشفرة مُعتمَدة على نطاق واسع في إفريقيا، بالنظر إلى التغيرات السريعة التي طرأت على التعامل بالعملات المشفرة، منذ نشأتها حتى الآن، وانتشارها على نطاق عالمي، وسرعة نموها، فضلًا عن توجه الرئيس الأمريكي «دونالد ترامب» إلى تبنيها على نطاق واسع، وهو ما قد يؤثر على سوق العملات المشفرة العالمي، وقرارات بعض الدول حول تبنيها، أو تنظيمها في المستقبل.

ثالثًا- دوافع استخدام العملات المشفرة في إفريقيا

يوضح التبني المتزايد للعملات المشفرة في إفريقيا، كيف أن الأفارقة لا يسعون إلى الثروة فحسب، بل يستفيدون بنشاط من العملات المشفرة، للتغلب على التحديات المتأصلة في بيئتهم الاجتماعية والاقتصادية، وتوفير بديل عن العملات التقليدية،[٢٠] ويمكن القول: إن اهتمام الدول الإفريقية بالاستثمار في العملات المشفرة، يرجع إلى العديد من الأسباب والدوافع، ومن أبرزها:

١- التحوط ضد التضخم وانخفاض قيمة العملة

تلعب الأصول المشفرة دورًا في حماية الاقتصادات من الطبيعة المتقلبة للعملات الورقية والتضخم؛ ففي البلدان التي تواجه انخفاض قيمة العملة، أصبحت العملات المشفرة، وخاصة العملات المستقرة ملاذًا

للحفاظ على الثروة؛ ففي نيجيريا وغانا - على سبيل المثال - حيث شهدت النيرة والسيدي انخفاضًا كبيرًا في القيمة، يتجه الأفراد بشكل متزايد إلى العملات المستقرة، مثل: USDT للحفاظ على قيمة مدخراتهم.[٢١]

٢- تحسين كفاءة التحويلات المالية

يعدّ إرسال الأموال واستقبالها عبر الحدود تحديًّا شائعًا في إفريقيا؛ حيث يُحوِّل المهاجرون من بلدان إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى مليارات الدولارات سنويًّا إلى بلدانهم الأصلية، لدعم أسرهم، أو الاستثمار في الاقتصاد المحلي، وغالبًا ما تعوقه الرسوم المرتفعة، وأوقات المعالجة البطيئة، التي قد تصل إلى عدة أيام، وتقدم العملات المشفرة بديلًا سريعًا وفعّالًا من حيث التكلفة،[٢٢] فعلى سبيل المثال؛ يبلغ متوسط تكلفة إرسال تحويلات مالية بقيمة ٢٠٠ دولار، من إفريقيا جنوب الصحراء، أقل بنحو ٦٠٪ عند استخدام العملات المستقرة، مقارنة بطرق التحويل التقليدية، التي تسهلها العملة الورقية،[٢٣] كما يمكن للعملات المشفرة معالجة المعاملات بدقائق، أو حتى ثوانٍ باستخدام تقنية Blockchain، ومع ذلك، فقد تختلف السرعة اعتمادًا على العملة المشفرة المستخدمة، وازدحام الشبكة في وقت المعاملة.

٣- إمكانية الوصول

يمكن لأي شخص الوصول إلى العملات المشفرة، وذلك باستخدام جهاز محمول متصل بالإنترنت، بغضّ النظر عن موقعه الجغرافي، أو وضعه المالي، ولا يشترط وجود حساب بنكي. وفي إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى، يمتلك ٤٩٪ من البالغين حسابات مصرفية، ما يعني أن حوالي نصف عدد البالغين في القارة الإفريقية، لا يملكون حسابات مصرفية، وبالتالي تقدم العملات المشفرة بديلًا مناسبًا لهؤلاء، ومع ذلك فهناك قدر كبير من التباين في ملكية الحسابات، يتراوح من ٦٪ في جنوب السودان، إلى ٩١٪ في موريشيوس.[٢٤] وبالإضافة لذلك، فإن من شأن الوصول السهل للعملات المشفرة من أي مكان، أن يساعد في التمكين الاقتصادي للأفراد في المناطق النائية، أو التي تعاني نقص الخدمات، ممّا يسمح لهم بالتفاعل مع الاقتصاد العالمي، بطرق كانت مستحيلة في السابق.[٢٥]

٤- تعزيز الشمول المالي

أسهم النمو الذي شهده قطاع التكنولوجيا المالية في إفريقيا، وبشكل خاص في دول إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى، مثل: نيجيريا، وكينيا، وجنوب إفريقيا، في استعداد الأفارقة لتبني التغييرات التكنولوجية الجديدة، وخاصة ما يتعلق بالتمويل، ويمكن للبلدان الإفريقية استخدام تكنولوجيا العملات المشفرة لتعزيز الشمول

المالي، وخفض تكاليف المعاملات، وعلى سبيل المثال: يمكن للبلدان الإفريقية الاستفادة من تطبيقات الدفع عبر الهاتف المحمول، التي تستخدم العملات المشفرة، لتسهيل إرسال واستقبال الأموال على الأشخاص في المناطق الريفية، أو الذين لديهم وصول محدود إلى الخدمات المالية التقليدية، ومن ثم مساعدة الدول الإفريقية في إنشاء نظام مالي أكثر شمولًا.[٢٦]

٥- سهولة إجراء المعاملات

في المعاملات المصرفية التقليدية، قد ينطوي صرف وتحويل العملات على إجراءات معقدة، ورسوم مرتفعة، وأحيانًا تأخيرات، بينما يمكن أن تساعد العملات المشفرة في تبسيط العملية بشكل ملحوظ؛ حيث تتيح العديد من المنصات والمحافظ الرقمية للمستخدمين، تبادل العملات المشفرة المختلفة، أو تحويلها إلى عملات ورقية في الوقت الفعلي دون عناء، ويمكن القيام بذلك من أي مكان في العالم ببضع نقرات فقط، وغالبًا بأسعار صرف تنافسية، ودون التقييد بمبالغ معينة، ما يجعلها خيارًا جذابًا للمسافرين والشركات الدولية، ولأي شخص يحتاج إلى التعامل مع عملات متعددة، بأقل قدر من الإجراءات.[٢٧]

٦- فرصة لتعزيز التجارة في سياق منطقة التجارة الحرة القارية الإفريقية

تعدّ اتفاقية منطقة التجارة الحرة القارية الإفريقية (AfCFTA) إحدى الأدوات الأساسية لتحقيق التكامل الاقتصادي بين دول القارة الإفريقية، وتمثل نقطة تحول محتملة لاقتصادات إفريقيا، سواء على الصعيد القاري أو العالمي، ومع ذلك، تواجه الاتفاقية عدة تحديات، ومن بينها: عدم وجود عملة موحدة للقارة الإفريقية.

وفي هذا السياق، يشير تقرير صادر عام ٢٠٢٤م، عن اللجنة الاقتصادية لإفريقيا، التابعة للأمم المتحدة، بعنوان: «دراسة حول العملات المشفرة والأصول المشفرة في شرق إفريقيا»، إلى أنه في غياب عملة رسمية على مستوى القارة، تقدم العملات المشفرة وسيلة قابلة للتطبيق للتبادل، وتسهيل عملية الدفع في جميع أنحاء القارة؛ حيث إن التنوع الواسع في العملات المشفرة يعني أن الشركات لديها خيارات مختلفة للاختيار من بينها، لتناسب احتياجاتها الفريدة. ومع تزايد اعتماد العملات المشفرة في العالم والمنطقة، فإنه يمكن الاستفادة من مزايا هذه العملات، لتسريع وتأمين المدفوعات، وتسهيل المعاملات عبر الحدود، ويمكن أن يساعد ذلك على التخفيف من الآثار التجارية الناجمة عن تقلب أسعار الصرف، والتي تؤثر في بعض الأحيان سلبًا على الأسواق الناشئة، والتجارة عبر الحدود.[٢٨]

كما إن نظام التمويل اللامركزي Decentralized Finance (DeFi)، القائم على استخدام العملات المشفرة، وخاصة العملات المستقرة، قد يكون خيارًا مناسبًا، قادرًا على توفير منتجات وخدمات مالية سريعة وسهلة

الوصول، مثل: الائتمان والإيداع؛ حيث إن هذه الإمكانات غير المستغلة في تمويل التجارة، من شأنها أن تسهل على الشركات الصغيرة والمتوسطة الحجم، المشاركة في الفرص التجارية، التي توفرها منطقة التجارة الحرة القارية الإفريقية في مختلف أنحاء القارة.[٢٩]

رابعًا- التحديات التي تواجه العملات المشفرة في إفريقيا

في حين أن العملات المشفرة لها مزايا، إلّا أنّها تواجه تحدّيات ومخاطر رئيسة، وتثير قضايا مهمة، وتتمثل أبرز تلك التحديات فيما يأتي:

١- قضية حماية البيانات الشخصية

تعدّ حماية البيانات الشخصية قضية رئيسة، في استخدام التكنولوجيا المالية بشكل عام، وبدون أي تنظيم، ولا يمكن لمنصات تداول العملات المشفرة، وضع قواعد لحماية بيانات الأشخاص الذين يستخدمون هذه المنصات، وهذا يمثل قضية خطيرة، تُعرِّض مستخدمي العملات المشفرة في هذه البلدان لخطر اختراق حساباتهم، وسرقة بياناتهم الشخصية، ومن ثم الاستيلاء على أموالهم.[٣٠]

ومن جهة أخرى، وعلى الرغم من أن البعض يزعم أن تقنية: البلوك تشين، هي وسيلة أكثر أمانًا لإجراء المعاملات، فإن الجانب السلبي بالأكيد، هو أنه إذا فقدت مفتاحك الخاص، وتم السطو على حسابك، فلن تكون هناك طريقة لاستعادة أموالك. وقد تضاعفت عمليات الاحتيال بالعملات المشفرة خلال السنوات الماضية؛ ففي عام ٢٠٢٠م، تعرض حوالي ٣٠٠ ألف مستخدم في منصة Mirror Trading International (MTI) للاحتيال، بما يعادل ٥٨٨ مليون دولار أمريكي من عملات البيتكوين، وفي عام ٢٠٢١م، تمت إحدى أكبر عمليات الاحتيال في البيتكوين، وكانت تتعلق بشركة Africrypt، وهي شركة يزعم أن مؤسسيها سرقوا ٦٩ ألف عملة بيتكوين من بعض المستثمرين، أي ما يقرب من ٣,٦ مليار دولار أمريكي، عن طريق نقل حسابات العملاء ومحافظهم إلى شبكة الإنترنت المظلمة -Dark web.[٣١]

٢- مخاطر الخصوصية وتمويل الأنشطة غير المشروعة

في العصر الرقمي الحالي، أصبحت الخصوصية مصدر قلق متزايد، وخاصة في المعاملات المالية، وفي سياق العملات المشفرة، تُعَد الخصوصية سلاحًا ذا حدين؛ فمن ناحية، تُسجَّل المعاملات في سجل عام، ممّا يضمن الشفافية، ومن ناحية أخرى، فغالبًا ما تكون هويات الأطراف المعنية غامضة، ولا يتم تمثيلها إلّا من خلال عناوين مشفرة، وبالتالي يكون من الصعب الكشف عن هوية المستخدمين. وعلى الرغم من أن هذا الإجراء

يحافظ على خصوصية المستخدمين، إلّا أنّه يثير مخاوف بشأن إساءة الاستخدام المحتملة للأنشطة غير المشروعة، حيث يصبح من المستحيل تتبع من يتحكم في العملات المشفرة المتداولة، إذا كان هناك نشاط غير مشروع، ويجعل من العملات المشفرة وسيلة مفضلة للتداولات المشبوهة، بما في ذلك غسيل الأموال، وتمويل الإرهاب.[٣٢] علاوة على ذلك، فإن القدرة على التداول بسرعة بين العملات المشفرة المختلفة، تمكن من إجراء معاملات متعددة للأموال غير المشروعة في وقت قصير، لإخفاء مسار الأموال بشكل فعال، ومن ثم، إذا كانت المعاملات غير المشروعة عبر الحدود، وهو ما يحدث غالبًا، فإن الإشراف والتنفيذ سيكون مستحيلًا، بدون تعاون تنظيمي دولي منسق.[٣٣]

٣- أصول عالية المخاطر

تظل العملات المشفرة واحدة من الأصول الأكثر خطورة في السوق، نظرًا للتذبذب الحاد والسريع في قيمة هذه العملات، فوفقًا لإحصائيات Statista، بلغ التقلب السنوي للعملات المشفرة الأعلى تقلّبًا ١٦٢٪ في عام ٢٠٢١م، ومع ذلك، يختلف هذا التقلب من عملة مشفرة إلى أخرى، كما هو موضح في الشكل أدناه؛ ففي عام ٢٠٢١م، كانت «Solana» هي العملة المشفرة الأكثر تقلبًا، مع تقدير التقلب السنوي بنحو ١٦٢٪. وتبعتها XRP وBnB وPolkadot وCardano وEthereum وBitcoin على التوالي.[٣٤]

الشكل(٥) : العملات المشفرة الأكثر تقلبًا في عام ٢٠٢١م

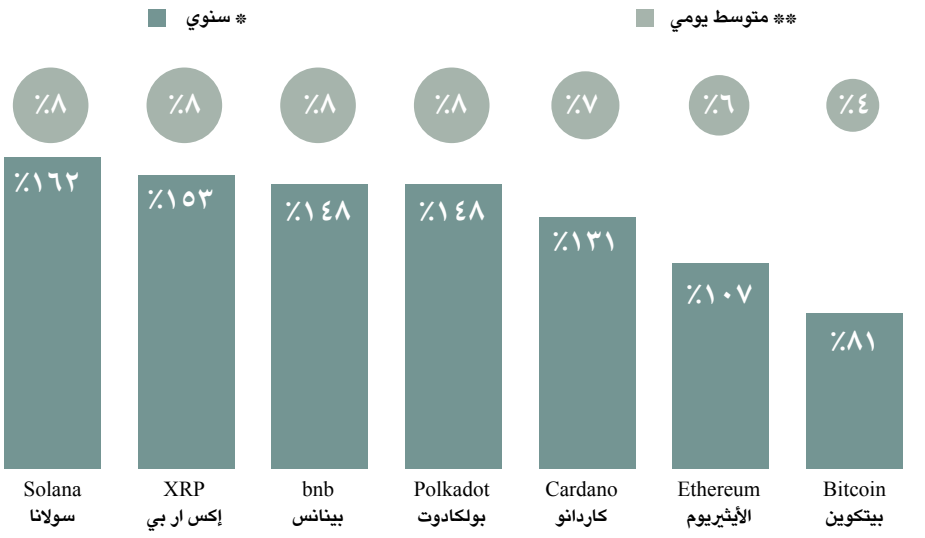

* التقلب الويمي لكل عملة على مدى فترة عام واحد
** متوسط الفرق بين السعر في يوم معين ومتوسط السعر في عام ٢٠٢١

Source: Statista Digital Economy Compass

بالإضافة لذلك، يؤكد الانهيار الذي شهدته سوق العملات المشفرة، خلال الفترة من منتصف نوفمبر عام ٢٠٢١ إلى يونيو عام ٢٠٢٢م، الطبيعة الخطرة لهذه الأصول؛ حيث فقدت القيمة السوقية للعملات المشفرة ٧٣,٥٣٪ من قيمتها، ما أدى إلى حدوث ضغوط هائلة على منصات تداول العملات المشفرة، والتي انتهت بإفلاس شركة Celsius Network Ltd4.[٣٥] ومن ثم، تثير هذه الطبيعة المتذبذبة والخطرة للعملات المشفرة، مخاوف لدى الدول الإفريقية من الآثار السلبية، التي قد تتركها على الاقتصادات، التي تعاني أصلًا الضعف والهشاشة في كثير من الأحيان.

٤- محدودية الوصول للإنترنت

تمثّل محدودية الوصول إلى الإنترنت، سواء لأسباب لوجستية أو معرفية، تحدّيًا أمام استخدام العملات المشفرة في القارة الإفريقية، ويجعل من الاعتماد عليها في كثير من الأحيان أمرًا يصعب تطبيقه عمليًّا. ويوضح الشكل (٦) عدد مستخدمي الإنترنت الفعليين والمتوقعين في إفريقيا حتى عام ٢٠٢٩م.

شكل (٦): عدد مستخدمي الإنترنت في إفريقيا من عام ٢٠١٤ حتى عام ٢٠٢٩م (*بالملايين)

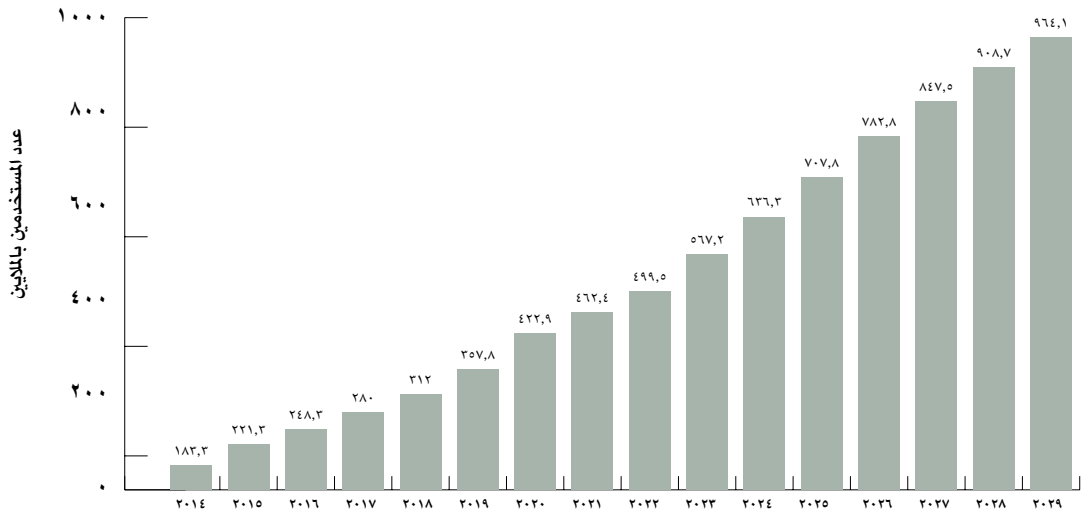

Source: Source: Statista, “Statista: Number of internet users in Africa from 2014 to 2029,” *Statista*, accessed February 7, 2025, https://www.statista.com/forecasts/1146636/internet-users-in-africa.

في عام ٢٠٢٤م، كان هناك حوالي ٦٣٦ مليون مستخدم للإنترنت في القارة الإفريقية، أي ما يعادل حوالي ٤٢٪ من سكان القارة فقط، ما يعني أن ما يقرب من ٦٠٪ من سكان القارة الإفريقية، ليس لديهم وصول للإنترنت، وهو شرط أساسي لتعاملات العملات المشفرة، وهو ما يحد من قدرتها على الانتشار في إفريقيا.

٥- تأثيرات سلبية على البيئة

تشير الدراسات إلى الأضرار البيئية لتعدين العملات المشفرة؛ فعلى سبيل المثال يعتمد تعدين البيتكوين، وهي أشهر العملات المشفرة، بشكل كبير على مصادر الطاقة الأحفورية؛ حيث يسهم الفحم بنسبة ٤٥٪ في مزيج إمدادات الطاقة للبيتكوين، يليه الغاز الطبيعي (٢١٪)، والطاقة الكهرومائية (١٦٪)، بينما توفر مصادر الطاقة المتجددة، مثل: الطاقة الشمسية، وطاقة الرياح ٢٪ و٥٪ فقط، وعلى التوالي، من إجمالي الكهرباء التي تستخدمها البيتكوين.[٣٦]

ويقدر استهلاك الطاقة لمعاملة بيتكوين واحدة، بأكثر من ٦٠٠ كيلو وات في الساعة، وهو ما يعادل استهلاك الطاقة لأسرة متوسطة لأكثر من ٢٢ يومًا؛ فخلال الفترة ٢٠٢٠-٢٠٢١م، استهلكت شبكة تعدين البيتكوين العالمية ١٧٣,٤٢ تيراواط ساعة من الكهرباء، وهذا يعني أنه إذا كانت البيتكوين دولة، فإن استهلاكها للطاقة سيحتل المرتبة ٢٧ عالميًّا، متجاوزًا دولًا مثل: باكستان، التي يبلغ عدد سكانها أكثر من ٢٣٠ مليون نسمة. وتقدر "البصمة الكربونية" الناتجة عن تعدين البتكين في تلك الفترة، ما يعادل حرق ٨٤ مليار رطل من الفحم، أو تشغيل ١٩٠ محطة طاقة تعمل بالغاز الطبيعي، فضلًا عن "بصمة مائية" مماثلة لكمية مياه، تكفي لتلبية احتياجات المياه المنزلية لأكثر من ٣٠٠ مليون شخص، في المناطق الريفية، في إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى.[٣٧]

٦- تحديات تنظيمية

تظل العملات الافتراضية غير خاضعة للتنظيم في أغلب الدول الإفريقية، وغالبًا ما يكون وضعها القانوني غير واضح، والمنصات التي تتداول هذه العملات غير منظمة محليًّا، وبالتالي لا توجد حماية للمستثمرين المحليين، الذين قد يخسرون جميع استثماراتهم، دون أي سبيل للانتصاف، في ظل الطبيعة المتقلبة لأسعار العملات المشفرة، وكذلك لا يوجد جهة مرجعية يمكن للمتضررين الرجوع إليها، وبالتالي، فإن المستخدم يعتبر مسؤولًا شخصيًّا عن جميع تعاملاته بها. ومن جهة أخرى، إذا تم تنظيم العملات المشفرة بشكل سيئ، فقد تؤدي إلى زعزعة استقرار النظام المالي.[٣٨]

٧- تهديد السيادة النقدية

وهناك قضية أخرى تثير قلقًا عميقًا لدى الدول الإفريقية، وهي التهديد المحتمل للسيادة النقدية في تلك الدول؛ فإذا ما أصبحت العملات المشفرة، تُستخدم على نطاق أوسع من العملات الورقية المحلية، فقد لا تتمكن الهيئات النقدية الوطنية من توجيه اقتصاداتها إلى مسار النمو، والتحكم في معروضها النقدي لمعالجة الركود أو التضخم باستخدام السياسة النقدية، وهو ما قد يؤثر سلبًا على سعر صرف العملات المحلية، ويضعف الاقتصادات الوطنية.[٣٩]

خاتمة وتوصيات

بشكل عام، لا تزال حالة العملات المشفرة في إفريقيا، رغم تطورها، في مراحلها المبكرة، مع وجود إمكانية لتحقيق نمو كبير في السنوات القادمة، مع تزايد تبني التكنولوجيا المالية في القارة الإفريقية. وعلى الرغم من المزايا المحتملة، التي يمكن أن تحققها العملات المشفرة للدول الإفريقية، فإن لها أيضًا عيوبًا وتحديات، قد تفوق الفوائد، إذا لم يتم تنظيمها والتحكم فيها بشكل جيد، وهو ما يستلزم من الدول الإفريقية، أن تكون حذرة في تبني هذه العملات.

ولتعظيم الاستفادة من مزايا العملات المشفرة، وتقليل التحديات والمخاطر المرتقبة لها، توصي الدراسة بما يأتي:

١- يمكن النظر بعناية في إجراء المزيد من الاختبارات، للمزايا المحتملة للعملات المشفرة، والدراسة المتعمقة والمتأنية لمخاطرها على الاقتصادات الوطنية للدول الإفريقية، للوقوف على قدرة الدولة على تبني، أو عدم تبني العملات المشفرة.

٢- وضع أطر تنظيمية وإشرافية مناسبة للعملات المشفرة، بما يتناسب مع السياق المحلي الخاص لكل دولة، يعدّ خطوة أولى بالغة الأهمية.

٣- تقدم العملات الرقمية للبنوك المركزية بديلًا موثوقًا، وخيارًا مناسبًا، للبدء بتبنيها وتقنينها، وتنظيم التعاملات فيها بالنسبة للدول الإفريقية، التي تعاني عدم الاستقرار الاقتصادي، وتخشى من تأثيرات العملات المشفرة اللامركزية على الاقتصاد الوطني.

٤- تنفيذ تدابير قوية للأمن السيبراني.

٥- تحتاج الدول الإفريقية إلى تحسين الاستثمار في البنية التحتية الرقمية، وتحديث أنظمة الدفع، وتحسين الثقافة الرقمية والمالية للمواطنين، والعمل على تحفيز وتسريع تنفيذ إستراتيجية التحول الرقمي لإفريقيا، لضمان وصول الإنترنت لكل الأفارقة.

٦- إطلاق حملات توعوية تعليمية، تهدف إلى تعزيز جوانب المعرفة في استخدام العملات المشفرة للأفراد، ممّا سيؤدي بدوره إلى تحسين استخدام هذه العملات، وبالتالي تعزيز الشمول المالي والتمكين الاقتصادي.

٧- تحليل وتقييم نشاط العملات المشفرة في المراجعات السنوية للحسابات الخاصة بالعملاء الأفراد والشركات، لتحديد الأنشطة عالية المخاطر، ومعرفة التغييرات غير العادية في نوع، أو نمط، أو حجم، معاملات العملات المشفرة، ما قد يشير إلى نشاط يستحق التدقيق، ويساعد في التنبيه على مشكلات محتملة، ويسهم في مكافحة الجرائم وغسيل الأموال.

الهوامش والإحالات

(1) Mohammad El Hajj and Imad Farran, "The Cryptocurrencies in Emerging Markets: Enhancing Financial Inclusion and Economic Empowerment," *Journal of Risk and Financial Management (JRFM),* 17: 10, 2024, 2.

(2) Thembelihle NcubeI and Ruddy KabweII, "The regulation of cryptocurrencies to combat money laundering crimes in South African banking institutions," *De Jure Law Journal*, 56: 1, 2023, 362.

(3) John Kiarie, "Effect of Crypto Currency on Financial Market in Kenya," *Journal of Finance and Accounting,* 4: 8, 2024, 31.

(4) "Bitcoin to dollar exchange rate," *Google Finance*, accessed on January 25, 2025, https://www.google.com/finance/quote/BTC-USD?sa=X&ved=2ahUKEwivmp-v56SLAxW3AfsDHRY7HL0Q-fUHegQICRAe&window=MAX.

(5) Jia Qi, Yu Zhang and Congrong Ouyang, "Cryptocurrency Investments: The Role of Advisory Sources, Investor Confidence, and Risk Perception in Shaping Behaviors and Intentions," *Journal of Risk and Financial Management (JRFM),* 18: 2, 1.

(6) Kiarie, "Effect of Crypto Currency on Financial Market in Kenya," 33.

(7) Bob Koigi, "Bitpesa, the holy grail of Africa's cryptocurrency," *Africa Business Communities,* March 23, 2018, https://africabusinesscommunities.com/news/bitpesa-the-holy-grail-of-africas-cryptocurrency/.

(8) Aloysius Ordu and Christina Golubski, *Foresight Africa: Top Priorities for the Continent in 2022* (Washington, DC: Brookings Institution, 2022), https://www.brookings.edu/wp-content/uploads/2022/01/foresightafrica2022_fullreport.pdf.

(9) Chainalysis, *Sub-Saharan Africa: Nigeria Takes #2 Spot in Global Adoption, South Africa Grows Crypto-TradFi Nexus* (New York City: Chainalysis, 2024), https://www.chainalysis.com/blog/subsaharan-africa-crypto-adoption-2024/.

(10) Chainalysis, *Sub-Saharan Africa: Nigeria Takes #2 Spot in Global Adoption, South Africa Grows Crypto-TradFi Nexus.*

(11) Triple.A, *The State of Global Cryptocurrency Ownership in 2024* (Paris: Triple.A, 2024), 4.

(12) Marie Toulemonde, "Is the bitcoin surge an opportunity for Africa?," *The Africa Report,* January 9, 2025, https://www.theafricareport.com/373190/is-the-bitcoin-surge-an-opportunity-for-africa/.

(13) Statista, "Cryptocurrencies – Africa," *Statista*, accessed February 7, 2025, https://www.statista.com/outlook/fmo/digital-assets/cryptocurrencies/africa#revenue.

(14) Ntonga Efoua, et al., "Cryptocurrencies: Opportunities and Challenges for the African Economies," Routledge Open Research (England: Routledge Open Research, 2024), 3.

(١٥) العملة المستقرة: هي عملة مشفرة تهدف إلى الحفاظ على استقرار الأسعار من خلال ربط قيمتها النقدية بعملة ورقية مثل الدولار، أو بسلعة معينة مثل الذهب، أو بعملة مشفرة أخرى، عادةً على أساس واحد لواحد.

(16) Chainalysis, *Sub-Saharan Africa: Nigeria Takes #2 Spot in Global Adoption, South Africa Grows Crypto-TradFi Nexus.*

(17) Chinomso Sunday, "African Countries That Banned Cryptocurrency," *News Central Africa*, May 15, 2024, https://newscentral.africa/african-countries-that-banned-cryptocurrency/.

Charltons Quantum, *Crypto Guide - Mauritius: An overview of the regulation of virtual assets in Mauritius* (Hong Kong: Charltons Quantum, 2024), 3.

Baker McKenzie, *Blockchain and Cryptocurrency in Africa* (Johannesburg: Baker McKenzie, 2018), 7.

(18) Sunday, "African Countries That Banned Cryptocurrency".

(19) Nduka Orjinmo, "Nigeria Slaps Strict Rules on Banks After Lifting Crypto Ban," *Bloomberg,* January 3, 2024, https://www.bloomberg.com/news/articles/2024-01-03/nigeria-slaps-strict-rules-on-banks-after-lifting-cryptocurrency-ban.

(20) "The acceptance of cryptocurrencies worldwide: Africa's ranking in comparison," *Uptota*, October 6, 2024, https://uptota.com/2024/10/06/the-acceptance-of-cryptocurrencies-worldwide-africas-ranking-in-comparison/.

(21) Favour Jolaoso, "Top Crypto Use Cases In Africa: Why is Crypto Gaining Traction in Africa?," *Yellow Card*, December 14, 2023, https://yellowcard.io/blog/top-crypto-use-cases-in-africa/.

(22) "Cryptocurrencies for Africa's development," *AEFJN,* July 14, 2022, https://aefjn.org/en/cryptocurrencies-for-africas-development/.

(23) Chainalysis, *Sub-Saharan Africa: Nigeria Takes #2 Spot in Global Adoption, South Africa Grows Crypto-TradFi Nexus.*

(24) World Bank Group, *Financial Inclusion in Sub-Saharan Africa—Overview* (Washington, DC: world Bank, 2024)April 17, 2024, https://www.worldbank.org/en/publication/globalfindex/brief/financial-inclusion-in-sub-saharan-africa-overview.

(25) El Hajj and Farran, "The Cryptocurrencies in Emerging Markets: Enhancing Financial Inclusion and Economic Empowerment," 8.

(26) "Transforming Inter-African Trade Through Cryptocurrencies: A Future Possibility?," *AUDA- NEPAD,* July 11, 2023, https://www.nepad.org/blog/transforming-inter-african-trade-through-cryptocurrencies-future-possibility

(27) Eliza Taylor, "Pros and Cons of Cryptocurrency: A Comprehensive Analysis," *The Knowledge Academy,* January 24, 2025, https://www.theknowledgeacademy.com/blog/pros-and-cons-of-cryptocurrency/

(28) United Nations Economic Commission for Africa, *Study on Cryptocurrencies and Crypto-Assets in Eastern Africa* (Kigali: United Nations, 2024), 65.

(29) Ankun Liu, et al., *Cryptocurrency in Africa, Alternative Opportunities for Advancing the Sustainable Development Goals, UNDP Development Futures Series Working Papers* (New York: United Nations Development Programme, 2022), 9.

(30) United Nations Economic Commission for Africa, 60.

(31) Efoua, et al., "Cryptocurrencies: Opportunities and Challenges for the African Economies," 7.

(32) Taylor, "Pros and Cons of Cryptocurrency: A Comprehensive Analysis".

(33) Liu et al., "Cryptocurrencies in Africa: Alternative Opportunities for Advancing the Sustainable Development Goals?", 17.

(34) Martin Armstrong, "The Varying Volatility of Cryptocurrencies," *Statista*, 2022, accessed February 7, 2025, https://www.statista.com/chart/27577/cryptocurrency-volatility-dmo/.

(35) United Nations Economic Commission for Africa, *Study on Cryptocurrencies and Crypto-Assets in Eastern Africa*, 23.

(36) Hugo Winotoatmojo, et al., "Environmental Impact of Cryptocurrency Mining: Sustainability Challenges and Solutions,"*Journal of Scientech Research and Development,* 6: 1, 2024, 122.

(37) Winotoatmojo, et al., "Environmental Impact of Cryptocurrency Mining: Sustainability Challenges and Solutions," 121, 122.

(38) Ineke Mules, "Africa's quiet cryptocurrency revolution," *DW,* August 10, 2020, https://www.dw.com/en/africas-quiet-cryptocurrency-revolution/a-55199637.
United Nations Economic Commission for Africa, 60-63.

(39) Iwa Salami, "Cryptocurrencies are gaining ground across Africa. That's both good news and bad," *The Conversation,* July 25, 2022, https://theconversation.com/cryptocurrencies-are-gaining-ground-across-africa-thats-both-good-news-and-bad-187141.

السباق نحو التسلح في إفريقيا: المسببات والمأزق الأمني

د. جارش عادل، أستاذ محاضر في العلاقات الدولية والدراسات الإستراتيجية، المدرسة الوطنية العليا للعلوم السياسية، الجزائر.

أظهر الأمن العالمي خلال سنة ٢٠٢٤م تدهورًا متزايدًا، مقارنة بالسنوات التي سبقته في العقد الأخير؛ إذ تفشّت الحروب تفشّيًا ملحوظًا، ممَّا أدّى إلى ارتفاع الإنفاق العسكري على التسلّح في تلك الدول، التي تعاني اللاستقرار، أو لديها ريبة من انتقال النزاعات إليها. وعلى الرغم من أن الحرب الروسية الأوكرانية كانت على رأس نقاشات الحرب والسلام، التي تندرج ضمن ما يسمى بالحروب التماثلية (Symmetrical wars)،[١] غير أن الحروب الأكثر فتكًا، استمرّت في مناطق خارج أوروبا والشرق الأوسط، لا سيّما إذا تُحدِّث عن القارة الإفريقية، التي تعرف انتشارًا كبيرًا للجماعات الإرهابية، والحركات المسلحة غير الحكومية العابرة للحدود، وعصابات الجريمة المنظّمة، إضافة إلى الاضطرابات السياسية.

إن زيادة حالة العنف يجعل الدول الإفريقية تسعى لامتلاك القوة العسكرية بالتسلح، باعتبارها أداة لا غنى عنها لضمان الاستقرار الداخلي، وبسبب ذلك، فقد دأبت العديد من الدول على بناء سياسات تسلّحيّة، لضمان تحصين وجودها، ولكن ذلك قد تراه دول أخرى مجاورة أو إقليمية تهديدًا لها، ممّا يجعلها أيضًا تتسلّح، وينتج عن ذلك ما يسميه الواقعيون بـــ: "المعضلة الأمنية" The Security Dilemma.

أولًا - المعضلة الأمنية والسباق نحو التسلح في إفريقيا: أية علاقة؟

تتلخّص المشكلة المركزية للنظام الدولي، منذ معاهدة واستفاليا عام ١٦٤٨م إلى غاية الآن، في كيفية مواجهة ما يسمى: «معضلة الأمن»، أو ميل الدول إلى البحث عن القوة، في سياق يغلب عليه عدم اليقين، ممّا يدفع الدول إلى القيام بردود أفعال عكسية من أطراف تشعر بالخطر، ويُنظر إلى هذه العملية على أنها الديناميكية الأكثر أهمية في العلاقات الدولية، لعلاقتها بمتغيري: السلم والحرب، كونها تنتج بأسلوب متبادل دوامة من التوترات بين الجهات الفاعلة، وخاصة المتعارضة منها تعتبر تحرّكات كل طرف هجومية.[٢] إن المأزق

الأمني -حسب جون هزر (John Herz)، وبيترفيلد (Butterfield)- هو ديناميكية، تقوم فيها دولة ما بتنفيذ إجراءات، لأسباب ذات دوافع دفاعية، ولكنّها تفشل في تقدير: كيف سينظر إليها الطرف الآخر؟ ممّا يؤدي إلى نموذج حلزوني من الصراع والسباق، لزيادة القدرات العسكرية بينهما، بسبب غياب الثقة.[٣] ورغم مناقشة الواقعيين الهجوميين، مثل: جون ميرشايمر (John Mearsheimer)، أو الدفاعيين كشارلز جلاسر (Charles Glasser)، وإسهامات كيد (Andrew Kydd) سنة ٢٠٠٥م، فيما يسمى: الواقعية البايزية (Bayesian Realism)[٤]، رغم مناقشتهم مشكلات وأسباب الثقة، التي تشكّل جوهر المعضلة الأمنية، غير أن الرابط المشترك بينهم، هو أن التسلّح يمسّ بمسألة الثقة، ومن ثَمَّ يمسُّ بالإحساس بالخطر بين الدول.[٥]

تعيش العديد من الدول في إفريقيا حالة استعصاء أمني، يقترن بمجموعة من التهديدات والمخاطر الداخلية والخارجية، التي تستدعي تعزيز القدرات الدفاعية والهجومية، بتخصيص نسب عالية من الإنفاق الحكومي لشراء الأسلحة والمعدات العسكرية، وتطويرها محليًّا بهدف التفوق، أو صناعة التوازن؛ فالدول حسب جوزيف كاملري (Josph Camilleri) مؤلف كتاب "أزمة الحضارة"، عندما تشعر بعدم الأمان والاستقرار، فإنها تعمل على مضاعفة جهودها لتكديس الأسلحة العسكرية في ترسانتها، إلى حد يكفي لإخافة العدو وردعه، ولكن تراكم هذه القدرات العسكرية الكبيرة يزيد من الشعور بعدم الأمن للدول الأخرى، ويسهم ذلك في إدخالها في حلقة السباق نحو التسلح.[٦]

ويمكن قراءة المعضلة الأمنية في إفريقيا على مستويين: المستوى الأول يتعلق بما هو داخل الدولة، ويمكن تسميته بالمعضلة الأمنية المجتمعية، حسب تعبير باري بوزان (Barry Buzan)، ويحصل هذا الأمر عندما تشعر جماعة معينة باضطهاد من جماعة أخرى، أو عندما تشعر باللاأمن إزاء السلطة الإقليمية، مقارنة بجماعات أخرى، يمكن أن تحظى بامتيازات كبيرة. وفي حالة تصاعد هذه الحدة من الاضطهاد، فإن نتائجها ستكون خطيرة على الدولة الإفريقية، لتمتد إلى التنافس على الموارد، وإزالة الطرف الآخر بالتصفية الإثنية، ولأن المدنيين، والنساء، والأطفال، والشباب، هم الذين يحملون بذور بقاء الآخر واستمراره، فإنهم يشكلون الحلقة المهمة، التي تُستهدَف من طرف فواعل المعضلة الأمنية، ويؤدي ذلك إلى تراجع احتكار السلطة لاستعمال العنف والإكراه، وتنطبق هذه الحالة على العديد من الدول، التي تعاني النعرات الإثنية، مثل: غينيا، ومالي، ونيجيريا، والكونغو الديمقراطية.[٧] ومن بين الأمثلة على ذلك، ما تقوم به حركة ٢٣ مارس في الأشهر الأخيرة من السنه الجارية في الكونغو الديمقراطية، وهي جماعة مسلحة توتسية، تنشط في المناطق الشرقية من جمهورية الكونغو الديمقراطية، وترى نفسها مهمشة من الحكومة، مقابل جماعات إثنية أخرى، ممّا جعلها ترفع السلاح، وتتمرد ضد الحكومة والجماعات المسلحة، بدعم روندي

وأوغندي، الأمر الذي جعل الآلاف من المحتجين الغاضبين في كينشاسا، يطالبون الحكومة والجماعات الموالية لهم باتخاذ تدابير عسكرية لمواجهتهم، وبسبب ذلك تدهور الوضع الإنساني، ونزح أكثر من ربع مليون شخص.[٨]

إن الخاصية التي تميّز هذا النوع من المعضلة الأمنية، تتمثل في إشاعة الفوضى، واستخدام الميليشيات المسلحة، والعصابات الإجرامية، والمرتزقة؛ وذلك بالاعتماد على الأسلحة الخفيفة، والحروب اللاتماثلية (Asymmetric warfare)، التي لا تراعى فيها القوانين والأعراف الدولية، وبسبب هذه الصورة، تلجأ الفواعل المتنازعة إلى شراء الأسلحة بطرق غير شرعية، أو بواسطة وكلاء معينين في السوق السوداء، ومن بين الأمثلة على ذلك: دعم جماعة (فاغنر) الروسية، والشركة الأمنية الخاصة التركية صادات (SADAT) للجيش المالي، ضد الأزواد، الذين ينظر لهم من الحكومة المالية الجديدة، كإثنية طارقية، تسعى للانفصال، وهو ما أدى إلى مجازر وضحايا في صفوف المدنيين.[٩]

ويرتبط المستوى الثاني بالتنافس العسكري بين الدول كوحدات، من خلال تعزيز القدرات العسكرية، باستيراد مختلف أنواع الأسلحة من القوى الدولية المصنعة، ويتموضع السباق نحو التسلح جيوسياسيًّا في إفريقيا في عدّة مناطق، أبرزها شمالي إفريقيا بين الجزائر والمغرب، حيث يمثّلان معًا أكثر من ٨٠٪ من الإنفاق العسكري في شمال إفريقيا؛ إذ تنفق الدولتان أكثر من ٢٣,٥ مليار دولار عسكريًّا، حسب بيانات معهد ستوكهولم الدولي لأبحاث السلام لسنة ٢٠٢٣م. وتتجاوز الجزائر المغرب بأكثر من ثلاثة أضعاف؛ فقد بلغ إنفاقها العسكري ١٨,٣ مليار دولار، وهي الأعلى إفريقيًّا، إذا ما قُورِنت بعدّة قوى إقليمية إفريقية. أمّا التموضع الثاني فيتعلّق بمصر، التي تراجع إنفاقها العسكري بمعدل ٢٠٪، مقارنة بسنة ٢٠٢٢م.[١٠] ورغم تفوق هذه الأخيرة على إثيوبيا، التي تعدّ القوة الخامسة إفريقيا، بعد كل من مصر، والجزائر، وجنوب إفريقيا، ونيجيريا، و٤٩ عالميًّا في سنة ٢٠٢٣م، فإن هناك دوافع إثيوبية متسارعة في تطوير أسلحتها، ومن بينها الرغبة في تعزيز المكانة الإقليمية، وتأمين الداخل الإثيوبي، وصد أي اضطرابات داخلية، والتهديدات الصادرة من دول الجوار. ولقد تقدمت بحوالي ١٤ مرتبة مقارنة بسنة ٢٠٢٢م، حيث كان الجيش الإثيوبي يصنف في المرتبة ٦٥ من أقوى ١٤٢ جيشًا في العالم، والسادس إفريقيًّا. وتسعى إثيوبيا إلى تطوير قدراتها العسكرية من خلال التعاون الثنائي مع روسيا، الذي سمح لها باقتناء مقاتلات الجيل الخامس روسية الصنع من طراز سو ٣٠، فضلًا عن حصولها على طائرات قتالية بدون طيار تركية الصنع، من طراز بايكار أكينجي (UAVS)، وهذه التحركات تراها دول الجوار ومصر، وتنظر إليها بارتباك.[١١]

لقد بلغ حجم الإنفاق العسكري في إفريقيا سنة ٢٠٢٢ م حوالي ٣٩,٤ مليار دولار من الإنفاق العالمي، الذي

وصل إجمالًا حوالي ٢٢٤٠ مليار دولار، وتنفق منطقة شمالي إفريقيا حوالي ١٩,١ مليار دولار، بينما وصلت تكلفة دول إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى إلى ٢٠,٤ مليار دولار، وإذا ما قُورِنت المنطقة الأولى من حيث عدد الدول، والكثافة السكانية بالثانية، فهي الأكثر إنفاقًا، خاصة الجزائر والمغرب ومصر.[١٢] وما يلاحظ عن سنة ٢٠٢٣م، أن حجم الإنفاق العسكري في إفريقيا بلغ ٥١,٦ مليار دولار، بزيادة بلغت نسبتها ٢٢ ٪ عن سنة ٢٠٢٢م، وأنفقت دول شمالي إفريقيا حوالي ٢٨,٥ مليار دولار، بفارق بلغ ٣٨٪ ، كما بلغت التكلفة في دول إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى حوالي ٢٣,١ مليار دولار، بزيادة بلغت ٨,٩ ٪ عن السنة السابقة، ويرجع سبب ارتفاع تكلفة الإنفاق العسكري في دول شمالي إفريقيا، مقارنة بدول منطقة جنوب الصحراء رغم كثرة الأزمات والتهديدات اللاتماثلية في هذه الأخيرة، إلى الأوضاع السوسيواقتصادية الأحسن من دول الجنوب، التي توجد فيها أفقر الدول في العالم، ممّا يسمح لها بتخصيص موارد مالية كبيرة في الجانب العسكري.[١٣]

الجدول رقم ١: الإنفاق العسكري في إفريقيا لسنتي ٢٠٢٢ و٢٠٢٣م [١٤]

	٢٠٢٢	٢٠٢٣
الإنفاق العسكري الإفريقي العام	٣٩,٤ مليار دولار	٥١,٦ مليار دولار
منطقة شمال إفريقيا	١٩,١ مليار دولار	٢٨,٥ مليار دولار
دول إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى	٢٠,٣ مليار دولار	٢٣,١ مليار دولار

أمَّا مؤشر Global Fire power ranking ، الذي يستخدم حوالي ٦٠ مؤشرًا فقد شمل عدد الوحدات العسكرية، والوضع المالي، وعدد القوات، والقدرة اللوجستية، والجغرافيا، والتكنولوجيا، وغير ذلك، ففي سنة ٢٠٢٥م، ومن إجمالي ١٤٥ دولة شملها التصنيف، صنفت ٥ دول في إفريقيا من بين أكبر ٥٠ قوة عسكرية في العالم، ويتعلق ذلك تراتبيًّا، بكل من مصر، والجزائر، وجنوب إفريقيا، ونيجيريا، وإثيوبيا، بينما صنفت ٣٢ دولة من مجموع الدول الإفريقية في هذا التصنيف، ما بين المرتبة ١٥ إلى المرتبة ١٤٢، ومنها ١٥ دولة صنفت ضمن المائة ١٠٠ دولة الأولى عسكريًّا في العالم، ويبيّن الجدول الآتي ترتيب الدول حسب تقرير Global Fire power ranking لسنة ٢٠٢٥م.

الجدول رقم (٢) ترتيب الدول عسكريًّا سنة (١٥)٢٠٢٥

الدولة	المؤشر	الترتيب العالمي	الترتيب الإفريقي
مصر	٠,٣٤٢٧	١٩	١
الجزائر	٠,٣٥٨٩	٢٦	٢
نيجيريا	٠,٥٧٧١	٣١	٣
جنوب إفريقيا	٠,٦٨٨٩	٤٠	٤
إثيوبيا	٠,٩٣٠٥	٥٢	٥
أنغولا	١,٠٩٦١	٥٦	٦
المغرب	١,١٢٧٣	٥٩	٧
جمهورية الكونغو الديمقراطية	١,٣١١١	٦٦	٨
السودان	١,٤٧٥٦	٧٣	٩
ليبيا	١,٤٤٤٩	٧٦	١٠
كينيا	١,٨١٣٥	٨٣	١١
تشاد	١,٨٧١٢	٨٤	١٢
الموزمبيق	١,٩٢٦٥	٨٩	١٣
تونس	١,٩٥٣٨	٩٠	١٤
تنزانيا	٢,٠٤١٦	٩٢	١٥
كاميرون	٢,٠٥٠١	٩٣	١٦
ساحل العاج	٢,١٧٩٦	١٠٢	١٧
مالي	٢,٢٣٧٩	١٠٤	١٨
زامبيا	٢,٣٤١١	١٠٩	١٩
غانا	٢,٣٧٧٥	١١٠	٢٠
زيمبابوي	٢,٣٨٦٣	١١١	٢١

الدولة	المؤشر	الترتيب العالمي	الترتيب الإفريقي
جنوب السودان	٢,٤٣٢١	١١٣	٢٢
أوغندا	٢,٤٧٦٧	١١٤	٢٣
ناميبيا	٢,٦٣٨٤	١١٦	٢٤
النيجر	٢,٦٩٨٨	١١٩	٢٥
إريتريا	٢,٦٩٨٨	١٢٠	٢٦
جمهورية الكونغو	٢,٧٢٨٢	١٢١	٢٧
بوتسوانا	٢,٧٥٠٩	١٢٢	٢٨
موريتانيا	٢,٧٩٧٧	١٢٣	٢٩
السنغال	٢,٨١١٦	١٢٥	٣٠
بوكينافاسو	٢,٩٧٣٤	١٢٩	٣١
مدغشقر	٣,٠٦٠٩	١٣٠	٣٢
الغابون	٣,١٨٠٥	١٣٣	٣٣
ليبيريا	٣,٧٧٨١	١٣٨	٣٤
سيراليون	٣,٩٧٠١	١٤٠	٣٥
الصومال	٤,٢٠٣٧	١٤٢	٣٦
جمهورية إفريقيا الوسطى	٤,٢٣٤٧	١٤٣	٣٧
بنين	٤,٣١٥٦	١٤٤	٣٨

ثانيًا - الشركات الأمنية والعسكرية الخاصة: أي دور تلعبه في معضلة الأمن بإفريقيا؟

لا يوجد تعريف موحّد مقبول عالميًّا، وملزم قانونيًّا للشركات العسكرية والأمنية الخاصة، فغالبًا ما تعمل هذ الشركات في ظل ثغرات قانونية؛ إذ لا يمكن تصنيفهم جنودًا، أو مرتزقة، أو مدنيين،[١٦] وهي اليوم منتشرة بكثرة في إفريقيا؛ نظرًا لتوفر البيئة المناسبة؛ حيث تشير الاتجاهات والتطورات الأخيرة في عدة دول، وخاصة: مالي، والنيجر، وليبيا، وتشاد، وبوركينافاسو، وإفريقيا الوسطى، والموزمبيق، ونيجيريا، إلى أن الجهات الفاعلة فيها لديها روابط وثيقة مع عدة دول تمتلك هذه الشركات، كروسيا، والصين، وتركيا، ممّا

يسهل عملها، الذي تهدف من خلاله إلى توسيع نشاطاتها، لما تدرّه من أرباح في الشق الاقتصادي، من خلال تجارة الموارد النادرة والنفط، ولقد أصبحت هذه الشركات بمنزلة وكلاء للقوى الدولية والإقليمية، قصد تحقيق مصالحهم، ومن ثم فإن هذه الشركات يمكن لها أن تزيد عدم الثقة بين الفواعل الأمنية، ممّا يعظم من مشكلة معضلة الأمن؛ إذ تعمل على زيادة تدفقات الأسلحة مع مشترين تقليديين، أو جدد مواليين لهم، إضافة إلى تقديم خدمات أخرى مثل: التدريب، والدعم اللوجستي، والتعاقد مع المؤسسات والحكومات،[١٧] ومن بين أمثلة الشركات الأمنية الخاصة النشطة في هذا المجال، نجد الفاغنر الروسية، التي تنشط في عدة دول، مثل: ليبيا، ومالي، وبوركينافاسو، وتشاد، وشركة السادات التركية، وشركتي HXZA ، وDeWe الصينيتين.[١٨]

تعرف دول القارة الإفريقية ازديادًا سريعًا في «خصخصة الأمن» The Privatization of Security، من خلال الشركات الأمنية الخاصة، ويرجع ذلك لعدة عوامل من بينها: الغياب التام لوجود الدولة في بعض الأقاليم، ممّا يجعل الدول تستعين بها لفرض الأمن في المناطق التي يصعب على الدولة الوطنية السيطرة عليها، بالإضافة إلى فقدان الأنظمة الحاكمة الإفريقية الثقة في الجيش الوطني، والأجهزة الأمنية المختلفة؛ ممّا يجعلها تلجأ إليها، قصد تأمين المرافق الحساسة في الدولة، وكذا تأمين الشخصيات العامة، ويعتبر كذلك انحسار الاستعمار العسكري سببًا من الأسباب، التي تجعل القوى الدولية تستعمل عملاء تحميهم بمثل هذه الشركات، كونها تؤدي دورًا وظيفيًّا لهذه القوى، وتقدم لهم خدمات أفضل وأرخص من الاستعمار، أو التدخل العسكري المكلف؛ إذ تزايدت أدوارها تزايدًا كبيرًا بعد أحداث ١١ سبتمبر عام ٢٠٠١م، نظرًا لحالة الهوس الأمني، والتوجس من العمليات الإرهابية.[١٩]

وتتخوّف بعض الدول الإفريقية، من تزايد دور الشركات العسكرية في بعض الدول الإفريقية؛ إذ لا يقتصر دورها فقط على الأبعاد الإيجابية كبناء الأمن، وإنما تسارع انتشارها؛ ممّا جعل دولًا إفريقية عديدة تعتبرها خيارًا غير مرحب به، لا سيّما إذا استخدمت لأغراض سياسية، كدعم الانقلابات العسكرية. وفي هذا السياق، تعتبر أنشطة فاغنر كشركة أمنية خاصة، غير مرحب بها في بعض الدول الإفريقية، لتأثيرها الكبير في السياسات في ليبيا، والسودان، ومالي، وبوركينافاسو، وهو الأمر الذي يجعلهم يزيدون من وتيرة التسلح والجاهزية ضدها.

ومن جانب آخر، تمتلك الشركات الأمنية الخاصة كفاغنر علاقاتٍ مع لوبيات صناعة السلاح، التي تقرر وتخطط لنشوب الحروب في مناطق مختلفة؛ فصناعة السلاح وتصديره، يتعلق بمسارات القوى الكبرى في إفريقيا، لما تدره من أرباح كبيرة لاقتصاداتهم، التي تعتبر في مركبات صناعة السلاح جزءًا لا يتجزأ.[٢٠]

ثالثًا - البيئة الأمنية المتغيرة في إفريقيا كمحفز للسباق نحو التسلح

تظهر البيانات المتعلقة بتكلفة الصراع على المستوى الإفريقي معدّلات عالية، مقارنة بالمتوسط العالمي؛ فرغم أنها تضم حوالي ١٦ ٪ من سكان العالم، غير أنها تحتوي على حوالي ٥٢ ٪ من الصراعات المسلحة في العالم. ففي دراسة أعدّها جاكي سيليرز (Jakkie Ciliers) مدير معهد الدراسات الأمنية في جنوب إفريقيا بعنوان: "اتجاهات الصراع المسلح والعنف السياسي في القارة الإفريقية»، خلص إلى أن الصراعات بين الدول في إفريقيا انخفضت، وباتت تحدث داخل الدول؛ إذ اعتبر أن الفترة الممتدة بين عامي ٢٠٠٥ و٢٠١٠م كانت مستقرة نسبيًّا، لكن زادت الإضرابات التي تزايدت معها الخسائر المادية والبشرية، منذ نهاية عام ٢٠١٠م، كما اكتسبت مظاهر أخرى لانعدام الأمن أهمية كبيرة؛ إذ تزايدت حدة التهديدات الأمنية الجديدة، على شاكلة الجماعات الإرهابية؛ ففي البلدان الأكثر تضرّرًا من التطرف الإسلامي، يعود أكثر من ربع عدد القتلى إلى الجماعات الإرهابية، لا سيّما في الحالة النيجيرية، وفضلًا عن الإرهاب، تشهد القارة الإفريقية نشاطًا متزايدًا لجماعات الإجرام المنظم، وظاهرة المرتزقة، والجماعات المسلحة.[٢١] ولمواجهة هذه التهديدات والتحديات، ترى الدول الإفريقية أنه لا بدّ من زيادة الإنفاق العسكري، الذي يرتبط بزيادة التعداد البشري للقوى المسلحة، وتحديث منظومة التسلح، وتكييف وعصرنة الجيش مع الوقائع الأمنية الجديدة. [٢٢]

رابعًا - التنافس الدولي (أمريكا، الصين، روسيا، فرنسا) في مجال السلاح بإفريقيا

لا تمثل القارة الإفريقية سوقًا كبيرة للسلاح، إذا ما قُورِنت ببعض الأقاليم كالشرق الأوسط، رغم أنها تضم وحدها أكثر من ٤٠ بالمئة من النزاعات المسلحة، التي تحصل سنويًّا في العالم؛ فحسب تقرير سبيري، بلغ متوسط الحصة العالمية للتسلح في القارة من تاريخ ٢٠١٨-٢٠٢٢م حوالي ٥ ٪،[٢٣] حيث تتلقى ١٧ دولة إفريقية أسلحة من الصين، في حين تتلقى ١٤ دولة إفريقية من روسيا، وتتصدر الجزائر قائمة المستوردين منهما، بينما تتعامل فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية مع بعض الدول، إضافة إلى وجود بعض القوى الأخرى الإقليمية، التي تسعى إلى بسط النفوذ في المنطقة، مثل: تركيا، التي تبحث عن منافذ لتصدير السلاح في إفريقيا.

وأمّا القوى الدولية، وخصوصًا الصين والهند فيدخل السلاح في إطار بسط نفوذ هذه الدول، من خلال استمالتها وتسليحها، في الوقت الذي ترفض فيه دول أخرى، مثل: فرنسا، وألمانيا، والولايات المتحدة، تسليح دول عديدة لأسباب سياسية، ومن ناحية أخرى فإن مبيعات الأسلحة تشكّل مدخلًا عميقًا من أجل تعميق العلاقات الاقتصادية والسياسية مع الدول الإفريقية بالنسبة لهما، بغضّ النظر عن طبيعة الأنظمة السياسية، فهي لا تعطي أهمية كبيرة للمعايير السياسية، على غرار القوى الغربية والتقليدية.

ويغذّي بيع السلاح النزاعات بوجه يهدّد الكثير من الدول الإفريقية، في حالة توجيهه إلى الجماعات المسلحة والمرتزقة؛ إذ يقوض سلطة في إقليمها، ويهدد الاستقرار السياسي للدول، ويزيد من تعقد الوضع التنموي والإنساني.[٢٤]

الخاتمة والنتائج

النتيجة الرئيسة التي يمكن استخلاصها من تحليل: السباق نحو التسلح في إفريقيا، مفادها: أن هناك تغيّرات وتعقيدات في البيئة الأمنية، وخريطة التنافس الجيوسياسي فيها، وكلها مسوغات وذرائع كافية لتبرير تسارع وتيرة السباق نحو التسلح، الذي من شأنه أن يخفض الثقة بين الدول، ومن ثَمَّ زيادة المعضلة الأمنية.

وثمة مسألة أخرى جدّ مهمّة، مرتبطة بانعكاسات الإنفاق المرتفع، وخصوصًا في الدول الفقيرة، التي تعاني أزمات هيكلية ووظيفية؛ فالزيادة في الميزانية العسكرية، قد تكون على حساب قطاعات مدنية، وثيقة الصلة بمسألة التنمية، مثل: التعليم، والصحة، والتوظيف، والاستثمار، ممّا يؤزم الأوضاع أكثر، كما يبقى تدفق السلاح في إفريقيا مرهونًا بعدّة متغيرات، تتعلق بمدى تحقيق الاستقرار داخل الدول، وبين الدول، وغياب نهج واقعي، يحد من مشكلة انتشار الأسلحة، ونشاطات جماعات الإجرام المنظم؛ فكلما زادت حالة اللاستقرار الأمني، توجّهت الفواعل إلى تأمين نفسها، بزيادة تدفّقات السلاح إليها، للحفاظ على البقاء، وعلى أمنها، ومصالحها.

الهوامش والإحالات

(١) يستخدم هذا المصطلح للدلالة على الحروب التقليدية، التي تكون بين فواعل متشابهة، وجيوش منظمة، بينما يستخدم مصطلح: الحروب اللاتماثلية بأسلوب مركزي ومتكرر في النقاشات المتعلقة بالحروب الجديدة؛ إذ يشير إلى الأعمال التي تقوم بها جماعات مسلحة ضد جيش منظم، وسميت: اللاتماثلية، لتوصيف الفوارق بين الأساليب والأدوات التي يستخدمها الطرفان، وهي نهج يتّبعه الطرف الضعيف لاستهداف الطرف القوي، من خلال البحث عن نقاط ضعفه، واستنزافه، ومن بين الأمثلة على ذلك: الحرب الأمريكية ضد الجماعات المسلحة في كل من العراق وأفغانستان،

للمزيد انظر: عادل جارش، الإستراتيجية الأمريكية في ضوء المستجدات الدولية، (عمان: ألفا للوثائق للنشر والتوزيع، ٢٠٢٢م)، ١٢٧.

(2) David Mitchell, "The Cycle of Insecurity: Reassessing the Security Dilemma as a Conflict Analysis Tool," *Peace and Conflict Studies*, 26: 2, 2019, 1.

(3) Joshua Kertzer, et al., Perspective Taking and Security Dilemma Thinking: Experimental Evidence from China and the United States, *World Politics*, 76: 2, 2023, 1-2.

(٤) تحدث «كيد» عن المعضلة الأمنية في ورقة بحثية كتبها سنة ١٩٩٧م، وكانت هذه الورقة هي الأساس لكتابة كتابه المعنون : «الثقة وعدم الثقة في العلاقات الدولية»، وهي مناسبة تمامًا لتحليل مشكلات الثقة بين الدول، التي تشكّل جوهر معضلة الأمن، ومن هذا المنطلق، يقترح مقاربته الجديدة المسماة بالواقعية البايزية، كبديل للواقعية الهجومية والدفاعية، باعتبارها أكثر تفصيلًا وعمقًا، كونها تتضمن معطيات وإيماءات أكثر حول مسألة الثقة، تتجاوز الفوائد، وحوافز التعاون المتبادل، والتكنولوجيا العسكرية، والمعلومات، والتكيف مع المعطيات الجديدة.

(5) Avidit Acharya and Christopher Ramsey, "The Calculus of the Security Dilemma," *Quarterly Journal of Political Science*, 8: 2, 2013, 2-3., https://stanford.edu/~avidit/security.pdf.

(٦) عبد الخالق عبد الله، العالم المعاصر والصراعات الدولية، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨٩م)، ٧٩.

(٧) مليكة هاشمي، ونبيلة بن يحيى، «الأمن المجتمعي: دراسة في المفهوم، النظرية والتهديدات،» المجلة الجزائرية للأمن والتنمية، المجلد ١٢، العدد١، (الجزائر، جامعة باتنة ١ الحاج لخضر، ٢٠٢٣م)، ١٦٧.

(8) Paul Nantulya, "Risk of Regional Conflict Following Fall of Goma and M23 Offensive in the DRC," *Africa center for strategic studies*, January 29, 2025, https://africacenter.org/spotlight/risk-of-regional-conflict-following-fall-of-goma-and-m23-offensive-in-the-drc/.

(٩) محمد بوشيخي، «تأثير سيناريو القطيعة بين مالي وفاغنر على العلاقة مع روسيا،» مركز المستقبل للأبحاث والدراسات المستقبلية، (٧، نوفمبر، ٢٠٢٤م)، http://futureuae.com/ar/Mainpage/Item/9797/شراكة-لا-تبعية-تأثير-سيناريو-القطيعة-بين-مالي-وفاغنر-على-العلاقة-مع-روسيا.

(10) Stockholm International Peace Research Institute, *Sipri Yearbook 2023: Armaments, Disarmament and International Security* (Stockholm: SIPRI, 2023), 7-8, https://www.sipri.org/sites/default/files/2023-09/yb23_summary_fr.pdf.

(١١) عبير مجدي، «الطموح المتزايد: لماذا تتغير فلسفة تسليح الجيش الإثيوبي،» مركز رع للدراسات الاستراتيجية، (٦، فبراير، ٢٠٢٤م)، https://rcssegypt.com/16689.

(12) Stockholm International Peace Research Institute, *Sipri Yearbook 2024: Armaments, Disarmament and International Security* (Stockholm: SIPRI, 2024), 8, https://www.sipri.org/sites/default/files/2024-10/yb24_summary_fr.pdf.

(13) Stockholm International Peace Research Institute, *Sipri Yearbook 2024: Armaments, Disarmament and International Security*, 8.

(14) Stockholm International Peace Research Institute, *Sipri Yearbook 2023: Armaments, Disarmament and International Security*, 8.

(15) Global Fire power, *2025 Military Strength Ranking* (Virgin: GFP, 2025), https://www.globalfirepower.com/countries-listing.php.

(١٦) بن عودية نصيرة، «الشركات العسكرية والأمنية الخاصة، وأساس المسؤولية الدولية للدولة عن أفعال موظفي هذه الشركات،» المجلة القانونية للبحث القانوني، المجلد ١١، العدد ٤، (الجزائر، جامعة عبد الرحمن ميرة بجاية، ٢٠٢٠م)، ٥٩٣-٥٤٠.

(١٧) محمد بن فردية، وبو عيشة مراد، «الشركات العسكرية والأمنية الخاصة داخل إفريقيا (دراسة حالة شركة فاغنر الروسية)،» دفاتر السياسة والقانون، المجلد ١٤، العدد ١، (الجزائر: جامعة قاصدي مرباح ورقلة، ٢٠٢٢م)، ٣٩٦-٣٩٨.

(١٨) يختلف النموذج الروسي عن الصيني للأمن؛ فبينما تركز الإستراتيجية الروسية على الاعتبارات السياسية والإستراتيجية، من خلال نشر الشركات الأمنية الخاصة، تركز نظيرتها الصينية على الأصول الصينية في إفريقيا، نظرًا للاستثمارات الكبيرة لديها، وخاصة في مجال التعدين.

(١٩) غازلي عبد الحليم، «الشركات الأمنية والعسكرية الخاصة في إفريقيا: الخلفيات والمحاذير،» حوليات جامعة الجزائر ١، المجلد ٣٤، العدد١، (الجزائر: جامعة بن يوسف بن خدة، ٢٠٢٠م)، ٦٠٩-٦١٦.

(٢٠) يسري العزباوي، «الأسباب والدلالات: تزايد الإنفاق الدفاعي للجيوش في ظل بيئة إستراتيجية مضطربة،» مركز تريندز للبحوث والاستشارات، (٣١، مارس، ٢٠٢٤م)،
https://trendsresearch.org/ar/insight/الأسباب-والدلالات-تزايد-الإنفاق-الدف/.

(٢١) وفاء ريحان، «خارطة معقدة: اتجاهات الصراعات والتطرف في إفريقيا،» مركز المستقبل للأبحاث والدراسات المتقدمة، (١٤، نوفمبر، ٢٠١٥م)، https://futureuae.com/are/Mainpage/Item/671/خارطة-معقدة-اتجاهات-الصراعات-والتطرف-في-أفريقيا.

(22) Christian Soest and Alexander Juan, "Dealing with New Security Threats in Africa," *GIGA Focus Africa*, 2, 2018, 2, https://www.giga-hamburg.de/en/publications/giga-focus/dealing-with-new-security-threats-in-africa.

(23) Stockholm International Peace Research Institute, *Sipri Yearbook 2023: Armaments, Disarmament and International Security*, 11.

(24) Cortney Weinbaum, et al., "Mapping Chinese and Russian Military and Security Exports to Africa," *RAND Corporation*, December 13, 2022, 4, https://www.rand.org/pubs/tools/TLA2045-3.html.

مهددات الاستقرار السياسي في نيجيريا وتداعياته المحتملة

د. **حكيم ألادي نجم الدين**، باحث نيجيري، أبوجا.

تلعب نيجيريا، الدولة الفدرالية متعددة الإثنيات والثقافات، دورًا بارزًا في إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى، بسبب قوتها الاقتصادية، النابعة بشكل أساس من احتياطياتها النفطية الضخمة، والتي تجعلها أكبر دولة مصدرة للنفط في المنطقة، وتحتل مرتبة ثاني أكبر اقتصاد فيها. وتسهم هذه الميزة في تدفق التجارة والاستثمار إلى غرب إفريقيا، خاصة وأن البلاد التي يبلغ عدد سكانها أكثر من ٢٢٠ مليون نسمة، تمثّل ما يقرب من نصف سكان غرب إفريقيا،[١] وهو ما يمنحها نفوذًا إقليميًّا، وأهمية ثقافية مرتبطة بكثرة الشتات النيجيري، وانتشار صناعاتها الفنية، مثل: («أفروبيت»، وأعمال السينما «نوليوود») خارج حدودها الوطنية والإقليمية.[٢]

وفي حين أن نيجيريا دولة مهمة في تعزيز الاستقرار، وحل النزاعات بغرب إفريقيا، وخاصة كعضو مؤسس في «الجماعة الاقتصادية لدول غرب إفريقيا» (إيكواس)، ولمشاركة قواتها العسكرية في عمليات عديدة لحفظ السلام،[٣] فإن التحديات الداخلية تصعّب على البلاد تحقيق تطلعات مواطنيها، والحفاظ على مكانتها الرائدة في المنطقة. وقد أفادت تقارير حديثة إلى تراجع الاستقرار السياسي في نيجيريا، نتيجة العقبات المرتبطة بالإدارة الجديدة، رغم سمة البلاد كجمهورية متعددة الأحزاب منذ عام ١٩٩٩م.[٤] ويسهم في هذا الوضع المتدهور انعدام الأمن، والصعوبات الاقتصادية؛ حيث تتوقع تقارير، أن يكون لدى نيجيريا أكبر نسبة من الفقراء في العالم، بحلول عام ٢٠٥٠م.[٥] بالإضافة إلى معدلات الفقر التي تتفاوت حسب الإقليم الجيوسياسي، حيث تكون المعدلات في الشمال أعلى بكثير من المتوسط الوطني.

وعليه، تسعى هذه الورقة إلى الإجابة عن السؤالين الآتيين:

- ما أبرز مهددات الاستقرار السياسي في نيجيريا؟
- ما تداعياته المحتملة في السياقات المحلية والإقليمية والدولية؟

وتعتمد الورقة في تحليلاتها على «نظرية الأنظمة»، التي توصل إليها «ديفيد إيستون» - العالم السياسي الأمريكي من أصول كندية - في عام ١٩٥٣م. وهذه النظرية، مبنية على أن النظام

السياسي قائمٌ على الروابط، بين ذلك النظام وبيئته، وهو ما يجعل النظام السياسي عمليةً تتلقَّى «المدخلات»، مثل: (مطالب المواطنين، ودعمهم)، وتعالجها من خلال «عملية التحويل» داخل النظام، فتتحوّل إلى «المخرجات»، مثل: (السياسات، والقوانين). وهذه المخرجات، هي التي تحدّد «حلقة التغذية الراجعة»، وهو ما يعني أن النظام السياسي - وفق هذه النظرية - هو آلية «التخصيص السلطوي للقيم» داخل المجتمع، وعملية تفاعل مستمرة بينه (أي النظام) وبيئته ومجتمعه، حيث تتأثر المخرجات بالمدخلات الجديدة، لتشكيل الإجراءات والتطورات المستقبلية.

وفي سياق موضوع هذه الورقة، يرى الباحث أن تطبيق «نظرية النظم»، يتركز على أربعة عناصر، والعنصر الأول (أ): هو المدخلات، والتي تشمل مطالب النيجيريين، وجماعات المصالح، والجهات الفاعلة الخارجية من النظام السياسي النيجيري، وخاصة فيما يتعلق بالفرص الاقتصادي، وتخفيف الصعوبات الاقتصادية، والحوكمة الرشيدة والشاملة، والاستقرار الأمني، والحماية من تمرد «بوكو حرام»، واللصوصية، وشبكات الإجرام الأخرى. وتشمل المدخلات – أيضًا - الدعم الذي يحظى به النظام السياسي، والمتمثّل في ثقة المواطنين في المؤسسات السياسية والحكومية، وولاء القوات العسكرية والأمنية للحكومة، والاستقرار الاقتصادي، والبنية الأساسية، وغيرها ممّا يعتمد عليه الاستقرار السياسي النيجيري. ويتمثّل العنصر الثاني (ب): في عملية التحويل من النظام السياسي؛ حيث تعالج الحكومة والمؤسسات السياسية تلك المطالب سابقة الذكر، من خلال السلطة التنفيذية، والتشريعية، والقضائية، والأحزاب السياسية، والهيئة الانتخابية الوطنية المستقلة، وأجهزة الأمن، وإنفاذ القانون، حتى وإن كانت هذه المؤسسات نفسها تعاني ضعف الكفاءة والفساد، وتتأثر بالتوترات الإثنية، وضعف الأطر المؤسسية، وغيرها من التحديات التي تعيق أداء مهامها بشكل فعال.

ويتمثّل العنصر الثالث (ج): في المخرجات، وهي السياسات والإجراءات التي تنفذها الحكومة النيجيرية، لمعالجة عدم الاستقرار، مثل: حملات مكافحة الفساد، والعمليات العسكرية ضد المتمردين والمسلحين، والسياسات الاقتصادية، مثل: إلغاء دعم الوقود، وإطلاق برنامج نظام قرض الطالب. ومع ذلك، يؤدي ضعف تنفيذ تلك السياسات، والبرامج، والافتقار إلى الشفافية، إلى استياء المواطنين؛ ممّا يؤدي إلى العنصر الرابع (د): المتمثل في حلقة التغذية الراجعة (السلبية)؛ إذ يتفاعل المواطنون مع فشل سياسات الحكومة وإجراءاتها في تلبية مطالبهم، من خلال الاحتجاجات والتمردات، ودعوات الانفصال، وهو ما قد يفاقم تدهور الاستقرار السياسي في البلاد.

أولًا- مهددات تدهور الاستقرار السياسي

تتركز أبرز المهددات للاستقرار السياسي في نيجيريا، في التحديات الاقتصادية، وتزايد انعدام الأمن، وقضايا الحكم. وهذه العوامل أو المهددات مفصلة في الآتي:

أ- التحديات الاقتصادية

ترتبط القضايا الاقتصادية بالاستقرار السياسي المتدهور في نيجيريا، لكونهما يشكلان حلقة مفرغة، يفاقم من خلالها أحدهما الآخر، وتنتج ديناميكية تقوّض الحكم، وتقلّص التماسك الاجتماعي، وتعيق التنمية المستدامة. ورغم ما تعلنه الحكومات النيجيرية من جهود، لتحقيق مكاسب اقتصادية في السنوات القليلة الماضية، إلّا أنّ البلاد لا تزال تواجه تحديات كبيرة، تعيق قدرة البلاد على توليد النمو الطويل الأجل، ورفع مستويات المعيشة، والحد من حدّة الفقر.[٦]

وترتبط إحدى التحديات الاقتصادية الصعوبة، بالاعتماد المفرط لاقتصاد نيجيريا على عائدات النفط، والتي تمثل ٨٠ ٪ من عائدات الحكومة، وحوالي ٩٠٪ من مكاسب النقد الأجنبي، ممّا يجعل نيجيريا معرضة لتقلبات أسعار النفط العالمية. كما أن التحول العالمي الأخير في مجال الطاقة، وانخفاض أسعار النفط، وانقطاعات الإنتاج بسبب تخريب خطوط الأنابيب - في دلتا النيجر النفطية - واستمرار أنشطة الجماعات المسلحة في المنطقة (أي دلتا النيجر)، كلها تؤدي إلى خفض العائدات التي تحصل عليها البلاد، خاصة وأن نيجيريا لم تتمكن من تلبية حصتها النفطية في «منظمة الدول المصدرة للبترول» (أوبك)، إلّا في دورة إنتاج النفط الأخيرة (في ديسمبر عام ٢٠٢٤م)، أي بعد ما يقرب من أربع سنوات.[٧] بالإضافة إلى أن القطاعات غير النفطية، مثل: الزراعة، والتصنيع، والخدمات، تظلّ متخلفة، ولا تسهم إلا قليلًا في نمو الناتج المحلي الإجمالي، رغم خطابات التنويع. وممّا يفاقم الأزمة الاقتصادية، ما تشهده نيجيريا من ارتفاع غير مسبوق لمعدلات التضخم؛ حيث يكثّف قرار إدارة الرئيس الحالي «بولا أحمد تينوبو» - بإلغاء دعم الوقود، وتعويم العملة الوطنية (نيرا) - إلى تكثيف الضغوط التضخمية، لتكون النتيجة زيادة تكاليف الاستيراد، في ظل النقص الكبير في النقد الأجنبي، نتيجة محدودية احتياطيات النقد الأجنبي، والاعتماد على صادرات النفط، ممّا يصعب على الشركات استيراد المنتجات والخدمات، ويؤدي إلى ارتفاع تكاليف المنتجات الغذائية، والطاقة، والخدمات الأساسية، التي تؤثر بشكل غير متناسب على الأُسَر ذات الدخل المنخفض، وتزيد من مستويات الفقر، وانعدام الأمن الغذائي. وقد تعرّضت هذه السياسات الاقتصادية، التي أجراها الرئيس الحالي «بولا أحمد تينوبو» منذ وصوله إلى السلطة في ٢٩ مايو عام ٢٠٢٣م لانتقادات حادة، رغم أن موقف إدارته هو أن تنفيذها ضروري لإصلاح الاقتصاد، ودعم النمو على المدى الطويل.

ومن ضمن مبادرات إصلاح الاقتصاد النيجيري، أربعة مشاريع قوانين: الإصلاح الضريبي الذي اقترحته حكومة «تينوبو»، وقدّمتْه إلى الجمعية الوطنية في أكتوبر عام ٢٠٢٤م، وذلك بهدف إصلاح نظام الضرائب الوطنية، ومعالجة تظلمات بعض الولايات، مع توسيع القاعدة الضريبية، وحل قضايا الميزانية.[٨] ومع ذلك، فقد أوقدت مشاريع القوانين الضريبية هذه نيران التوتّر الخامدة، بين أقاليم الجنوب (١٧ ولاية واقعة في ثلاثة أقاليم)، الداعمة للإصلاحات الضريبية المقترحة، وبين أقاليم الشمال (١٩ ولاية واقعة في ثلاثة أقاليم) الرافضة لتلك الإصلاحات؛[٩] إذ يرى العديد من المشّرعين والنخبة السياسية الشمالية، أن أحد مشاريع القوانين المقترحة، هي بمثابة «حيلة» من طرف الرئيس «تينوبو» (المنتمي إلى الجنوب)، لإفقار منطقة الشمال، عبر تقليص مخصصاتها الفيدرالية من الضرائب المجمعة، بما في ذلك ضريبة القيمة المضافة، إضافة إلى نقاط أخرى يعتبرها الشماليون محاولة من «تينوبو»، لإثراء المصانع في لاغوس – العاصمة الاقتصادية لنيجيريا – وولايات أخرى في الجنوب.

وقد كشفت تقارير أن التضخم في نيجيريا وصل إلى أعلى مستوى له منذ أكثر من ثلاثة عقود، كما توقّع «برنامج الغذاء العالمي» أنّ أكثر من ٣٠ مليون شخص، سيواجهون انعدام الأمن الغذائي هذا العام، وهو زيادة كبيرة عن عدد ٢٥ مليون شخص في عام ٢٠٢٤م.[١٠] وهذا إلى جانب البطالة، ونقص العمل؛ حيث بلغ معدل البطالة في البلاد ٥,٣ ٪ في الربع الأول من عام ٢٠٢٤م، وهو ما يمثل الزيادة الثالثة على التوالي، منذ الربع الثاني من عام ٢٠٢٣م.[١١] مع وجود نسبة كبيرة من الشباب العاطلين عن العمل، بينما الغالبية العظمى من النيجيريين الموظَّفِين، يعملون في وظائف منخفضة الإنتاجية، أو في القطاعات غير الرسمية، التي لا توفر دخلًا كافيًا، أو أمنًا وظيفيًّا. وكل هذه التطورات، تزيد من السخط العام تجاه الحكومة، وتؤجج الاحتجاجات ضد سياساتها، كما هو الحال في الاحتجاجات الأخيرة تحت عنوان «إنهاء الحكم السيئ»، والتي شهدتها المدن النيجيرية من ١ إلى ١٠ أغسطس عام ٢٠٢٤م، ردًّا على ارتفاع تكاليف المعيشة. [١٢]

ويضاف إلى ما سبق، أن ارتفاع الدين العام في البلاد، والذي يُموَّل إلى حد كبير من خلال الاقتراض الأجنبي، لا يترك سوى القليل للإنفاق الحاسم على التعليم، والرعاية الصحية، والبنية الأساسية، كما أن انخفاض قيمة العملة الوطنية، يزيد من تكاليف السداد، بينما النشاط الاقتصادي في معظم البلدات النائية والأرياف، تعوقه البنية الأساسية غير الكافية، وانقطاع التيار الكهربائي، وتكاليف ممارسات التجارة المرتفعة، وانخفاض انتشار الإنترنت، ممّا يؤثر على الإنتاجية والاستثمار والتقدم التكنولوجي في الصناعات. وهناك من الاقتصاديين النيجيريين، من يرون أن انخفاض نسبة الضرائب إلى الناتج المحلي الإجمالي في نيجيريا، والتي تفاقمت بسبب كثرة القطاعات غير الرسمية، وتدابير الإنفاذ غير الفعّالة، يُعيق قدرة الحكومة على تمويل الخدمات الاجتماعية والبنية الأساسية. إضافة إلى العوامل العالمية، مثل: ارتفاع أسعار الفائدة،

والتوترات الجيوسياسية، وانقطاعات سلسلة التوريد، في ظل صعوبة جذب البلاد للاستثمار الأجنبي المباشر، بسبب بيئة الأعمال الصعبة.

ب- تزايد انعدام الأمن

تواجه نيجيريا عدد من التحديات الأمنية،[١٣] بما في ذلك استمرار عنف الجماعات المتطرفة المسلحة، مثل: «جماعة أهل السنة للدعوة والجهاد» (بوكو حرام)، و «تنظيم الدولة الإسلامية ولاية غرب إفريقيا» في شمال الشرق، وزيادة أعمال اللصوصية والاختطاف، والاشتباكات بين المزارعين والرعاة في إقليمي: شمال الغرب، والشمال الأوسط، بالإضافة إلى تصاعد التوترات الانفصالية في جنوب الشرق من قبل «حركة السكان الأصليين في بيافرا»، وذراعها المسلح، وسرقة النفط والعاملين في قطاع الطاقة (خاصة في دلتا النيجر)، من قبل المجموعات المسلحة في إقليم جنوب الجنوب (أو أقصى الجنوب). وكلها تسهم في تفاقم التحديات الاقتصادية، وأزمة انعدام الأمن الغذائي؛ إذ يعتمد النيجيريون بشكل أساس على المنتجات الزراعية والغذائية من مناطق شمال البلاد، ولكن المزارعين في المناطق الشمالية المعرضة للصراع، يتركون حقولهم، خوفًا من التعرض للهجوم والاختطاف من الجماعات المسلحة، والعصابات الإجرامية، وتضطر المجتمعات العديدة إلى هجرة مناطقهم ومساكنهم. وفي المناطق الجنوبية، يقلّل تخريب خطوط الأنابيب الطاقوية، وسرقة النفط، من عائدات الحكومة، كما يثبط عنف الانفصاليين الاستثمار المحلي والأجنبي.

جدير بالذكر، أن التقارير الجديدة الصادرة في يناير عام ٢٠٢٥م، تظهر تكثيف الجنود النيجيريين جهودهم لمكافحة انعدام الأمن، وخاصة ضد المسلحين، وعصابات الاختطاف،[١٤] كما تستثمر الحكومة الفدرالية بكثافة في العمليات العسكرية والأمنية.[١٥] ومع ذلك، فإن هذا التركيز الحكومي يعني توجيه معظم الموارد، والانتباه إلى الملفات الأمنية، تاركة أولويات التنمية الأخرى، وهو ما يفاقم المظالم القائمة مسبقًا، ويؤجج الاحتجاجات والاضطرابات. وهذا إلى جانب أن انعدام الأمن في نيجيريا، عادة ما تكون له مكونات إثنية، وإقليمية، ودينية، وبعض إستراتيجيات مواجهته، غالبًا ما تكون محل الخلاف، وهو ما يصعّب معالجة الملفات الأمنية أحيانًا، من قبل الحكومة الفدرالية، ويعزز تآكل الوحدة الوطنية والتماسك السياسي.

وقد كشفت الممارسات السياسية التي جرت خلال الفترة ما بين عامي ٢٠١٩ و٢٠٢٣م، أن انعدام الأمن يضعف نزاهة الانتخابات؛ إذ يحدّ من مشاركة الناخبين في مناطق الصراع، أو المعرضة لهجمات الجماعات المتطرفة المسلحة، والعصابات الإجرامية الأخرى، ويجبرهم على مقاطعة الحملات الانتخابية والسياسية، ويوفّر الفرصة للعنف السياسي والاحتيال الانتخابي.[١٦] وهذا هو الحال في الانتخابات الأخيرة، حيث لم تُجْرَ في المناطق المتضررة من الصراعات أي انتخابات، وهو ما أسهم في تراجع الثقة في المؤسسات الحكومية،

وانتشار التصوّر عن عدم شمولية النظام الديمقراطي، مع التشكيك في قدرة الحكومة على فرض القانون والنظام. وقد كان الفشل في معالجة انعدام الأمن، ومضايقات أفراد الشرطة (وخاصة في التعامل مع الشباب)، من الأسباب الرئيسة لإحباط الشباب النيجيريين، الذين احتجّوا ضد «وحشية الشرطة» في عام ٢٠٢٠م، بل وأظهرت حالات مختلفة من الاضطرابات، وخاصة في الشمال؛ فإن الجماعات المتطرفة استغلت الحكم الضعيف لكسب النفوذ، وسد الفراغ الإداري والحكومي في بلدات نائية، من خلال تقديم هياكل وأنظمة حكم بديلة، بدءًا بتقديم الخدمات الاجتماعية (التعليم، والرعاية الصحية، والمعونات المالية)، وإطلاق أنظمة العدالة، مثل: (تطبيق الشريعة الإسلامية)، وفرض الضرائب على السكان.

ج- قضايا الحكم

تؤدي تحديات القيادة والحوكمة دورًا بارزًا في الاستقرار السياسي المتدهور في نيجيريا. وتعود جذور هذه التحديات إلى عناصر مؤسسية، وبنيوية، وتاريخية، أعاقت تقدم البلاد، وثقة المواطنين في قادتها، ويمكن ملاحظة هذا في الإنفاق الحكومي المسرف، الذي يستنزف الموارد العامة، وكون أداء نيجيريا سلبيًّا في مؤشرات الفساد الدولية (احتلت نيجيريا المرتبة ١٤٠ من بين ١٨٠ دولة، وفقًا لمؤشر مدركات الفساد لعام ٢٠٢٤م، الذي أعدته منظمة الشفافية الدولية)،[١٧] بالإضافة إلى التقارير الاستقصائية المحلية عن نهب الأموال العامة، من قبل مسؤولي الحكومات، كما هو واضح في مليارات نيرا – عملة نيجيريا – المخصصة لمشاريع التنمية، والمعدات العسكرية، والبنية الأساسية التي اختُلِسَت على مرّ العقدين الماضيين (قدّر القائم بأعمال الرئيس التنفيذي لهيئة مكافحة الجرائم الاقتصادية والمالية النيجيرية في عام ٢٠١٩ م، أن نيجيريا تخسر ٥٠ مليار دولار سنويًّا بسبب الفساد).[١٨] وهناك عامل التدخلات السياسية، التي غالبًا ما تقوض استقلالية الهيئات التنظيمية، ومهام وكالات مكافحة الفساد، مثل: «لجنة الجرائم الاقتصادية والمالية»، و«اللجنة المستقلة لممارسات الفساد».

وفي حين أن للحكومات النيجيرية المتعاقبة برامج طموحة، قادرة على دفع عجلة التنمية وتعزيز الأمن، على مرّ السنوات القليلة الماضية، إلّا أنّ فاعليتها كثيرًا ما تتضاءل بسبب التنفيذ المتواضع، وخير مثال على ذلك: قرار إلغاء دعم الوقود، الذي يهدف إلى تشجيع الإصلاحات الاقتصادية، ولكن عدم وجود تدابير تخفيفية لصدماتها على الأسواق النيجيرية، وآثارها الاقتصادية، خلق صعوبات كثيرة غير متوقعة للمواطنين. هذا، مع الإشارة إلى أن الخدمات التي تقدّمها الحكومة بطيئة، وغير متسقة، وبجودة ضعيفة، نتيجة عدم كفاءة الهيئات الحكومية، والمحسوبية، والبيروقراطية. وهناك انتقادات موجهة للقضاء النيجيري، بسبب الانخراط في السياسية، ومزاعم فساد القضاة، وتأخير إصدار الحكم، الأمر الذي يزيد من تراجع

اعتماد المواطنين عليه، في حل قضاياهم وخلافاتهم. وقد كشفت الاستطلاعات المختلفة، أن نسبة كبيرة من النيجيريين، يعتقدون أن قادتهم، يتجاهلون في كثير من الأحيان القضايا الحقيقية، التي تمس حياة البسطاء منهم، كما أن الشباب يرون أنهم مستبعدون من القيادة السياسية، رغم أن أعمار حوالي ٧٠ ٪ من سكان البلاد، تقل عن ٣٠ عامًا.

وهناك توترات قائمة بين الحكومة الفيدرالية (في أبوجا)، وحكومات الولاية (البالغة عددها ٣٦ ولاية)، بشأن ملفات الأمن وتوزيع الموارد.[١٩] بالإضافة إلى تصاعد التوترات بين أكثر من ٢٥٠ مجموعة إثنية في نيجيريا، بسبب تصورات التمثيل السياسي غير العادل، ومزاعم استفادة إقليمٍ معين من موارد البلاد، أكثر من الأقاليم الأخرى. وهذه النقطة ملحوظة في جنوب الشرق؛ حيث مزاعم الاستبعاد من الإدارة الوطنية، تؤجج الميول الانفصالية، في حين يرى إقليما: جنوب الغرب، وجنوب الجنوب، أنهما يحملان ثقلًا اقتصاديًّا، دون تلقي تعويض عادل، مقارنة بالأقاليم الشمالية، التي تُظهِر نخبها السياسية، عدم استعدادهم لمعالجة جذور الأزمات المزمنة، التي هم أكثر المناطق تضررًا منها، مثل: تفاقم الفقر، وانعدام الأمن، وضعف الإنتاجات الاقتصادية، رغم إمكانات المنطقة الشمالية الهائلة.

ثانيًا: تداعيات تدهور الاستقرار السياسي بنيجيريا

لقد ترك تدهور الاستقرار السياسي في نيجيريا آثاره السلبية في قطاعات مختلفة في البلاد. وتؤكد جميع المؤشرات أن استمرار الوضع، دون معالجة القضايا والعوامل سابقة الذكر، سيؤدي إلى التداعيات التي تتخطى خطوط الأبعاد السياسة، إلى الاعتبارات الاقتصادية والاجتماعية، على المستويات المحلية والإقليمية والدولية. ويمكن إيجاز أبرز تلك التداعيات على النحو الآتي:

أ- السياق المحلي

قد يؤدي عدم معالجة تدهور الاستقرار السياسي في نيجيريا إلى تزايد انهيار الدولة، وتآكل التعددية الإثنية، والتماسك الاجتماعي، وهو ما قد يحثّ المؤسسة العسكرية على الإطاحة بالحكومة المدنية، وإمكانية حدوث هذا السيناريو، واضح في احتجاجات أغسطس عام ٢٠٢٤م، ضد الحكومة الفيدرالية، عندما لوّح بعض الشباب في شمالي نيجيريا بالأعلام الروسية، وهو ما يرجح استياء الشباب من الحكومة المدنية، ودعوتهم علنًا للجيش النيجيري لتنفيذ انقلابٍ، مُتأسِّيًا بجيش دولة النيجر المجاورة. وقد يؤدي عدم الاستقرار السياسي إلى تفاقم انعدام الأمن، وإلى السطو المسلح، والاختطاف، وأشكال الجرائم الأخرى، كما هو الحال مع كل من «بوكو حرام»، وفصائلها التي تستغل ضعف الحكم في المناطق الريفية لتقوية أنشطتها، والصراعات

المجتمعية على الموارد الطبيعية، وأراضي الزراعة، والمياه، وحقوق الرعي، بسبب الوساطة الحكومية غير الكافية، وغياب الدولة، وتصاعد فرص التجنيد من قبل الجماعات الإجرامية، نتيجة البطالة، والتهميش، والإحباط، إلى جانب الاستغلال غير المنضبط للموارد الطبيعية في مجتمعات الصراع.

إن عدم الاستقرار يثبط الاستثمار؛ إذ يتجنب المستثمرون المناطق غير المستقرة، كما يعطل الزراعة والتجارة والتصنيع، ممّا يؤدي إلى فقدان الوظائف، وانخفاض الدخل. وتؤدي السياسات الاقتصادية ضعيفة التنفيذ، إلى زيادة تكاليف المعيشة والفقر، الأمر الذي يثير غضب الشباب المستائين؛ فيلجؤون إلى المظاهرات، بل إن الاضطرابات الناتجة عن تلك السياسات الاقتصادية، غالبًا ما تحوّل انتباه الحكومة عن الخدمات العامة الأساسية، مثل: الرعاية الصحية، والتعليم، وتنمية البنية الأساسية، بالإضافة إلى إمكانية تأثر شعبية الرئيس «تينوبو» وحزبه «مؤتمر الجميع التقدميين» الحاكم؛ حيث بدأ بعض حلفاء «تينوبو» السابقين، والأحزاب المعارضة، يستغلون الأوضاع الاقتصادية، لإعادة ترتيب أوراقهم السياسية، والعودة إلى السلطة في رئاسيات عام ٢٠٢٧م القادمة.

هذا، بالإضافة إلى أن تزايد تدهور الاستقرار السياسي يؤدي إلى نزوح الملايين، وخاصة في المناطق المعرضة للصراع، وتصبح الإضرابات والمظاهرات أكثر تواترًا وعنفًا، وخاصة في المدن القريبة، ممّا يؤثر على الحكم المدني والعمليات الديمقراطية، ويغذي انعدام الثقة، والمنافسة بين الطوائف المختلفة، خاصة وأن انعدام الأمن، وعدم الاستقرار، يؤثران بشكل غير متناسب على المناطق الريفية، ممّا يتسبب في تعميق التفاوت بين الأماكن الحضرية، والمناطق التابعة، ويؤدي إلى تعطيل سلاسل التوريد، ونقص المهارات، كما هو الحال في بعض المناطق بإقليمي: شمال الشرق، وجنوب الشرق، التي تعاني إغلاق المدارس، وهجرة المهنيين.

ب- السياق الإقليمي

تعني المكانة المهمة التي تحتلّها نيجيريا في إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى، أن عدم الاستقرار السياسي يهدّد المنطقة بشكل عام، وغرب إفريقيا بشكل خاص؛ إذ كونها الدولة الأكثر اكتظاظًا بالسكان، وواحدة من أكبر الاقتصادات في القارة، قد يعني أن الدول المجاورة لها، والمؤسسات الإقليمية، ستتأثر في حالة انهيارها، بدءًا من أزمة اللجوء والهجرة، في جميع المناطق الحدودية النيجيرية، مرورًا بزعزعة استقرار حوض بحيرة تشاد، التي تنشط فيها «بوكو حرام» و«تنظيم الدولة الإسلامية ولاية غرب إفريقيا»، والتي نشأت في نيجيريا، وتمدّدت إلى جيرانها في تشاد، والنيجر، والكاميرون. وقد يعيق الانهيار أيضًا دور نيجيريا في مبادرات مكافحة الإرهاب الإقليمية، مثل: «قوة المهام المشتركة المتعددة الجنسيات»، وضعف السيطرة على الحدود، وسهولة انتقال الأسلحة الصغيرة، وانتشار الاتجار بالبشر، والتهريب، وتغذية انعدام الأمن

في جميع أنحاء غرب إفريقيا. إضافة إلى النزوح الداخلي، واللاجئين، مع تفاقم النزعة الانفصالية في جنوب شرقي نيجيريا، ممّا قد يعقد الوحدة الإقليمية، ويُلْهِم الإثنيات التي تشكو من التهميش في الدول المجاورة، وخاصة إقليمي الشمال الغربي والجنوب الغربي الأنغلوفونيين في الكاميرون، والقريبين من إقليمي: جنوب الشرق، وجنوب الجنوب النيجيريين.

وسيشكّل التعامل مع عدد سكان نيجيريا الضخم تحدّيًا كبيرًا للاتحاد الإفريقي و«إيكواس»، في حالة انهيار الدولة، بسبب عدم الاستقرار الناتج عن الأزمات الأمنية المتصاعدة، والسياسات الاقتصادية المضرة للبسطاء، وضعف القيادة النيجيرية. كما يؤدي عدم الاستقرار الاقتصادي إلى تعطيل التجارة داخل غربي إفريقيا، ويصرف المستثمرين بسبب البيئة عالية المخاطر، وخاصة باعتبار مكانة نيجيريا الإستراتيجية في خليج غينيا، وثرواتها المعدنية، ودور ميناء لاغوس في طريق التجارة البحرية الإقليمية. وهذه النقطة مرتبطة أيضًا بأمن الطاقة الإقليمي؛ حيث قد يعطّل الإمدادات الحيوية، ويجهد الاقتصادات المجاورة، باعتبار أن عددًا من دول غرب إفريقيا تعتمد على نيجيريا للحصول على إمدادات الطاقة، مثل: الغاز الطبيعي، والكهرباء، من خلال مبادرات متعددة، تشمل «خط أنابيب الغاز في غرب إفريقيا». وعلى نحو مماثل، سيعني عدم الاستقرار السياسي، نهاية لمشاركة نيجيريا في مشاريع البنية الأساسية الإقليمية، مثل: مشاريع النقل، وتكامل الطاقة، مثل: («خط أنابيب الغاز العابر للصحراء»، و«خط أنابيب الغاز بين نيجيريا والمغرب»)، ممّا يعوق التنمية الاقتصادية الإقليمية.

ج- السياق الدولي

إن لتدهور الاستقرار السياسي في نيجيريا عواقب وخيمة، بسبب دورها القاري والدولي، وخاصة في سياق أسواق النفط العالمية، والهجرة، والأمن الدولي؛ فعدم استقرار نيجيريا، قد يؤثر في المبادرات القارية، مثل: «منطقة التجارة الحرة القارية الإفريقية»، التي تهدف إلى تعزيز الوحدة الاقتصادية والازدهار في جميع أنحاء إفريقيا. وقد تفاقم الصعوبات الاقتصادية هجرة الشباب غير النظامية نحو أوروبا، عبر دول العبور، مثل: النيجر، وليبيا، كما يمكن أن يؤدي إلى انخفاض الصادرات، والتأثير على أسعار النفط العالمية، باعتبارها منتجًا رئيسًا للنفط، وعضوًا في «منظمة الدول المصدرة للبترول» (أوبك). وقد تتسبب اضطرابات الإمدادات في نيجيريا للغاز الطبيعي المسال، بنقص التكاليف، أو زيادتها في الأسواق الأوروبية، وخاصة أن أوروبا تسعى إلى بدائل للطاقة الروسية. وهذا إلى جانب أن للمنظمات المتطرفة والمسلحة، مثل: «بوكو حرام»، و«تنظيم الدولة الإسلامية ولاية غرب إفريقيا»، علاقات بشبكات إرهابية دولية أكبر، مثل: القاعدة، و«داعش»، الأمر الذي قد يمكّن هذه الجماعات من التوسّع في عملياتها، وتعريض المصالح الدولية للمخاطر والتهديدات.

ويضاف إلى ما سبق، أن عدم الاستقرار في نيجيريا، قد يزيد من تنافسات جيوسياسية، بما في ذلك دخول القوى الدولية في البلاد، مثل: الولايات المتحدة الأمريكية، والصين، وروسيا التي تسعى إلى تعزيز نفوذها في إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى، عبر بوابة نيجيريا. وقد تزيد الدول الغربية من تدخلاتها بدعوى حماية إمدادات الطاقة – وخاصة في دلتا النيجر – أو مكافحة الأعمال الإجرامية في خليج غينيا، أو جهود مكافحة الإرهاب.

خاتمة

إن الأزمات الاقتصادية والأمنية، وقضايا الحكم والقيادة في نيجيريا، تغذي بعضها بعضًا، وتنتج بيئة سياسية غير مستقرة تدور في حلقة مفرغة. وفي حالة عدم استدراك الوضع، ومعالجة الأسباب والعوامل الجذرية؛ فإن عدم الاستقرار السياسي، سيؤدي إلى تآكل الحكم، وإضعاف قدرة الحكومة على معالجة القضايا الأمنية والوطنية الأخرى، بشكل مناسب. وهذا يعني أن هناك حاجة إلى إستراتيجية شاملة لكسر هذه الحلقة، ومعالجة الأسباب الكامنة وراء المظالم والعنف، من خلال الحوكمة الشاملة، والاستقرار الاقتصادي، والإصلاحات الأمنية القوية الفاعلة.

إن تعزيز التدابير الأمنية لمعالجة تزايد انعدام الأمن، يجب ألّا يشمل فقط زيادة العمليات العسكرية، لمكافحة الشبكات الإجرامية والتمردات، بل أيضًا تشجيع التدريب المهني، وتوفير المعدات الحديثة، والتعاون بين الحكومات الفيدرالية، والولائية، والمحلية، في القضايا المتعلقة بالأمن، مع الاستفادة من التكنولوجيا والشراكات، في عمليات الاستخبارات ومكافحة الإرهاب. وتتطلب القضايا الاقتصادية من الحكومة والقيادة النيجيرية، إعطاء الأولوية للتنويع الاقتصادي، من أجل تقليل الاعتماد على عائدات النفط، وتعديل السياسات المالية لتثبيت التضخم، والحد من التفاوت، مع الانخراط في مبادرات خلق فرص العمل، وخاصة للشباب.

وأخيرًا، تتطلب علميات تعزيز الاستقرار السياسي في نيجيريا، من أجل حماية مستقبل البلاد، والحفاظ على مكانتها كقوة إقليمية، إعادة بناء الثقة العامة، وتعزيز القيادة المنفتحة والمسؤولة على كافة الأصعدة، ودعم استقلالية مؤسسات القضاء، وإنفاذ القانون، وتعزيز التواصل، وصنع السلام بين مختلف الإثنيات التي تتكون منها نيجيريا.

الهوامش والإحالات

(1) "Western Africa Population (LIVE)," *World O Meters*, accessed January 1, 2025, https://www.worldometers.info/world-population/western-africa-population/.

(2) Zineb Faidi, Cultural flows: *The development and global influence of Nigeria's creative industries, Policy Paper*, (Rabat: Policy Center for the New South, 2024), https://www.policycenter.ma/sites/default/files/2024-06/PP_09-24%20%28Zineb%20Faidi%29.pdf.

(3) Tsungai Vushemasimba, "The Role of a Regional Power in Regional Integration: The case of Nigeria in the Economic Community of West African States," (Master Thesis: University of Cape Town (UCT), South Africa, 2022), 55.

(4) "Nigeria Country Report 2024," *BTI Transformation Index*, accessed January 1, 2025, https://bti-project.org/en/reports/country-report/NGA.

(5) Kouassi Yeboua, et al.,"Nigeria: GEOGRAPHIC FUTURES," *African Futures & Innovation Programme, ISS Africa,* accessed January 1, 2025, https://futures.issafrica.org/geographic/countries/nigeria/

(6) Stephen Onyeiwu, "Nigeria's economy in 2025 doesn't look bright – analyst explains why," *The Conversation*, January 6, 2025, https://theconversation.com/nigerias-economy-in-2025-doesnt-look-bright-analyst-explains-why-241522.

(7) Emmanuel Addeh, "Nigeria Finally Meets OPEC Quota, Lokpobiri Credits Tinubu for Increased Oil Output." *This Day*, January 7, 2025, https://www.thisdaylive.com/index.php/2025/01/07/nigeria-finally-meets-opec-quota-lokpobiri-credits-tinubu-for-increased-oil-output/.

(٨) حكيم نجم الدين، «تفاقم الأزمات السوسيواقتصادية في نيجيريا: تداعياته لإدارة الرئيس «بولا تينوبو» والتوقعات المستقبلية،» منصة الدراسات الأمنية وأبحاث السلام، (١٣، نوفمبر، ٢٠٢٤م)، https://pressplatform.net/تفاقم-الأزمات-السوسيواقتصادية-في-نيج/.

(9) Aanu Adeoye, "Nigeria tax spat opens country's smouldering north-south divide," *Financial Times*, December 21, 2024, https://www.ft.com/content/698810d9-ee10-4aeb-96a2-70ca25171d22.

(10) World Food Programme, *Economic hardship, the climate crisis and violence in the northeast projected to push 33.1 million Nigerians into food insecurity in 2025* (Abuja: WFP, 2024), https://www.wfp.org/news/economic-hardship-climate-crisis-and-violence-northeast-projected-push-331-million-nigerians.

(11) National Bureau of Statistics, *Nigeria Labour Foce Survey (NLFS), Q1 2024* (Abuja: NBS, 2024), https://www.nigerianstat.gov.ng/pdfuploads/NLFS_Q1_2024_Report.pdf.

(12) Tony ZIPREBO and ALFRED OBI, "Economic Hardship and End Bad Government Protest: Causes, Effects, Educational Implications and Way Forward," *International Journal of Law, Politics & Humanities Research*, 5: 6, 2024, https://cambridgeresearchpub.com/ijlphr/article/view/349/344.

(13) Ibukunolu James, "Nigeria's Rising Insecurity: Implications for the Nigerian Economy," *budg IT*, April 15, 2024, https://budgit.org/nigerias-rising-insecurity-implications-for-the-nigerian-economy/.

(14) Dyepkazah Shibayan, "Nigerian army says it killed 76 extremists during a weeklong operation in Borno State," *AP News*, January 16, 2025, https://apnews.com/article/nigeria-boko-haram-islamic-state-group-military-borno-state-c67c35481f8425591bd61a4413a881e7.

(15) Camillus Eboh, "Nigerian air force expands fleet with 34 Italian jets, helicopters," *Reuters*, October 14, 2024, https://www.reuters.com/business/aerospace-defense/nigerian-air-force-expands-fleet-with-34-italian-jets-helicopters-2024-10-14/.

(16) Freedom Onuoha, et al., "Non-State Armed Groups and the 2023 General Elections in Nigeria," *Democracy and Security*, January 31, 2025, https://www.tandfonline.com/doi/full/10.1080/17419166.2025.2459068.

(17) Trading Economics, *Nigeria Corruption Rank (New York City: Trading Economics, 2024)*, accessed January 15, 2024, https://tradingeconomics.com/nigeria/corruption-rank.

(18) Economic and Financial Crimes Commission, *Nigeria Loses $50billion to Corruption Annually – Magu* (Abuja: EFCC, 2019), https://www.efcc.gov.ng/efcc/news-and-information/news-release/4584-nigeria-loses-50billion-to-corruption-annually-magu.

(19) Uzoamaka Nwagwu and Ogechukwu Enwelum, "Review of challenges to national security in Nigeria and Government responses," *Nnamdi Azikiwe University Journal of International Law and Jurisprudence*, 15: 2, 89-103.

محفزات وتحديات توسع تحالف دول الساحل

د. أحمد عسكر، باحث بمركز الأهرام للدراسات السياسية والإستراتيجية، القاهرة.

جاء تأسيس تحالف دول الساحل في سبتمبر عام ٢٠٢٣م، والذي يضم في عضويته دول: النيجر، ومالي، وبوركينا فاسو، بمثابة نقطة تحول إستراتيجية في منطقة الساحل، تلعب دورًا بارزًا في إعادة صياغة توازنات القوة، بما قد يعيد تشكيل التفاعلات الدولية والإقليمية في المنطقة، والتي تأتي ضمن سياق إقليمي مضطرب، وعلى درجة كبيرة من التعقيد، خاصة مع ديناميكية التفاعلات التي تشهدها المنطقة على مدار السنوات الخمس الماضية، انطلاقًا من سلسلة الانقلابات العسكرية، التي بدأت في مالي، وتلتها بعض دول المنطقة الأخرى، مثل: بوركينا فاسو، والنيجر، وغينيا كوناكري، والجابون، وما ترتّب عليها من صعود نخبة من العسكريين الجدد، سعت بشكل حثيث إلى تحويل مسارات علاقات بلدانهم، نحو حلفاء دوليين جدد، على حساب علاقاتها مع الغرب، وبخاصة مع فرنسا، التي تراجع دورها بشكل حاسم خلال السنوات الأخيرة، في ضوء الإخفاقات التي ارتكبتها في مجال مكافحة الإرهاب، على مدار العقد الماضي، منذ انخراطها في شمالي مالي في عام ٢٠١٢م.

ومع توتر العلاقات بين الدول الثلاث: النيجر، ومالي، وبوركينا فاسو، من جانب، والجماعة الاقتصادية في غربي إفريقيا، المعروفة باسم «إيكواس» مدعومة من الغرب وفرنسا، من جانب آخر. وقد بدت الإجراءات التصعيدية التي اتخذتها الدول الثلاث خطوة جريئة، في ظل ضغوط إقليمية ودولية قوية، وعلى رأسها تأسيس تحالف كونفدرالي ثلاثي، على أنقاض مجموعة دول الساحل الخمس G٥ ، وعقب انسحاب دول التحالف الثلاث من تكتل إيكواس بشكل نهائي، منذ أوائل عام ٢٠٢٤م، وذلك في رسالة واضحة، بإصرارها على التأكيد على استقلاليتها، ورفض التبعية للغرب وفرنسا وحليفتها إيكواس، والرغبة في تفعيل التحالف الثلاثي الجديد، ليصبح موازيًا للتكتل الإقليمي، مع ترك الباب مفتوحًا لانضمام أي من الدول الإفريقية الأخرى في المنطقة إليه مستقبلًا، في إشارة إلى الانفتاح على توسيع عضوية التحالف، ليكتسب المزيد من الثقل السياسي والاقتصادي والأمني، مع تمدّد رقعته الجغرافية في الساحل وغربي إفريقيا، بما يمنحه درجة كبيرة من النفوذ على الصعيدين الإقليمي والدولي، وهو يستغل في سبيل ذلك جملة

من المحفزات والفرص، التي قد تصبح عامل جذب مهمًّا لدول المنطقة، دون النظر إلى سلسلة التحديات، التي ربما تواجه الطموحات التوسعية للتحالف في المنطقة، بما قد يفاقم التشابكات الإقليمية والدولية المعقدة في الساحل وغربي إفريقيا، خلال المرحلة المقبلة.

وفي هذا الإطار، يحاول هذا المقال الإجابة عن تساؤل رئيس مفاده: ما المحفزات والمعوقات، التي قد تواجه طموحات تحالف دول الساحل، لتوسيع عضويته ورقعته الجغرافية في منطقة الساحل؟

أولًا - سياقات إقليمية معقدة

حمل توقيت الإعلان عن تأسيس تحالف دول الساحل في سبتمبر عام ٢٠٢٣م العديد من الدلالات، الكاشفة عن حجم التشابكات المعقدة في السياقين: الإقليمي والدولي في منطقة الساحل، على مدى السنوات الأخيرة؛ فقد عمقت سلسلة الانقلابات العسكرية التي شهدتها بعض دول المنطقة، منذ عام ٢٠٢٠م، وتيرة التوترات السياسية بين المجالس العسكرية الانتقالية في دول: النيجر، ومالي، وبوركينا فاسو، وحكومات الغرب بما في ذلك فرنسا، وتكتل إيكواس الإقليمي، الذي عبّر عن موقفه الرافض لتغيير الأنظمة الحاكمة بشكل غير دستوري، لدرجة فرضه المزيد من الإجراءات العقابية ضد بعض دول الساحل، وتهديده للسلطات الحاكمة في النيجر بالتدخل العسكري، ممّا دفع دول: النيجر، ومالي، وبوركينا فاسو، للانسحاب الكامل من إيكواس. كما اتخذت الدول الثلاث إجراءات تصعيدية أخرى ضد فرنسا، بإلغاء معاهدات الدفاع المبرمة معها، وطرد القوات الفرنسية من قواعدها العسكرية في المنطقة، إلى جانب طرد القوات الأمريكية، وقوات بعثات الأمم المتحدة في مالي.[١]

وقد التقت خطوة تدشين التحالف الوليد، مع رغبة العسكريين الجدد في الساحل، في تعزيز شرعيتهم السياسية في الداخل، وتوسيع نفوذهم على المستوى الإقليمي، من أجل تمديد فترات حكمهم، لما بعد انتهاء المراحل الانتقالية في بلدانهم. واستغل هؤلاء تنامي مشاعر الاستياء الشعبي لدى قطاعات عريضة من المجتمعات الإفريقية ضد الوجود الغربي والفرنسي في بلدان الساحل، في كسب الدعم الشعبي لتأسيس تكتل إقليمي جديد، مستقل عن التبعية للغرب، ومناهض له في المنطقة، وهو ما قد يمنح التحالف الجديد شرعية تعزّز بقاءه خلال الفترة القادمة، في مواجهة جميع التحديات التي ربما تقوض وجوده في الساحل.[٢]

وتدرك دول التحالف أهمية وجود هذا الكيان الإقليمي، الذي من شأنه أن يلبي طموحاتها في مجال الأمن بالأساس، إلى جانب دعم عملية التكامل الاقتصادي الإقليمي، لا سيّما في ظل تصاعد نشاط الإرهاب في

الساحل وغربي إفريقيا، اللتين أصبحتا بؤرتين رئيستين للإرهاب في إفريقيا؛ فلا يزال هناك العديد من التنظيمات الإرهابية التي تنشط في المنطقة، وتتورط في العديد من الهجمات المتطرفة، وعلى رأسها تنظيما: القاعدة، ويمثّله جماعة نصرة الإسلام والمسلمين، وداعش، ويمثّله تنظيم داعش في غربي إفريقيا، وتنظيم داعش في الصحراء الكبرى، اللذان يشكّلان المشهد الإرهابي في المنطقة خلال الفترة الأخيرة. وتتزايد التوقعات باستمرار تنامي الموجات الإرهابية في المنطقة خلال عام ٢٠٢٥م، وبخاصة ضد دول التحالف، بهدف تقويض سلطة المجالس العسكرية الحاكمة، بما يهدّد استقرارها وأمنها الداخلي، وارتدادات ذلك السلبية، فيما يتعلق باحتمال تمدد نشاط الإرهاب، إلى الدول الساحلية في غربي إفريقيا، مثل: كوت ديفوار، وغانا، وتوجو، وبنين، والسنغال، وغينيا.[٣]

وقد مهّدت تلك التفاعلات المعقدة، في سياق المشهد الإقليمي بمنطقة الساحل، الطريق بشكل واضح، لنشوء تكتل إقليمي جديد، يستهدف معالجة التحديات الأمنية والعسكرية في المنطقة، لمواجهة التهديدات الإرهابية، وسط تطلعات دول التحالف بتوسع عضوية التحالف، وانضمام دول جديدة إليه، بما يعزز قوته ونفوذه الإقليمي والدولي، خلال الفترة المقبلة، وبما يسهم في إعادة تشكيل الديناميكيات السياسية في غربي إفريقيا والساحل، ممّا قد يفتح آفاقًا جديدة للتعاون الإقليمي، ويدعم المصالح الإستراتيجية لدول التحالف، في سعيها لتحقيق أكبر قدر من الاستقلالية والسيادة.[٤]

إذ تشير تقديرات إلى وجود طموح جماعي، لدى بعض دول الساحل وغربي إفريقيا، للانضمام إلى التحالف، بما يعزز احتمال انضمام بعض دول غربي إفريقيا للتكتل الإقليمي خلال الفترة المقبلة، وعلى رأسها: تشاد، وتوغو، وبنين، والسنغال، وغانا. فعلى سبيل المثال، أجرى وزير البنية التحتية التشادي عزيز محمد صالح، زيارة سرية خلال الفترة الأخيرة إلى العاصمة المالية باماكو، وهو ما أثار تساؤلات حول إمكانية سعي نجامينا للانضمام لهذا التحالف، خاصة بعد مطالبة النظام التشادي الحاكم، بانسحاب القوات الفرنسية من قواعدها المتمركزة في البلاد.[٥]

وربما يعزز مساعي تشاد للانضمام للتحالف الإقليمي الجديد، القرب الجغرافي مع دول التحالف، بالإضافة إلى العلاقات المتوترة مع باريس، والرغبة في وجود بديل إقليمي لمواجهة التحديات الأمنية، في ظل تصاعد انتشار الإرهاب في الساحل. كما أعلنت توغو، أن مسألة انضمامها للتحالف غير مستحيلة، وسط تأييد شعبي للانخراط في التكتل الإقليمي، ومن ثم، ربما يكون انضمام دول جديدة للتحالف مفيدًا لجميع الأطراف، في ظل التطلع لتحقيق أهداف مشتركة، بما في ذلك تعزيز الأمن الإقليمي، ومواجهة الإرهاب، والتكامل الإقليمي الاقتصادي، واحترام سيادة دول المنطقة، ورفض التبعية للغرب.

ثانيًا - محفزات توسع التحالف الإقليمي

هناك العديد من المحفزات، التي تدفع تحالف دول الساحل للمضي قدمًا نحو خطوة توسيع عضويته، بما يعزّز دور التحالف الإقليمي في المنطقة مستقبلًا، في ضوء التفاعلات الجيوسياسية، التي تضفي مزيدًا من التعقيد على المشهد الإقليمي العام هناك. ويمكن الإشارة إلى أبرز تلك المحفزات، وذلك على النحو الآتي:

١- كسب الشرعية السياسية

قد يعني استمرار التحالف، وتعزيز قدراته، وتوسعه، نجاح الدول المؤسسة له: النيجر، ومالي، وبوركينا فاسو، بما قد يمنح السلطات العسكرية الحاكمة فيها درجة كبيرة من الشرعية السياسية، التي ربما تضمن لها البقاء في الحكم لمدة أطول، لا سيّما أن لدى قادة التحالف الثلاثي إدراكًا بأن التحالف يمثّل جزءًا من نضالهم من أجل السيادة، وهو تحدٍّ مباشر لخصومهم الإقليميين والدوليين، لا سيما إيكواس والغرب؛ لذلك هم يستندون في سبيل ذلك إلى حماية الشرعية التي يستمدونها من شعوبهم، في إطار تصدير خطاب حماسي، يدعم بعض الأفكار التحررية، مثل: احترام السيادة الوطنية، والتحرر من الإرث الاستعماري، وإنهاء استغلال الغرب واستيلائهم على الثروات والموارد الإفريقية، وشراكة أكثر عدالة مع الغرب.[٦]

٢- علاقات إقليمية مستقرة

لا تجد معظم دول غربي إفريقيا صعوبة في التواصل مع تحالف دول الساحل، وإقامة علاقات جيدة معها، وذلك نظرًا للقرب الجغرافي، والاعتماد المتبادل في عدد من المجالات، وعلى رأسها الاقتصاد، ومرور التجارة، وغيرها. كما أن التحالف الجديد يمثّل فرصة لقادته، لمواصلة تنسيق الجهود الدبلوماسية، وتعزيز العلاقات مع الشركاء الإقليميين، بما يعزّز قوته الإقليمية وشرعيته، ككتلة إقليمية بديلة؛ وبالتالي، فقد ترى بعض دول المنطقة، أن الانضمام إلى تحالف دول الساحل أمر منطقيّ، ولا يضرّ بالتحالفات الإقليمية الأخرى في المنطقة، لا سيّما إيكواس، في ضوء الالتزام تجاه الكتلتين، بما لا يتعارض مع الأهداف الإقليمية الرامية إلى تعزيز الأمن الإقليمي، والتكامل الاقتصادي الإقليمي في غربي إفريقيا، وغيرها من الأهداف الإستراتيجية الأخرى.[٧]

٣- تأييد شعبي للانضمام للتحالف

ثمة مؤشرات إيجابية حول القبول الذي يحظى به التحالف الثلاثي على الصعيد الإقليمي، والرغبة في توسعه ليضم دولًا إفريقية أخرى، ومن أبرز تلك المؤشرات، دعم الرأي العام المحلي للإجراءات، التي اتخذتها

السلطات العسكرية الحاكمة في دول: النيجر، ومالي، وبوركينا فاسو، فيما يتعلق بتأسيس التحالف في سبتمبر عام ٢٠٢٣م، ورفض الوجود الأجنبي على أراضيها، بما في ذلك طرد القوات الفرنسية. كما أن بعض المسؤولين الأفارقة قد أكدوا تأييد شعوبهم لانضمام بلدانهم المحتمل إلى التحالف الوليد في الساحل، مثل: وزير خارجية توغو، روبرت دوسي، الذي أعلن في يناير عام ٢٠٢٥م، أن مسألة انضمام بلاده المحتمل لتحالف دول الساحل يحظى بتأييد شعبي ملحوظ.[٨]

٤- ضعف الثقة في إيكواس

تعرض تكتل إيكواس لضربة قاسية بانسحاب الدول الثلاث: النيجر، ومالي، وبوركينا فاسو، بما يشكّل تهديدًا لتماسك ووحدة التكتل الإقليمي في غربي إفريقيا. وينظر البعض إلى أن الهدف من تدشين تحالف دول الساحل، باعتباره بديلًا إقليميًّا صاعدًا، هو موازنة القوة الإقليمية لإيكواس، وقطع الطريق أمام أي محاولة منها للضغط على دول المنطقة، لإجبارها على عدم التعامل مع دول التحالف. وهناك إدراك بأن التحالف سيجعل قادة دول المنطقة في مأمن من ضغوط إيكواس والغرب.

كما أن إخفاق إيكواس في معالجة التهديدات الإرهابية، التي تتعرض لها دول غرب إفريقيا والساحل، يسلط الضوء على الاهتمام بالتحالف الوليد، الذي يسعى إلى تحقيق نتائج إيجابية في هذا الملف الشائك، في محاولة لتفادي نقاط الضعف التي تتميّز بها إيكواس خلال السنوات الأخيرة، بما في ذلك عدم الحفاظ على الأمن الإقليمي، وتقويض التعاون الإقليمي بسبب انعدام الأمن في غربي إفريقيا. ويعزّز هذا الطرح إعلان دول التحالف في يناير ٢٠٢٥م تشكيل قوة إقليمية، قوامها ٥٠٠٠ جنديّ، من أجل مواجهة التحديات الأمنية في الساحل.[٩]

٥- رفض التبعية للغرب

تعكس المناقشات حول توسيع التحالف، رغبة متزايدة بين الدول الإفريقية، في تحقيق درجة كبيرة من الاستقلالية عن النفوذ الخارجي، وتعزيز التعاون الإقليمي القائم على المصالح المشتركة. ويرتبط ذلك بتنامي موجة الاستياء الشعبي لدى الرأي العام الإفريقي في غربي إفريقيا، ضد الوجود الغربي والفرنسي بالأساس، وهو ما استغلّته بعض دول المنطقة، مثل: النيجر، ومالي، وبوركينا فاسو، في إنهاء الوجود العسكري الفرنسي هناك، إلى جانب إعادة هيكلة أدوار اللاعبين الأجانب، في استغلال الموارد المعدنية في البلدان الثلاثة، مثل: الذهب، واليورانيوم، وهو ما يسمح بقدر أكبر من الاستقلال الاقتصادي والسياسي، من أجل تعزيز سيادتها. بالإضافة إلى إعلان دول: تشاد، والسنغال، وكوت ديفوار، إنهاء وجود القواعد العسكرية الفرنسية على أراضيها، خلال عام ٢٠٢٥م. ومن هنا، تبدو الرغبة لدى معظم دول الساحل

وغربي إفريقيا، في تبني سياسة خارجية مستقلة وقوية، من أجل تحقيق مصالحها الإستراتيجية، ومواجهة الضغوط الإقليمية والدولية من جانب فرنسا والغرب.[١٠]

وإن كان هناك بعض التقارير، التي تزعم أن كوت ديفوار، بصدد استضافة قاعدة عسكرية أمريكية على أراضيها في منطقة أودين، شمال غربي البلاد، وذلك بعد خروج القوات الأمريكية من النيجر، فإن ذلك ربما يدفع للتمسك بوجود تحالف دول الساحل وتوسعه، ودعم مبادئه، التي تقوم على رفض الوجود الغربي، الذي يستمدها من رفض الرأي العام الإفريقي في الساحل وغربي إفريقيا للنفوذ الغربي في المنطقة.[١١]

٦- تحقيق مكاسب اقتصادية

يهدف تحالف دول الساحل إلى ترسيخ نفسه كتكتل إقليمي قوي، ليس فقط في قطاع الأمن، ولكن أيضًا في مجال التنمية الاقتصادية، في إطار السعي لتفعيل عملية التكامل الاقتصادي الإقليمي في المنطقة. فقد ركّز التحالف خلال العام الماضي ٢٠٢٤م على هيكلة مشروعات جديدة في مجالات الطاقة، والبنية التحتية، والنقل، والأمن الغذائي، كما تستهدف دول التحالف إنشاء اتحاد اقتصادي ونقدي، مع إمكانية إصدار عملة خاصة بالتحالف الإقليمي.

وهي تنطلق في هذا الإطار من كونها تتمتع بإمكانات هائلة، وموارد غير مستغلة، بما في ذلك احتياطات وفيرة من الذهب، والمنجنيز، والنحاس، والحجر الجيري، وغيرها. بالإضافة إلى المساحات الشاسعة الصالحة للزراعة التقليدية، إلى جانب الثروة البشرية، التي تتمتّع بها الدول الثلاث؛ حيث يبلغ عدد سكانها مجتمعة أكثر من ٧٣ مليون نسمة، على رقعة جغرافية تصل مساحتها إلى ٢,٨ مليون كيلومتر مربع.[١٢]

وفي سياق متصل، تعدّ الوضعية الجغرافية لدول تحالف الساحل، ملائمة لتحقيق المزيد من الفوائد الاقتصادية، بالنسبة للدول الساحلية في غربي إفريقيا، مثل: توجو، وكوت ديفوار، وغيرهما، وذلك في ضوء حاجة التحالف الوليد، باعتباره يضمّ دولًا حبيسة إلى منفذ إستراتيجي، من خلال الموانئ البحرية الإقليمية، للتواصل مع العالم الخارجي عبر مياه المحيط الأطلسي. وربما يعدّ ذلك أحد الأسباب التي دفعت توجو، التي تحتضن ميناء لومي، إلى الإعلان في يناير عام ٢٠٢٥م، أنها لا تستبعد الانضمام إلى تحالف دول الساحل، وأن الأمر ليس مستحيلًا.

٧- تدشين حلف شمال الأطلسي الإفريقي

تتطلع بعض دول الساحل إلى تحول التحالف الثلاثي إلى ناتو جديد في إفريقيا، على غرار حلف شمال الأطلسي (الناتو)، وذلك باعتباره يمثّل كتلة دفاع جماعية، تهدف إلى مواجهة أي تدخل عسكري، أو تهديد

خارجي، بما في ذلك مواجهة تصاعد نشاط التنظيمات الإرهابية في غربي إفريقيا والساحل. وإن كان ذلك من الصعوبة بمكان، في ضوء حاجته إلى قدرات مالية كبيرة، كما أن التحول لنسخة إفريقية من حلف شمال الأطلسي، يتطلب عدة شروط تعد مفقودة لدى الدول الإفريقية، وهي: القوة الاقتصادية، والوحدة الإقليمية، والشرعية الدولية. فمن غير المرجح، أن يتمكن تحالف دول الساحل من تطوير البنية التحتية العسكرية القوية، التي يمتلكها الناتو، بدون قوته الاقتصادية الخاصة.[١٣] ومع ذلك، يظلّ هذا الأمر مطروحًا في الفترة المقبلة، في ضوء التغيرات الإستراتيجية، التي تطرأ على المنطقة، بما قد يدفع بعض الأطراف الدولية لدعم التحالف، لتعزيز قدراته العسكرية مستقبلًا.

٨- توسيع دائرة التحالفات الدولية

جاء تدشين تحالف دول الساحل، ليس فقط كاستجابة عقلانية لبيئة التفاعلات الإقليمية، التي تتسم بانعدام الأمن، وعدم الاستقرار الإقليمي، ولكن أيضًا للرغبة المشتركة لدول التحالف الثلاث، في تعزيز سيادتها الوطنية، والبحث عن بدائل إستراتيجية، وحلفاء دوليين جدد على الساحة الدولية.

وبالتالي، يرتكز تحالف دول الساحل بشكل أساس على رغبته في تنويع حلفائه الدوليين، وما يرتبط به من الحصول على المزيد من الدعم المادي واللوجستي، لمواجهة التحديات الإقليمية الراهنة، في مقابل الاستغناء عن الغرب، وقطع الطريق أمام عودة النفوذ الفرنسي بالأساس في المنطقة، في ظل علاقات التوتر التي استمرت على مدار السنوات الأخيرة.

ويرتبط ذلك بشكل واضح، برغبة إقليمية على نطاق واسع، في تجاوز مرحلة النفوذ الفرنسي، الذي أثبت فشله في معالجة التحديات الأمنية والاقتصادية في غربي إفريقيا والساحل، على مدى العقد الماضي، وفتح المجال أمام التحالف مع بعض القوى الإقليمية والدولية الفاعلة، مثل: روسيا، والصين، وتركيا، والمجر، وألمانيا، وغيرها. وهو ما قد يجعل النظرة إيجابية تجاه التحالف الثلاثي الوليد، في إطار المساعي للتخلص من بعض إرث الاستعمار الغربي لإفريقيا.[١٤]

ثالثًا - تحديات قائمة

لا تخلو التطلعات الإقليمية لتوسيع تحالف دول الساحل على الصعيد الإقليمي، من وجود بعض التحديات، التي قد تعرقل هذه الخطوة المحتملة؛ إذ لا يزال التحالف الجديد يفتقر إلى المأسسة، بما في ذلك هيكلته وتقسيمه إلى أجهزة رئيسة، وهيئات إقليمية، تعزز القيام بدوره، والمهام المنوط بها، وهو ما يعزز التكهنات حول احتياجه لوقت أكبر لتفعيله، ممّا يثير المخاوف بشأن استمراريته، لا سيّما مع تنامي التحديات

الأمنية في المنطقة، في ضوء تصاعد نشاط التنظيمات الإرهابية في العديد من المناطق، وسط تخوفات بتمدد تهديداتها إلى ما وراء منطقة الساحل، في عمق الدول الساحلية بغربي إفريقيا، بما يعني ضرورة وجود استجابة إقليمية سريعة، لمواجهة تلك التهديدات الأمنية في المنطقة.

وفي هذا الإطار، يبدو أن تحالف دول الساحل يفتقر إلى القدرات الاقتصادية والعسكرية، التي تؤهله لدعم عملياته العسكرية، بما يضع المزيد من العراقيل أمام توسع التحالف، وإن كان يمكن التغلب على هذا التحدي، من خلال الاستعانة بطرف خارجي، يدعم التحالف ماديًّا ولوجستيًّا، لتعزيز نفوذه الإقليمي، مثل: الصين التي تمتلك القدرات المالية لتمويل التحالف، وروسيا بشكل أقل، في ضوء تذبذب ثقة الأفارقة في الشريك الروسي، بسبب إخفاقات فيلق إفريقيا خلال الفترة الأخيرة، إلى جانب التحديات الاقتصادية التي تواجهها موسكو على المستوى الداخلي، بسبب أزمتها القائمة مع أوكرانيا، وما ترتب عليها من عقوبات غربية لا تزال مستمرة حتى الآن.

كما تتعدد نقاط الخلاف بين التحالف الثلاثي الوليد، وتكتل إيكواس، بما في ذلك نظرة تكتل إيكواس ومعظم دوله الأعضاء، إلى العسكريين الجدد في دول التحالف، على أنهم يفقدون الشرعية السياسية، الأمر الذي ربما يجعل من الصعب انضمام دول أخرى للتحالف، وعلى الأقل في المدى المنظور، إضافة إلى رغبة دول المنطقة أيضًا في عدم التصعيد مع إيكواس، أو توتير علاقاتها معها.

فيما تتزايد المخاوف لدى معظم دول المنطقة، بشأن حالة الانقسام الإقليمية لكتلتين إقليميتين، الأمر الذي قد يعزز التوترات السياسية والعسكرية بين دول الساحل وغربي إفريقيا، ويزيد من حالة الاستقطاب الإقليمي والدولي في المنطقة.

ويرتبط بذلك أيضًا تنامي العزلة الدبلوماسية الدولية، التي قد تعرقل توسع التحالف، خاصة أن الشرعية الدولية هي عنصر أساس في عمل أي تحالف إقليمي، بالرغم من تمتع تحالف دول الساحل بعلاقات متطورة مع القوتين العُظميَيْن: الصين وروسيا، إلّا أنّه يواجه أزمة اعتراف من قبل الغرب وإيكواس، وكذلك من جانب الاتحاد الإفريقي. وهو ما قد يثير المخاوف لدى دول المنطقة بشأن الانضمام، لتفادي التعرض لأية عقوبات أو ضغوط من جانب المجتمع الدولي.

كما أن الاعتماد على الدعم الروسي، لتمويل التحالف وعملياته العسكرية في المنطقة، يمثّل عقبة أخرى، في ظل انشغال موسكو بحربها في أوكرانيا، التي تؤثر بشكل واضح على الاقتصاد الروسي، الذي يتعرض لموجة من العقوبات الغربية والأوروبية، منذ اندلاع الحرب الروسية الأوكرانية في فبراير عام ٢٠٢٢م، حتى إن بعض التقارير الغربية يتهم موسكو بالاستيلاء على الثروات الإفريقية، لتمويل حربها الجارية في شرقي أوروبا.

إجمالًا، يبدو أن منطقة غربي إفريقيا، بما في ذلك الساحل، بصدد حقبة جديدة، تتجه نحو التعددية القطبية، بحيث لا يسيطر تكتل إيكواس على التفاعلات الإقليمية وحده في المنطقة. وهو ما يكشف بشكل جلي، أنّنا بصدد مرحلة تشهد إعادة هيكلة جيوسياسية للمنطقة، بما في ذلك إعادة تشكيل التحالفات الإقليمية، مع بروز تكتل إقليمي جديد، هو تحالف دول الساحل، الذي يعبر بقوة عن ديناميكية التحولات الجوهرية، التي تشهدها المنطقة كلها. وإن كان ذلك ربما يعرض غربي إفريقيا إلى انقسام إقليمي أعمق، وحالة اصطفاف شديدة على المستويين: الإقليمي والدولي. إلّا أنّ احتمال فشل التحالف الجديد، يظلّ مستبعدًا، مع تعقد بيئة التفاعلات الإقليمية، وكذلك التوازنات الجيوسياسية في المنطقة، التي ربما تفرض استمرار هذا التحالف، الذي بات يمثل في الوقت الراهن رمزًا للمقاومة، ضد التدخل الأجنبي في غربي إفريقيا والساحل، واختبارًا لقدرة المنطقة كلها على إدارة مستقبلها.

وبالتالي، يظلّ مستقبل تحالف دول الساحل مرهونًا بقدرته على معالجة جميع التحديات الداخلية والإقليمية، خاصة أنه قد يتطور إلى قوة إقليمية أكثر شمولًا مستقبلًا، في حالة إذا تمكن بشكل واضح من اجتذاب أعضاء وموارد جديدة. ومن ثم، فقد يبحث التحالف عن علاقات متطورة مع عدد من القوى الدولية مثل: الصين، وروسيا، والهند، وتركيا، وغيرها، وبخاصة على المستويين: الأمني والاقتصادي، لتقديم الدعم اللازم له في الفترة القادمة.

الهوامش والإحالات

(1) Kester Klomegah, "Alliance of Sahel States Stepping Forward with Common Economic and Security Aspirations," *Eurasia Review*, February 3, 2025, https://www.eurasiareview.com/03022025-alliance-of-sahel-states-stepping-forward-with-common-economic-and-security-aspirations-oped/.

(2) Ezenwa Olumba and Bernard Nwosu, "Chad's break with France: why it happened and what it means for power dynamics in the Sahel region," *The Conversation*, December 11, 2024, https://theconversation.com/chads-break-with-france-why-it-happened-and-what-it-means-for-power-dynamics-in-the-sahel-region-245429.

(3) Tierno Monénembo, "Guinée, Mali, Burkina, Niger: le cirque ambulant de la transition," *Le Point*, December 18, 2024, https://www.lepoint.fr/afrique/guinee-mali-burkina-niger-le-cirque-ambulant-de-la-transition-18-12-2024-2578256_3826.php#11.

(4) Richard Nyelade, "Alliance of Sahel States: Challenging Colonial Borders and UN Representation? " *KUJENGA AMANI*, April 18, 2024, https://kujenga-amani.ssrc.org/2024/04/18/alliance-of-sahel-states-challenging-colonial-borders-and-un-representation/.

(5) Monojit Das, The Emergence of the Alliance of Sahel States (AES): Future Prospects and the Potential Rise of an 'African NATO'", *Center for Joint Warfare Studies*, December 16, 2024, https://cenjows.in/the-emergence-of-the-alliance-of-sahel-states-aes-future-prospects-and-the-potential-rise-of-an-african-nato/.

(6) The International Crisis Group, *A Splinter in the Sahel: Can the Divorce with ECOWAS Be Averted?* (Brussels: Crisis Group, 2024), https://www.crisisgroup.org/africa/sahel/burkina-faso-mali-niger/splinter-sahel-can-divorce-ecowas-be-averted.

(7) Raphael Parens and Marcel Plichta, Shifting Sands: The Future of West Africa's Power Dynamics and the Sahel Alliance, *Irregular Warfare Initiative*, January 25, 2024, https://irregularwarfare.org/articles/shifting-sands-the-future-of-west-africas-power-dynamics-and-the-sahel-alliance/.

(8) "Togo Says Could Join AES Sahel Defence Pact," *Barron's*, January16, 2025, https://www.barrons.com/news/togo-says-could-join-aes-sahel-defence-pact-4a585bef.

(9) Pedro Stropasolas, Sahel countries exit France-associated bloc with street celebrations and launch new passports, *Brasil de Fato*, February 3, 2025, https://www.brasildefato.com.br/2025/02/03/sahel-countries-exit-france-associated-bloc-with-street-celebrations-and-launch-new-passports.

(10) "Sahel States Exit ECOWAS: A Shift in Regional Alliances," *The Munich Eye*, January 29, 2025, https://themunicheye.com/sahel-states-exit-ecowas-shift-regional-alliances-9172.

(11) Liam Karr, Africa File: Sahelian Juntas vs. ECOWAS; US Base in Côte d'Ivoire, *Institute for the Study of War*, July 11, 2024, https://www.understandingwar.org/backgrounder/africa-file-july-11-2024-sahelian-juntas-vs-ecowas-us-base-c%C3%B4te-d%E2%80%99ivoire.

(12) Kester Klomegah, The Alliance of Sahel States: Implications, challenges and prospects in West Africa, *Modern Diplomacy*, September 17, 2024, https://moderndiplomacy.eu/2024/09/17/the-alliance-of-sahel-states-implications-challenges-and-prospects-in-west-africa/.

(13) Klomegah, The Alliance of Sahel States: Implications, challenges and prospects in West Africa.

(14) Nikolas Fischer, "Should Germany expand strategic partnerships in the Sahel? " *Deutsche Welle*, January 25, 2025, https://www.dw.com/en/should-germany-expand-strategic-partnerships-in-the-sahel/a-68079472.

عرض كتاب

إفريقيا واحدة: تاريخ موجز لحركة الوحدة الإفريقية

حكيم آدي، إفريقيا واحدة: تاريخ موجز لحركة الوحدة الإفريقية، ترجمة: محمد عبد الكريم، (القاهرة: المرايا للثقافة والفنون، ٢٠٢٤م)، ٣٣٧ ص.

د. إيمان عبد العظيم سيد أحمد، مدرس العلوم السياسية بكلية الدراسات الإفريقية العليا، جامعة القاهرة، القاهرة.

يسعى هذا الكتاب إلى تحليل حركة الوحدة الإفريقية، من حيث سيرورتها التاريخية، وطبيعتها المتطورة، وتتبع أصولها منذ القرن الثامن عشر. ويركز على الدور الذي قام به الرواد الأوائل في تشكيل الوحدة الإفريقية. ويتناول اللحظات المحورية التي شكّلت حافزًا لحركة الوحدة الإفريقية، مثل: الحرب الإيطالية الإثيوبية. وتأتي أهمية هذا الكتاب - أيضًا - من أنه كتب بأيدٍ إفريقية، ويتوفر بالعديد من اللغات: (الإنجليزية، والفرنسية، والبرتغالية، والعربية). وقد قمنا بعرض الكتاب من خلال المحاور الآتية:

أولًا - رؤية تحليلية للكتاب

أثّرت الخلفية الأكاديمية التاريخية للمؤلف في تناوله للكتاب، ويمكن عرض نظرة تحليلية على هذا الكتاب، وذلك على النحو الآتي:

ينطلق الكتاب من خلال تقديم مفهوم عام للإفريقانية؛ حيث تناول كل تيارات الفكر السياسي الإفريقي في إطار فكرة الإفريقانية، التي شبهها بالنهر، الذي يشمل جميع الحركات، التي تتمحور حول وحدة إفريقيا. استند الكتاب إلى تناول الإفريقانية من أبعادها الثلاثة: (الفكري والفلسفي، السير الذاتية لروادها، التسلسل الزمني)، تأثرًا بخلفيته التاريخية، ومبتعدًا بذلك عن أداة تحليل النص، أو الخطاب النقدي في تحليل أفكاره.

يأتي في مقدمة الكتاب الحديث عن تعريف الإفريقانية، وارتباطها بالتجارة الأوروبية للرقيق، وأنه لا يوجد تعريف مقبول لها، ولكنها تعني التاريخ والمصير المشترك للأفارقة، في القارة والشتات. وتطوّرت لحركات متنوعة، وتهدف إلى إفريقيا موحدة، كأساس لتحرير جميع الأفارقة في القارة والشتات، ولكنها في الأخير نهر واحد، له العديد من التيارات والفروع.

ويأتي الفصل الأول، الذي يبدأ بالروافد الفكرية، التي حاولت التصدي للاستعمار والعنصرية، والتي تعدّ البدايات الأولى للإفريقانية، وتمثّلت في: (فكرة العودة لإفريقيا، تيار الإثيوبيانية، الروافد الأدبية والثقافية والفنية المتعددة). وانتهى بعرض أول مؤتمر من مؤتمرات الجامعة الإفريقية عام ١٩٠٠م، الذي عزّز الشبكات الإفريقانية، التي تربط جميع من يعملون من أجل تقدم إفريقيا والأفارقة، في القارة والشتات.

وجاءت الفصول: الثاني، والثالث، والرابع، على القدر نفسه من الأهمية؛ حيث تناول الفصل الثاني الحديث عن الجامايكي صاحب الآراء الثورية: ماركوس جارفي (Marcus Garvey)، الذي نادى بالفصل بين السود والبيض، واستبعد السود من ذوي اللون الفاتح من أفكاره، ونادى بالعودة إلى إفريقيا. بينما تناول الفصل الثالث حديثًا عن صاحب الفكر المعتدل، الأمريكي من أصل إفريقي: دوبويس(William Du Bois)، الذي يعدُّ (أبو الإفريقانية)، ويرجع إليه الفضل في عقد مؤتمراتها، التي أسست فكرة الإفريقانية، وعززت شبكاتها، واجتذبت مناصرين لها من العالم. ودعا إلى ضرورة اندماج السود في المجتمع مع البيض، على أساس المساواة الكاملة، ورفض فكرة العودة لإفريقيا. في حين تناول في الفصل الرابع التشابه بين الإفريقانية والشيوعية؛ حيث أوضح الصلة بين الاشتراكية والإفريقانية.

وجاء في الفصل الخامس حديث مهم عن تيار الزنوجة؛ حيث أوضح أن تجليات مبكرة للإفريقانية، بدأت في القرن التاسع عشر، وارتباط مؤتمرات الإفريقانية قبل عام ١٩٤٥م بالأفارقة داخل الإمبراطورية البريطانية. وعلى الجانب الآخر، ظهرت لجنة الدفاع عن العرق الزنجي، ولجنة العمال الزنوج، وحركة الزنوجة، وارتبطت بالأفارقة داخل المستعمرات الفرنسية. احتوت الزنوجة على كتابات إيميه سيزار (Aimé Césaire) من المارتينيك، وليوبولد سينجور (Léopold Sédar Senghor) من السنغال، وليون داماس (Léon Damas)، من غويانا الكاريبي، وتضمنت نقد الاستيعاب الاستعماري والثقافي، والمركزية الأوروبية، وتأثروا بنهضة هارلم، وظهرت في باريس في الثلاثينيات، وحظيت بأهمية وتأثير بين الشتات في العالم الفرنكفوني وإفريقيا، ولم تكن حركة منظمة ذاتية الوعي، وافتقرت لتنظيم رسمي، ممّا سمح لها بالصمود في مواجهة الإجراءات القمعية التي عاناها آخرون.

ويعدّ الفصل السادس والسابع من أهم فصول الكتاب؛ حيث لعب الغزو الإيطالي لإثيوبيا عام ١٩٣٤م دورًا رئيسًا في إثارة الاحتجاجات الإفريقانية في إفريقيا والشتات، ونقطة تحول رئيسة في الإفريقانية، الذي وصل ذروته في مؤتمر مانشيستر عام ١٩٤٥م، وكان المؤتمر قادرًا على إعلاء صوت الأفارقة، وصياغة مطالبهم، لإنهاء الحكم الاستعماري، الذي كان في ذلك الوقت تحت هجوم فعلي في الأمم المتحدة، وصف بأنه ذروة الحركة الإفريقانية، وربما الأهم من بين جميع الاجتماعات الإفريقانية، الذي عقد خارج إفريقيا، وحضره

الغاني نكروما (Kwame Nkrumah)، والكيني كينياتا (Jomo Kenyatta)، والترينيدادي بادمور (George Padmore) وديبوا (William Du Bois)، وغيرهم. ويأتي التركيز في الفصل السابع على عودة الإفريقانية لإفريقيا بعد عام ١٩٤٥م، وشمول الوحدة الإفريقية في شكلها القاري دول شمالي إفريقيا، التي كانت مستبعدة في الشتات الإفريقي. وتناول وجهات النظر المختلفة للطريق إلى تأسيس منظمة الوحدة الإفريقية في شهر مايو عام ١٩٦٣م.

ويؤكد الكتاب في الفصلين: الثامن والتاسع، أن الإفريقانية لم تنته مع خروج الاستعمار من إفريقيا، ولكن بظهور الاستعمار الجديد، ظهرت القوة السوداء، وهي تجسيد لمعارضة ظهور الاستعمار الجديد، خلال السنوات الأولى من الاستقلال في إفريقيا والكاريبي. ويعد الأمريكي من أصل إفريقي مالكوم اكس (Malcolm X)، من أهم المؤثرين في تطور القوة السوداء، والناطق الرئيس باسم أمة الإسلام، وأسس منظمة الوحدة الأفروأمريكية عام ١٩٦٤م، لتمكين الأفروأمريكيين من السيطرة على مصيرهم، سواء في أمريكا أو في إفريقيا. وبعد اغتياله عام ١٩٦٥م، أصبح تأثيره أكبر، وظهرت تمردات سوداء واسعة النطاق، في العديد من المدن الكبرى في الولايات المتحدة. وظهر حزب الفهود السوداء متأثرًا بأفكار مالكوم اكس، واهتم بمشكلات عنف الشرطة، والحرمان الاقتصادي، وعدم التمكين السياسي الذي يواجهه الأفروأمريكيون في الولايات المتحدة، ولكنه أصبح قوة ثقافية وسياسية مهمة، وأعلنت الشرطة الأمريكية أنها المنظمة الأخطر في الولايات المتحدة.

كما ظهرت القوة السوداء العالمية، والقوة السوداء في كندا عام ١٩٦٩م، والقوة السوداء في الكاريبي عام ١٩٧٠م، وكذا الوعي الأسود في جنوب إفريقيا لستيف بيكو (Steve Biko) عام ١٩٦٨م، وكذا القوة السوداء في بريطانيا، والمؤتمر الإفريقاني السادس عام١٩٧٤م. ويلاحظ ارتباط القوة السوداء بالتمكين السياسي في الشتات الإفريقي وإفريقيا، ونقد للعنصرية والاستعمار. وتجسدت في حركتي: نهضة هارلم والزنجي الجديد في الولايات المتحدة عشرينيات القرن العشرين، والزنوجة في العالم الفرنكفوني ثلاثينيات القرن العشرين. كما استعرض مظاهر ثقافية للإفريقانية ما بعد عام ١٩٤٥م، تعكس سعيًا للوحدة بين جميع ذوي الأصول الإفريقية، ومعارضة هيمنة المركزية الأوروبية، وهي: مركز الدراسات الإفريقية أميلكار كابرال (Amílcar Lopes) من غينيا بيساو، والمؤتمر العالمي للكتاب والفنانين الزنوج، وحركة الفنون السوداء، والحركة الراستافارية، وحركة المركزية الإفريقية.

ويأتي الحديث في الفصل العاشر عن استمرارية التأكيد على أهمية الإفريقانية في القرن الحادي والعشرين، وأنها لا تزال مهمة وذات صلة، كما في القرون السابقة. وتساءل حول ما يجب أن تكون عليه في ظل العولمة، وتحدث عن مؤتمر الإفريقانية السابع عام ١٩٩٤م بأوغندا، والذي هدف إلى صياغة رؤية للقرن الحادي

والعشرين، ووضع برنامج عمل للإفريقانية. ثم تناول تكوّن اتحاد إفريقي عام ٢٠٠٢م، واعترافه بالأهمية التاريخية للإفريقانية، ومضيه خطوة للأمام عن منظمة الوحدة الإفريقية، في الاعتراف بالشتات الإفريقي، ودمجهم في أبنيته، وانتهى بعرض مسألة تعويضات أثر الرق والحكم الاستعماري على الأفارقة.

وأعاد التأكيد في خاتمة الكتاب، على أنه من العسير تقديم تعريف واضح ودقيق للإفريقانية، ولكن المؤكد أنها مقاربة متعددة الأوجه، استهدفت وحدة إفريقيا والأفارقة، وتحررهم، ومواجهة مشكلاتهم المشتركة حتى الوضع الراهن. فالمشكلات التي تواجه إفريقيا وشتاتها، مثل: العنصرية، والاستعمار الجديد، والمركزية الأوروبية، لا تزال حاضرة اليوم، كما كان عليه الحال في عام ١٨٩٧م، حينما كوّن هنري سيلفستر وليامز الجمعية الإفريقية في لندن، وأكّد التحديات الحالية التي تواجه إفريقانية القرن الحادي والعشرين، ومنها مسألة: من يمكن اعتباره إفريقيًّا؟ فضلًا عن مدى إمكانية أن تشمل الإفريقانية بين جنباتها الحكومات الإفريقية، والكاريبية ومنظماتها، مثل: الاتحاد الإفريقي، لا سيّما أنها تعدّ من قبل البعض تجسيدًا لمشكلات استعمارية جديدة، تواجه إفريقيا وشتاتها.

ثانيًا - الإشكاليات الفكرية

تتّسم الموضوعات ذات الطبيعة التاريخية والفكرية، بإيلاء مزيد من الاهتمام بالإشكاليات الفكرية، وذلك على النحو الآتي:

١- إشكالية المكون العربي في الإفريقانية

هذه مسألة خلافية، طفت على السطح في مؤتمر الإفريقانية السابع عام ١٩٩٤م، ومن حينها، تجسدت الفلسفة الأساسية وراء الروح الجديدة للإفريقانية، في مسألة أن العرب ليسوا أفارقة، فضلًا عن انتقادها المؤتمر الخامس بقيادة بادمور ونكروما، بسبب تخفيف روح الإفريقانية. ولهذا، يغلب على إفريقانية القرن الحادي والعشرين مشروع إفريقي، يعارض بقوة التورط فيما يشار إليه بالغزاة العرب لشمال إفريقيا. ولهذا، حاولت الكلمة الافتتاحية التي ألقاها الرئيس الأوغندي موسيفني، تقديم تعريف لما هو الإفريقي. ورغم تقديم الكلمة تعريفًا شاملًا لمن استقر في إفريقيا، وجميع من هم في الشتات، ولكن لم تحسم المسألة، وعادت للظهور في المناقشات التالية حول السودان وجنوب إفريقيا، وهو ما يتطلب بناء رؤية عربية للحركة، تساعد على تخليصها من التيارات المتطرفة، التي تنادي بجامعة زنجية إفريقية، تستبعد خبرة شمال إفريقيا.

٢- إشكالية الخلط والتباين في ترجمة كلمة

pan-Africanism، فهي تأتي في النص مرة: الوحدة الإفريقية، ومرة أخرى: الإفريقانية، ومرة ثالثة جاءت كما هي: البان أفريكانزم. ولهذا، يفضل استخدام كلمة الجامعة الإفريقية، بديلًا من الخيارين السابقين؛ فالجامعة الإفريقية هي الفكرة التي يجتمع حولها الأفارقة (شمال القارة وجنوبها)، والشتات الإفريقي في العالم، وهي فكرة الانتماء إلى إفريقيا، ومناهضة الاستعمار والعنصرية، لا سيما في ضوء إدراك الكاتب للفرقة بين العرب والأفارقة داخل القارة، والمتمثلة في تمييز المركزية الأوروبية بين إفريقيا شمال الصحراء، وإفريقيا جنوب الصحراء، وبين الناطقين بالعربية، ومن لا يتحدث بها. وتبنّى الكاتب مقاربة أخرى، تقوم على أن التاريخ قدّم أمثلة على الوحدة، وكذلك على التفرقة، وأكد مرارًا أن الجامعة الإفريقية هي الفكرة القادرة على جمع العرب بالأفارقة، وتساءل عن الفارق الذي كان سيحدثه مؤتمر الجامعة الإفريقية، الذي خطط ديبوا لعقده في تونس عام ١٩٢٨م. ورغم الأعمال العدوانية للحكومة الفرنسية، والظروف التي حالت دون انعقاده بتونس، إلّا أنّه عُقِد المؤتمر في باريس عام ١٩٣٦م، وكان مؤتمرًا للعرب والزنوج، وأولى أهمية كبيرة لدعم إثيوبيا خلال تعرضها لغزو إيطاليا، وهدف لإرساء الاتصال بين العرب والأفارقة والشتات في العالم.

٣- إشكالية النظر إلى الإفريقانية

وذلك باعتبارها المفهوم الشامل، الذي يجبُّ تحته جميع الحركات والتيارات الفكرية، التي تتمحور حول وحدة إفريقيا وشتاتها. وهو ما يثير العديد من الرؤى النقدية. وهذه العمومية في التناول، تتجاهل التمايزات والصراعات بين التيارات والحركات المختلفة في إفريقيا، والطبيعة متعددة الأوجه للإفريقانية، وتطورها التاريخي؛ حيث يلاحظ تحول أهدافها منذ الترينيدادي سلفستر ويليامز (Henry Sylvester Williams) في مراحلها الأولى، حينما ركزت على الأفارقة داخل المستعمرات البريطانية، ومقاومة العنصرية، والتعاون بين الأفارقة على مستوى العالم، دون تركيز على الحكم الذاتي للدول الإفريقية، ومعارضة الحكم الاستعماري، ثم تطورت بعد ديبوا ومؤتمر عام ١٩٠٠م إلى الدفاع عن استقلال الدول الإفريقية. وقد تنوعت أيديولوجية الإفريقانية منذ أواخر القرن التاسع عشر، وشملت أيديولوجيات مختلفة بمرور الوقت، بما في ذلك: (القومية السوداء، والقومية الإفريقية، والأممية السوداء، والمركزية الإفريقية، وغيرها).

إفريقانية المؤتمرات (المتمثلة في المؤتمرات منذ المؤتمر الأول عام ١٩٠٠ في لندن حتى مؤتمر جميع شعوب إفريقيا عام ١٩٥٨ في أكرا)، تختلف عن إفريقانية القومية السوداء، وإفريقانية المركزية الإفريقية مثلًا، رغم تشابه هذه التيارات المتعددة في إيمانها، أنه لا توجد حدود تفصل بين الأفارقة القارين شمالًا وجنوبًا،

وأفارقة الشتات، إلّا أنّ إفريقانية المؤتمرات تنظر لإفريقيا ككيان سياسي وتنظيمي، مستمد من روح الوحدة، بينما تنظر إفريقانية المركزية الإفريقية لإفريقيا كمجتمع ثقافي، مستمد من الكرامة السوداء. تنطلق إفريقانية المؤتمرات من فكرة هامشية إفريقيا، وتدعو لضرورة توحيد شعبها لتحقيق الوحدة، بينما تنظر إفريقانية المركزية الإفريقية لإفريقيا، على أنها مركز الاهتمام العالمي من المنظور الثقافي. وأيضًا هناك فروقات بين إفريقانية المؤتمرات في إفريقيا، ونظيراتها في الشتات.

٤- إشكالية عرض أفكار المفكرين والرواد عرضًا تاريخيًّا بعيدًا عن العرض النقدي

عرضت أفكار رواد العودة إلى إفريقيا مثل: إدوارد بلايدين، وجارفي، دون التطرق إلى مدى التشابه والاختلاف بين هذه الأفكار، وأفكار الصهيونية السوداء، والعوامل المؤثرة في مثل هذه الأفكار، وطبيعة البيئة التي ظهرت فيها مثل هذه الأفكار، ومدى التماسك الفكري، واستمرارية مثل هذه الأفكار. وكذا في سائر المفكرين، وكأنه اكتفى فقط بدور الناقل التاريخي لها، وهو ما لا يتناسب مع عالم الأفكار.

٥- إشكالية غياب التحليل المقارن في عرض أفكار المفكرين

لا سيّما أنّه تبنّى ابتداء منظورًا تحليليًّا، يعتمد على النظر للإفريقانية كنهر واحد، له العديد من الفروع والتيارات، وهو ما يتوجب عليه عرض تياراتها بأسلوب مقارن، لبيان أوجه التشابه والاختلاف بينها.

ثالثًا - الرؤية المستقبلية

نبَّه الكتاب إلى ما يجب أن تكون عليه الإفريقانية "الوحدة الإفريقية" في فترة العولمة، وهو ما يطرح تساؤلًا مفاده: هل لا تزال الإفريقانية ذات صلة وممتدة في القرن الحادي والعشرين؟ يلاحظ إعادة إحياء روح الإفريقانية مع مشروع النهضة الإفريقية، بداية القرن الحادي والعشرين، الذي دافع عنه رئيس جنوب إفريقيا السابق ثابو مبيكي؛ حيث أدّى إنهاء نظام الفصل العنصري إلى إحياء الأمل في إفريقيا حرة، ولكن واجهت النهضة الإفريقية أوائل القرن الحادي والعشرين تحديات، فلم يترجم إلغاء الفصل العنصري إلى حياة أفضل للسود في جنوب إفريقيا، وإنما استمر نظام الفصل العنصري الاقتصادي، ممّا أدى لتهميش السود. ولم يقدم نموذج التنمية الرأسمالية الوحدة لإفريقيا، ولم تترجم المعلومات وفرص التواصل في عصر العولمة، إلى الوحدة الإفريقية.

وأمَّا القومية السوداء فيلاحظ أنّها لم تنته مع الفهود السوداء، ولكن ظهرت القومية السوداء الجديدة. وبحلول عام ١٩٧٥م، تراجعت المنظمات القومية، مثل: أمة الإسلام، وسُجِن العديد من قادتها، أو قتلهم،

أو نفيهم، وانخفضت مظاهر التفوق الأبيض، وظهر مسؤولون من السود، وظهرت أوقات مليئة بالأمل للسود. ومع ذلك، فقد أدت زيادة الفقر، وتجارة المخدرات غير المشروعة، ومعدلات الجريمة المتصاعدة في أواخر الثمانينيات، إلى شعور متجدد بالقلق بين الأمريكيين من أصل إفريقي؛ فظهرت القومية السوداء الجديدة، وتولى الأمريكي من أصل جاميكي لويس فراخان (Louis Farrakhan) قيادة أمة الإسلام، وتحدث عن الحاجة إلى أن يعيش السود حياة مسؤولة، خالية من المخدرات والقمار والكحول. وتحدث عن المسؤولية الشخصية، والقيم القومية السوداء، ممّا جعل جاذبيته قوية. وقامت أمة الإسلام بهجوم على الطبيعة المؤسسية للتفوق الأبيض، ونمت المنظمة مع ازدياد الهجمات عليها، ووفرت المنظمة الأمن لمشروعات الإسكان العام، ذات معدلات الجريمة المرتفعة، ممّا أدّى إلى انخفاض الجريمة انخفاضًا كبيرًا في بعض الحالات. وقدمت أمة الإسلام رؤية مختلفة لتمكين السود، واعتمد خطابهم على الذات، وانتقاد العنصرية المنهجية للبيض، على الرغم من الاتهامات بأن المنظمة عنصرية، إلّا أنّها استمرت في جاذبيتها، ممّا أدّى لتنظيم أكبر تجمع للسود، وهو مسيرة المليون رجل عام ١٩٩٥م.

تعتبر مسيرة المليون رجل التي دعا إليها لويس فرخان في واشنطن عام ١٩٩٥م لحظة فاصلة في تاريخ القومية السوداء، كما أنها تجاوزت أي حدث قومي أسود سابق، من حيث الحجم والتأثير. ولم تنته القومية السوداء عند هذا الحد، وإنما عبّرت عن نفسها أيضًا في عام ٢٠٢٠م، مع جريمة قتل الأمريكي من أصل إفريقي جورج فلويد (George Floyd)، على يد ضابط شرطة في مينابوليس، حيث آثار قتل فلويد احتجاجات عالمية، حملت شعار: «حياة السود مهمة» ردًّا على عنصرية وعدائية الشرطة مع ذوي البشرة السوداء، ونادت بتشريع لحل عدم المساواة العرقية.

ويمكن القول: إن الإفريقانية، هي فلسفة ورؤية، تجمع بين الأفارقة من جميع أنحاء العالم، وتوفر إطارًا للأفارقة للتنظيم، والسعي إلى عالم يعترف بإنسانيتهم، ونشأت استجابة للعنصرية والاستعمار، ولهذا، فإنها تتضمن البحث عن المعرفة حول إفريقيا وهويتها، ومستقبلها المحتمل.

الهوية الإفريقية والمشاريع الاستعمارية

سوزان عبد المحسن عبد القوي، مشروع سيسل رودس الاستعماري وأثره على الهوية الإفريقية، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٥م)، ٤٦١ ص.

د. شيرين جابر، باحث أول، مركز الدراسات الإستراتيجية، مكتبة الإسكندرية، الإسكندرية.

تسابقت الدول الأوروبية الكبرى على القارة الإفريقية؛ تنهب من خيراتها، وتخطط المشاريع التي تمكّنها من السيطرة والبقاء على أكبر قدر من الأراضي، لتصبح لها الغلبة والهيمنة بين الدول الكبرى، وكانت القارة الإفريقية هدفًا لتلك الدول. وقد تحقّق لبريطانيا السبق والغلبة بين الدول الاستعمارية؛ وذلك بفضل رجالها: ساسة، ومنصرين، ورجال مال. ولعلّ من أهمّ وأبرز هؤلاء الرجال، هو «سيسل جون رودس Cecil Rhodes»،[1] الذي كان فكره مثالاً لعصر الاستعمار والدكتاتورية البريطانية. وقد رسخت في فكر رودس فكرة استعمارية كبيرة، تكمن في سيطرة بريطانيا على أكبر قدر من القارة الإفريقية، وقد حدَّدها من خلال مشروعه الاستعماري، الذي يهدف إلى مد خط سكة حديد من «الكيب جنوبًا حتى القاهرة شمالًا»؛ لتصبح هذه المناطق تابعة للتاج البريطاني، وتقطع الممتلكات البريطانية القارة رأسيًّا.

وقد ألقت الدراسة الضوء على خط سير المشروع الاستعماري، كما أورده رودس وغيره من الاستعماريين، لتحقيق حلم بريطانيا في السيطرة على القارة الإفريقية. ويرجع اختيار عام ١٨٧١م كبداية لفترة الدراسة، باعتباره العام الذي اتجه فيه رودس إلى مدينة كمبرلي جنوب إفريقيا، للعمل في حقول الماس، فكان ذلك نقطة تحول في حياته، مكّنته بعد ذلك من التخطيط لمشروعه الاستعماري، على الرغم من أن وصوله إلى جنوب إفريقيا كان قبل ذلك بعام. وكان عام ١٩٢٤م هو نهاية فترة الدراسة؛ لأن الأمور فيه قد استقرت لبريطانيا في جنوب إفريقيا، وتحولت دول إقليم إفريقيا الوسطى الجنوبية إلى الكومنولث البريطاني، وتحوّلت أوغندا إلى محمية بريطانية، كما استقرت الأوضاع في مصر، وكذلك السودان، بعد حادث مقتل السردار «لي ستاك Lee Stack».

ومن خلال قراءة الدراسة، اتّضح لنا أن فكرة مشروع سيسل رودس الاستعماري، كانت نتاجًا طبيعيًّا للفكر البريطاني في العصر الفيكتوري، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ذلك الفكر الذي ينادي بسيادة الجنس الأنجلوساكسوني على باقي أجناس العالم.

لقد سيطرت على رودس الأفكار الاستعمارية، التي تنادي إلى الإسراع نحو إفريقيا، قبل أن تسبقهم لهذا شعوب أخرى، فضلًا عن تعليم الشعوب التي يستعمرونها: كيف تدين بالولاء لبريطانيا؛ ففي رسالة له، عبَّر فيها عن آرائه وأفكاره الاستعمارية، كتب يقول: «إن الله يريد أن يوجد الإنسان في أحسن هيئة، ليعبر للعالم عن إرادته، ويُعلم الناس ليعيشوا شرفاء، ولنشر المبادئ السامية، ويتمثل الإنسان في أحسن هيئة له في الجنس "الانجلوساكسوني"؛ ولذا يجب أن يمد هذا الجنس نفوذه على مختلف أنحاء الأرض»، كما ذكر أيضًا: «إننا الجنس الأسمى، وبقدر ما تتسع سيطرتنا على أكبر رقعة في العالم، بقدر ما يعم الخير الجنس البشري، وأن كل شبر يُضاف إلى حدود بلادنا، يزيد من نفوذ بريطانيا وقوتها، ويقلل من فرص الحرب».

كان رودس لا يعبأ بأي عمل، ما دام أنّه يتمكّن من خلاله تحقيق نفوذ بلاده، وسياسته الاستعمارية التوسعية؛ فقد كان معتنقًا للمذهب الميكيافيلي، الداعي إلى مقولة: «الغاية تبرر الوسيلة»، وهي مبدأ له، يوضح لنا الكثير من أعماله.

لقد اتخذت السلطات البريطانية أبشع صور التفرقة العنصرية، ألا وهي «صورة الفصل الاجتماعي»، بإبعاد كل عنصر عن الآخر، وهو أن يحدد إقامة خاصة للعنصر المضطهد، ولا يسمح لهم بإقامة ومزاولة أنشطتهم، إلّا في المناطق المحدَّدة لإقامتهم، والتي تُعرف باسم «المعازل»؛ لذا يُعد النظام العنصري في جنوب إفريقيا، أقدم النظم العنصرية في القارة الإفريقية وأعنفها، وأكثرها استمرارية؛ حيث تشكل الأقلية البيضاء في جنوب إفريقيا، أكبر أقلية بيضاء من الناحية العددية، تشهدها القارة، وهي أقلية تمسك بكامل زمام القوة الاقتصادية والسياسية في البلاد.

ولأجل تحقيق هذه السياسة، وُضِعت علاقة جديدة بين المستعمر وصاحب الأرض، تدعمها سلسلة من القوانين العنصرية، وكان على رأسها قانون رودس. وقد سبق التنصير الاستعماري منطقة إفريقيا الوسطى الجنوبية، وأوغندا، بينما في كثير من مناطق القارة، مهّدت الشركات التجارية للاستعمار، وساعد الطرفان سيسل رودس في تحقيق مشروعه الاستعماري؛ لذا، نجد في كل دول مشروع رودس الاستعماري، أن المنصرين البريطانيين، قد لعبوا دورًا لا يقلّ أهمية عن دور رجال السياسة، بل كانت السياسة التنصيرية أدهى وأكثر تصويبًا للهدف من أي مجال آخر. كما كان لتأسيس الجمعيات التنصيرية في بريطانيا أثر مهمٌّ في استعمار القارة؛ فقد تعدّدت أسماؤها وهيئاتها، ولكنّها في نهاية الأمر كان لها هدف واحد.

دخلت الجامعات البريطانية طرفًا في الاستعمار، وفي تأسيس الجمعيات الكشفية والتنصيرية في إقليم إفريقيا الوسطى الجنوبية وأوغندا، وحظيت بدعم وتأييد أثرياء لندن، كما أن الرحلات الكشفية كان لها أهداف، لا سيما «ديفيد ليفينجستون David Livingstone»،[٢] الذي أولى منطقة الزمبيري، وبحيرة نياسا، اهتمامًا كبيرًا؛ وكذلك «هنري مورتون ستانلي»،[٣] الذي حثّ حكومته وجميع الهيئات التنصيرية

على الإسراع للسيطرة على أوغندا، ووقف النشاط المصري؛ خاصة بعد أن عقدت البعثة المصرية معاهدة مع الكاباكا موتيسا الأول -ملك أوغندا في عام ١٨٧٤م - تقضي بقبوله الحماية المصرية على أراضيه.

أسفرت اكتشافات ليفينجستون عن تدعيم السيطرة البريطانية على أراضي الباروتسي، وأودية الزمبيزي بزامبيا، فقد دعا حكومة بلاده لإقامة مستعمرة بريطانية عند نهر الزمبيري، وإذا كانت الحكومة قد تباطأت في تنفيذ ذلك، إلّا أنّ أعضاء البعثات التنصيرية سارعوا بتشجيع ومناصرة بلادهم، لبسط السيطرة على المنطقة؛ فارتبط ليفينجستون بعلاقات قوية مع حكام الباروتسي، وأقنعهم بالموافقة على إقامة محطة تنصيرية، فنتج عن ذلك أن نزح المنصِّرون إلى أراضي الباروتسي، بهدف توطيد وبسط النفوذ البريطاني على إقليم الزمبيري. كما حرص رودس على بسط نفوذ شركته على أراضي الباروتسي، فاستغل المنصّر الفرنسي كوبار في إقناع الزعيم سيكيليتو بالموافقة على منح الشركة امتيازًا في أراضيه، يمكِّنه من تحقيق حلمه الاستعماري الكبير: من الكيب إلى القاهرة.

لعب ليفينجستون دورًا بارزًا بكشفه النقاب عن بحيرة نياسا، والمناطق المحيطة بها، والتي وصفها بأنّها واحة خضراء، ومركز مثالي للتنصير، ممَّا دفع الجمعيات والهيئات التنصيرية لإرسال العديد من البعثات. وتعدّ أبرز نتائج رحلات ليفينجستون الكشفية هي حثّ حكومته البريطانية والجمعيات التنصيرية على القضاء على الوجود العربي في المنطقة، بعد أن لاحظ تزايده من خلال النشاط التجاري بين العرب في ساحل شرقي إفريقيا، والوطنيين في نياسالاند، ممّا أدّى إلى اعتناق بعض القبائل الإسلام، ولا سيّما قبيلة الياو، التي تستوطن الطرف الجنوبي من بحيرة ملاوي.

حرص ليفينجستون على إظهار العرب في أبشع صورة، خاصة بعد علمه بانتشار الإسلام بين القبائل الوثنية في نياسالاند، بصورة أقلقته كمنصر؛ إذ كيف ينتشر الإسلام بهذه السرعة دون دعاية أو دعاة، مقابل رفض الوثنيين ديانة الرجل الأبيض، على الرغم من الخدمات التعليمية والصحية؟!

جاءت اتفاقية تحديد الحدود بين المستعمرات، لتنهي التسابق والتصارع على إقليم إفريقيا الوسطى الجنوبية، ويمكن أن نطلق على البعض منها، أنّها كانت بمنزِلة مساومات استعمارية، وخاصة اتفاقية تحديد الحدود بين بريطانيا والبرتغال؛ فنجحت بريطانيا في تحقيق مشروعها الاستعماري الكبير الذي تبناه رودس، ألا وهو: من الكيب إلى القاهرة؛ فاكتسحت قواتها جنوب إفريقيا، وأزاحت البوير - مستوطني جنوب إفريقيا الذين ينحدرون من أصل هولندي أو فرنسي - ثم قضت عليهم، ومهّد المنصِّرون البريطانيون الطريق أمام القوات العسكرية، للتقدم في إقليم إفريقيا الوسطى الجنوبية، ومنها انطلقوا شمالًا حتى مملكة بوجنده «أوغندا»، ثم السودان الذي غنمته بريطانيا في اتفاق ١٨٩٩م، بينما استقرت سهام التوسع في مصر منذ عام ١٨٨٢م، آخر محطة في المشروع الاستعماري البريطاني.

والغريب في الأمر، هو أنه على الرغم من كل ما عاناه الأفارقة من حكم البيض، تحقيقًا لمشروع رودس الاستعماري، ومن الفظائع التي أسفرت عن سقوط مملكة الميتابلي، ومملكة الباروتسي، ونياسالاند، ثم أعقب ذلك استغلال مجحف لثروات هذه المناطق، وبعد مرور هذه الأعوام الطويلة، فقد وضعت بريطانيا يدها على المنطقة، عندما فكّرت الحكومة البريطانية في تكوين اتحاد وسط إفريقيا الجنوبية من الأقاليم الثلاثة السابقة، واستعانت برجال الدين لإقناع الأفارقة، فبدأوا من جديد يطلقون شعارات: «معاونة الأفارقة»، و«الاتحاد الأبوي»، و«إدخال الحضارة»، و«الأيدي الأوروبية المتحضرة»، ولكنهم لم يحققوا نجاحًا كبيرًا هذه المرة؛ فلم يستمر هذا الاتحاد إلّا في سنوات قليلة، ثار في أعقابها الأفارقة مطالبين بحريتهم واستقلالهم.
جدير بالذكر، أنَّ كلَّ الساسة البريطانيين، وإن اختلفت مهامهم، كانوا يعملون بسياسة مرسومة، وفقًا لتحقيق مشروع رودس الاستعماري؛ ففي أوغندا، تتجلى بوضوح أهداف بريطانيا التوسعية، ونيّاتها الاستعمارية؛ فقد كانت تسعى برجالها الضباط والمستكشفين، لتقوية نفوذها في كل المناطق الإفريقية التي دخلوها، متظاهرين أن العمل الرئيس هو خدمة الحكومة المصرية، وهو في الحقيقة العمل على غرس قدم الوجود البريطاني في البلدان الإفريقية، التي لم تطأها قدم البريطانيين من قبل، إلّا من خلال المستكشفين القلائل على سواحل تلك البقاع فقط.

لقد وقفت بريطانيا ضد التوسع المصري في أوغندا، كما كانت تفعل ضد أي قوة تعارض مصالحها وطموحاتها التوسعية الاستعمارية، خاصة وأن النشاط التنصيري في أوغندا، قد بلغ أشده، ونجح فريدريك لوجارد «Frederick Lugard»[٤] -المؤيد والمروج لفكرة مشروع رودس هو وزوجته الصحفية فلورا شو- في محاربة المسلمين في أوغندا، والقضاء على الوجود المصري، كما حثّ ستانلي، ومن قبله المخطط الكبير رودس، على القضاء على كل من يقف في طريقه، وعلق لوجارد على الأحداث في أوغندا عام ١٨٩٣م بقوله: «إن قيام إمبراطوريتنا الشرقية الإفريقية، لنا حق مكتسب بطول الزمن، في احتلال شرق إفريقيا وبحيراته؛ إذ قد اكتشفها جميعًا رحالة بريطانيون، وسارت إرسالياتنا المسيحية بدخول المنطقة في أعقاب المستكشفين».

وقد نجحت بريطانيا في احتلال أوغندا بفضل بعثاتها التنصيرية، التي لعب أفرادها دورًا مهمًّا في السيطرة على البلاد: زعيمًا، وشعبًا، وأرضًا، إلى جانب الدور السياسي المهم الذي لعبه لوجارد، ومن قبله ستانلي، في إثارة الحكومة البريطانية، وحثها على ضم أوغندا إلى المستعمرات البريطانية في إفريقيا، تحقيقًا لمشروع رودس الاستعماري، بعد أن قبلت هيكل ووظيفة الحياة السياسية التقليدية للحكم والحاكم، بمقتضى معاهدة ١٩٠٠، التي قضت على الكيان الاقتصادي في أوغندا، وحوّلت نظام الأرض الزراعية التي وزِّعت على كافة الطبقات، لتقليل سلطة الكاباكا، ولضمان ولاء الطبقة الجديدة، التي ملَّكها جونستون الأرض، لتكون

تابعة للتاج البريطاني، بالإضافة إلى الحصول على النصيب الأكبر من الأرض، لاستثمارها لصالح حكومتهم البريطانية، أي سياسة: «فرق تسد»، وهذه هي سياسة بريطانيا المعهودة في كل البلدان التي احتلتها، كما فعلت من قبل في جنوب إفريقيا، وإقليم إفريقيا الوسطى الجنوبية.

وممّا تجدر الإشارة إليه، أنه بعد أن آلت إدارة السودان إلى الحكومة المصرية، وقامت فيه بإصلاحات أشاد بها الرحالة البريطانيون وغيرهم، وأحدثت فيه تطورات شتى في معظم أنحائه، وأخّرت التدخل والسيطرة الأوروبية على أراضيه، ما يقرب من قرن من الزمن، فإنه لم يرق لبريطانيا هذا التطور والتوسع المصري في السودان، كما لم يرق لها التوسع إلى أعالي النيل في أوغندا؛ فحاولت بريطانيا إبعاد النفوذ المصري عن السودان، كما أبعدته عن أوغندا؛ فوجدت في حالة مصر الداخلية والأزمة المالية، فرصة للتدخل في شؤونها، إلى جانب قيام الثورة المهدية، تلك الثورة التي كان من أهم أسبابها إشراك البريطانيين الأجانب في إدارة السودان مع المصريين، فتذرّعت بريطانيا بعد أن تلكّأت مع مصر، واحتلّتها عام ١٨٨٢م، لإخراج القوات المصرية من السودان، لجعل السودان ملكًا لها بعد ذلك. وكانت سياسة الاحتلال الدينية، ومحاولته تغيير الهوية الإسلامية في السودان، وخاصة في الجنوب بعد فصله عن الشمال، دليلًا على نجاح مشروع رودس الاستعماري؛ حيث إن تغيير الهوية الإسلامية كان أهم نتائج هذا المشروع.

وفي الختام، يمكننا القول: إن مشروع سيسل رودس الاستعماري نجح في تغيير جذري للهوية الثقافية والدينية، للكثير من الشعوب التي احتلتها إنجلترا، وقد تجلى ذلك في سيطرة اللغة الإنجليزية، وانتشار الديانة المسيحية، وجاء هذا بعد أن كانت هذه الشعوب تتبنى وتعتمد لغاتها الأصلية، مع حضور بارز للغة العربية بين النخب، وكذلك بعد أن كانت تدين أساسًا بالديانات الإفريقية القديمة، أو بدرجة ثانية بالديانة الإسلامية.

الهوامش والإحالات

(١) رئيس وزراء مستعمرة الكاب عام ١٨٩٠م، شهد عصره توسعًا ضخمًا في الإمبراطورية البريطانية. عُرف باسم: ملك الماس، حيث أنشأ شركة دي بيرز، أضخم شركة ألماس في العالم. وكان رودس من أشد المؤمنين بالإمبريالية البريطانية؛ فقد أسّس بالتعاون مع شركة جنوب إفريقيا البريطانية إقليمًا في إفريقيا الجنوبية، هو: روديسيا (زيمبابوى وزامبيا) حاليًّا، الذي سمّته الشركة على اسمه في عام ١٨٩٥م، كما أن جامعة رودس في جنوب إفريقيا هي أيضًا مسماة على اسمه. وقد كرَّس الكثير من الجهد لتحقيق رؤيته، بإنشاء سكة حديد، من الكاپ إلى القاهرة، عبر أراض بريطانية. ووضع رودس أحكام منحة رودس، التي تُموَّل من أملاكه، وهو معروف، وعلى نطاق واسع، بإيمانه بتفوق البيض.

(٢) طبيب ومنصر ومستكشف إسكتلندي لوسط إفريقيا، يُعدّ أول أوروبي يرى شلالات فيكتوريا، وهو الذي أطلق عليها هذا الاسم، وترجع أهمية وخطورة اكتشافات ليفينجستون إلى أنه فتح الباب أمام البعثات التنصيرية البريطانية؛ فبعد أن كان مركز التنصير الرئيس في كورومان في جنوب إفريقيا، أصبح هناك العديد من المراكز في داخل القارة؛ فقد توغل ليفينجستون في مناطق لم تصل إليها أوروبا من قبل، وقد ساعده في عمله الكشفي والتنصيري اتصاله بالمنصر البريطاني الدكتور: روبرت موفات، الذي عمل في جنوب إفريقيا، وتزوج من ابنته، وتوثقت الصلات بينهما بدرجة كبيرة.

(٣) مستكشف بريطاني أمريكي، عمل صحافيًّا لعدد من الصحف الأمريكية، وسعى في البحث عن ليفينجستون الذي اختفى في إفريقيا الوسطى، ثم خلفه في مهمة الاستكشاف. وكتب عن إفريقيا أعمالًا منها: عبر القارة المظلمة، وكتاب: في إفريقيا الأظلم.

(٤) المندوب البريطاني السامي في محمية غرب إفريقيا، في الفترة من عام ١٨٩٩ إلى ١٩٠٦م، عُرف بتعصّبه ضد الأفارقة.

تاريخ القبائل العربية في الصحراء الكبرى

الشيخ موسى كَمَرا، تاريخ قبائل البيضان عرب الصحراء الكبرى، تحقيق حماه الله ولد السّالم، (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٩م)، الطبعة الأولى، ٦٠١ص.

أحمد الحبشي، باحث متخصص في التاريخ المعاصر، تطوان.

اهتمّ المؤرّخون في مختلف بقاع العالم الإسلامي عبر التاريخ بموضوع الأنساب، وأصول القبائل؛ حيث شكّلت الشعوب الإسلامية فسيفساء شديدة التنوّع، استطاعت أن تُرسي قواعد للتعايش أحيانًا، وانحدرت في منزلقات الصراعات أحيانًا أخرى. وتعدّ منطقة الصحراء الكبرى من البقاع التي تستقر فيها تجمّعات سكانية، ذات انتماءات قبلية متنوعة، وقد تطرّق لأصول هذه القبائل إخباريون، وجغرافيون، من حقب متباعدة، من الإغريق إلى المسلمين، بلوغًا إلى أنثروبولوجيا الاستعمار، وما بعد الاستعمار.

أبى الشيخ موسى كَمَرا،[١] أحد مؤرخي هذه المنطقة، إلاّ أن يُسهم في التأريخ لجزء من قبائل الصحراء الكبرى، من خلال عمله المعنون: «المجموع النفيس سرا وعلانية في ذكر بعض السادات البيضانية والفلانية»، الذي حقّقه المؤرّخ الأكاديمي د. حماه الله ولد السالم،[٢] وطُبع بعنوان: «تاريخ قبائل البيضان عرب الصحراء الكبرى».

يقع الكتاب المطبوع في ١٦٠ صفحة، صدَّره المحقّق بمقدمة، تضع القارئ في الصورة الكاملة لعملية التحقيق، ابتدأها بترجمة مقتضبة للمؤلّف، ثم أتبع هذه الترجمة بمعطيات حول المخطوطتين، اللتين كانتا موضوعًا للتحقيق، مشيرًا إلى أنه قد اقترح عنوانًا جديدًا للكتاب، إضافة إلى عناوين فرعية لبعض الفصول.

وبعد التقديم، أفرد الأستاذ حماه الله ما يقارب الثلث من الكتاب المطبوع، لسرد أحداث تاريخية، تتعلّق بأصول قبائل البيضان، وتنقلاتها في المجال، وما تمخّض عن نشاطية هذه القبائل في غرب الصحراء الكبرى، من دول تأسست، وصراعات أهلية نشبت بين فروع قبائل البيضان، أو مع مكونات قبلية أخرى، فضلًا عن التأثيرات والتأثرات الثقافية.

تُمكّن هذه الدراسة التاريخية، التي قدّمها المحقّق، من مَوْضَعَةِ القارئ بشكل سليم تاريخيًّا، ليكون على دراية بالمسارات الكبرى، التي قطعتها قبائل البيضان، ونعرض لهذه الدراسة من خلال المحاور الآتية:

أولًا- مقدّمة المؤلّف ومنهجه

اختار الشيخ موسى كَمَرا أن يمهّد لمؤلَّفه، بالحديث عن فضل علم التاريخ، على طريقة الفقهاء في التمهيد للعلوم؛ فبيّن كيف يُوَظَّفُ المنهج التاريخي كأداة برهانية في القرآن الكريم، فضلًا عن استخدام هذا المنهج من قِبل العلماء، لإثبات أو نفي أقوال وأحداث، تستنبط منها أحكام شرعية.

بعد ذلك انطلق المؤلِّف من إشكالية تاريخية حرّكت فكره، ونشّطت أنامله، لتأليف هذا الكتاب، ألا وهي تخلّي بعض قبائل صنهاجة الصحراء عن أصلهم البربري،[٣] وتأكيد انتسابهم إلى العرب، مبيّنًا أن التأليف في هذا الموضوع هو مسألة حسّاسة، سبق وأن جرّت انتقادات واسعة على الشيخ «سيديّه بابَه»، من القبائل الصنهاجية المتمسّكة بنسبها العربي.[٤]

وبعد أن استعاذ الكاتب بالله ممن سمّاهم: السفهاء والجهّال، الذين قد يتعرّضون لهذا التأليف، جعل مضمونه مقسّمًا إلى ثلاثة أقسام: الأول في الكلام على البيضان أهل الصحراء التَكْرورية، والثاني في الكلام على أهل فوت جلّو، والثالث في الكلام على فوتَ تورُ.

ومن حيث المنهج، سار المؤلّف على نهج مؤرخي عهده، في استقاء الأحداث من مصادر متنوّعة، مع توثيق ذلك في المتن، وشملت هذه المصادر: المصنّفات التاريخية، إضافة إلى الوثائق المخطوطة، وبعض الرسائل التي أورد نصها كاملًا، أو مجتزأً. ولمّا كان توثيق هذه الاستشهادات يَرِدُ في المتن، حاول المؤلّف تمييزها بقوله: «انظر الاستقصا»[٥]، أو «وهكذا ذكره محمد اليدالي»[٦]، وحينما يعود إلى التعليق يقول: «قلت» أو «قال جامع هذه الأوراق موسى كمرا»، كما أنّ صاحب الكتاب يؤدّي وظيفة المؤرّخ النقدية في تعامله مع بعض المصادر، مثل ما تصرّح به العبارة النقدية الآتية: «وفي هذا مخالفة لما تقدّم من تاريخ الشيخ سيديّهْ بابَهْ، والذي تقدم أولى وأصح وأصدق، والله تعالى أعلم».[٧]

وإضافة إلى هذه المصادر المكتوبة، اعتمد الشيخ موسى على الروايات الشفوية التي عاصرت الأحداث، وعمل على تمييزها بعبارات مثل: «..هكذا أخبرني حامد ابن سارن»،[٨] و«أخبرني من يوثق به»،[٩] كما دوّن بعض مشاهداته الشخصية، حسبما تكشف عنه عبارات من قبيل: «قلت لقد رأيت واحدا..»،[١٠] واستند إليها في التوصّل إلى بعض الخلاصات.

سنعتمد في عرض مكنون هذا المؤلَّف، على التقسيم الوارد في الكتاب المطبوع، وأوّل عناوينه الفرعية التي تلي مقدمة المؤلّف هي:

ثانيًا- القبائل اللمتونية وتواريخ بعض عرب الأمصار

يتناول المؤرّخ موسى كَمَرا في القسم الأول من مؤلّفه، أصول القبائل التي استقرّت في المنطقة الواقعة بين جنوب المغرب الأقصى، وجنوب غربي الجزائر، وصولًا إلى شمالي السنغال، ويطلّق عليهم «البياضين» أو

«البيضان»، وهو اسم توصف به التجمعات السكانية ذات البشرة البيضاء في هذه المنطقة، منذ نهاية القرن ١٢هـ / ١٨م،[١١] وذلك لتمييزهم عن السودان، وكلا الاسمين يرتكزان على لون البشرة.

ويبيّن المؤلّف بالاعتماد على مصادر إخبارية، أن جزءًا من هذه القبائل، أصلها من لمتونة الصنهاجية، إحدى أكبر القبائل البربرية، ومن ثمَّ حاول تتبع الأقوال المختلفة في أصل البربر، التي تشير إلى استقرارهم بالمغرب منذ حقب قديمة، وهم من ذريّة حام بن نوح، عليه السلام.[١٢]

بعد ذلك تطرّق إلى مسألة وصول اللمتونيين إلى موريتانيا الحالية، إبّان الفتوحات التي قادها زعيم لمتونة أبو بكر بن عمر، أحد مؤسسي الدولة المرابطية في شمال غربي إفريقيا، بعدما استخلف هذا القائد اللمتوني يوسف بن تاشفين على المغرب الأقصى، واتجه نحو بلاد السودان في أواسط القرن الخامس الهجري، حيث «فتح منها مسيرة ثلاثة أشهر»،[١٣] ولقد كان هذا الفتح بداية لانتشار لمتونة ببلاد موريتانيا حاليًّا، وما يليها من بلدان إفريقيا جنوب الصحراء.

تَبِعَ استقرار قبائل لمتونة انقسامها إلى عدة فروع، وهم: تَنْدَغَة، وتجَكانَتْ، وإدَكْ بامْبرهْ، وجاشفاقهْ، وإدَوْعِيشْ. ويتعمّق صاحب الكتاب في هذه الفروع، ليفصّل أحيانًا في بعض أنساب زعمائها، كما يترجم لبعض أعلام القبائل اللمتونية من شيوخ، وفقهاء، وصالحين، أمثال: باب أحمد، الذي كان عالمًا عاملًا، وشاعرًا عارفًا، وهو ممن يُتبرّك بهم في بلاد السودان، وأبوه الشيخ محمد امْبارك، إضافة إلى الشيخ محمد حبيب الله بن الشيخ سيدي عبد الله بن مايابَهْ، والمختار بن بونهْ الفقيه...

وفي ختام هذ الجزء من الكتاب، سلّط الضوء على حدث اصطدام إحدى قبائل «تجكَانتْ» اللمتونية، بقبيلة عربية تستقر بساحل أفلّهْ شرقي موريتانيا، وذلك بعد صراع بين فروعها، ما أدى بـ «تجكَانتْ» إلى النزوح لهذه المنطقة المأهولة بقبيلة «العروسيين» ذوي الأصول العربية، ممّا اضطر هؤلاء إلى التشتت بعد انهزامهم، ثم تتابعت الصراعات بين اللمتونيين والمغافرة العرب الحسّانية.

ثالثًا- ذكر قبائل المغافرة من عرب بني حسّان

سخّر المؤلّف هذا الفصل، للتفصيل في أصول وأنساب المكوّن العربي لقبائل البيضان؛ إذ تستقرّ بغرب الصحراء الكبرى فروع كثيرة لقبائل ذات أصول عربية، وعلى رأسها قبائل المغافرة المعقلية، التي توافدت على المغرب فالصحراء، ابتداء من القرن ٨ هـ، ويطلق عليهم المغافرة، نسبة لمغفر بن أُدَيْ بن حسّان بن عبدالله بن جعفر الطيار، وقيل: إن حسّان، هو ابن حامد بن عقيل بن معقل...[١٤]

وبعد ذكر عدد من الطرق التي يُروى بها نسب هؤلاء، رجّح المؤلّف أن تكون طائفة من الجعافرة – نسبة إلى بني جعفر بن أبي طالب – الذين نزلوا بصعيد مصر، قد دخلوا مع بني هلال إلى بلاد المغرب، وأوطنوا صحراءه، وإلى خلاف ذلك ذهب رأي ابن خلدون، الذي رفض مسألة انتساب أولاد حسّان إلى جعفر، حيث

نسب حسّان بن عقيل إلى عرب اليمن، يعني قحطان، واستظهر أنهم من قضاعة.[١٥]

وذكر قبيلة «إدَوْعِيشْ» اللمتونية، الذين يستوطنون أرض «تكّانت» وما يليها، والحرب التي دارت رحاها بينهم وبين فروع قبائل المغافرة المختلفة، كما عرّج على النزاعات والحروب الأهلية التي وقعت بين إدَوْعِيشْ وانقسامهم إلى طوائف، حتى استقرّ هذا الانقسام على ثلاث فرق متطاحنة، حتى دخلت عليهم فرنسا وهم على ذلك، وهذا ما يعني أنّ الانقسام، كان من أعظم عوامل وقوع بلادهم في يد الاستعمار الفرنسي.

يتجلى من خلال المعطيات التي أوردها الشيخ موسى في كتابه، أن الصراعات التي نشبت بين القبائل العربية والبربرية، أو بين فروع القبائل البربرية، سببها النزاع على السلطة، وعمليات الإغارة المتبادلة أحيانًا، ناهيك عن الرغبة في السيطرة على مواضع وجود الماء في الصحارى القاحلة.

وفي نفس السياق دائمًا، حول أصول التجمعات السكانية في البلاد التي يطلق عليها موريتانيا حاليًّا، وما يليها، تحدث المؤلّف عن أصول قبائل «اللحمة» و«الزوايا» اللمتونيتين، وهما من التجمعات الأولى، التي بادرت بالاستقرار في مواضع محدّدة، وبالتالي التخلّي عن حياة التِرحال، وممّا يؤكّد هذا الأمر «أنّ جميع قبائل الزوايا وإدَوْعِيشْ كانوا يتكلمون بالبربرية الصنهاجية، وهو متواتر أو قريب منه، وكثير من الزوايا يتكلّم بها الآن [زمن المؤلّف]».[١٦]

ولم ينس المؤلّف أن يُضَمِّنَ هذا القسم من كتابه، ترجمات لبعض الشخصيات البارزة من القادة والعلماء، مع تخصيص مساحة أوسع للفئة الأخيرة، وممن ذكر سيرهم: الشيخ سيدي المختار بن أحمد الكُنتي، والشيخ المختار بن بونهْ من تجاكانت، والشيخ سيديّه بن المختار الابيري ...

رابعًا- ملامح علاقة الاستعمار الفرنسي بقبائل البيضان

تتبدّى ملامح هذه العلاقة من خلال نصّين، أوردهما المؤلّف في آخر الكتاب، الأول: رسالة للعلامة الشيخ سيديّه بن المختار الابيري، بعثها إلى مس فضرب (ليون سيزار فيدرب) ضابط في الجيش الفرنسي. والثاني: تقييد لأحد تلامذة الشيخ سعد أبيه المتوفى سنة ١٩١٧م، وأحد الشيوخ البارزين خلال بداية القرن العشرين، في غربي موريتانيا.

ويمكن الاعتماد على الوثيقتين، لفهم الدور الذي لعبه الشيخ سيدي، والشيخ سعدبوه، في تحقيق المهادنة مع ممثلي الاستعمار الفرنسي، وتسهيل دخول الفرنسيين بشكل سلمي إلى المناطق الصحراوية، حيث توجد الزوايا، وذلك بعد الاقتناع، بأن قوتهم لا تكفي لكسر شوكة «النصارى»، فعملوا مع فرنسا على تحقيق هذا الهدف، ومن علامات هذا التعاون، ما ألّفه الشيخ سعدبوه تحت عنوان: «نصيحة العامة والخاصة في تحريم محاربة فرانصة»،[١٧] وقد كان الزوايا في موقفهم هذا، بين سندان قبائل بني حسّان المسلّحة، ومطرقة الاستعمار الفرنسي.

خامسًا- قضايا أخرى

تخلّلت الكتاب إشارات ولفتات عَرضيّة في سياقها، لكنّها تاريخيًّا من الأهميّة بمكان؛ فهي تضيء الجوانب الأخرى من حياة قبائل البيضان، إلى جانب تاريخها السياسي، وتتعلّق هذه المعطيات النفيسة بقضايا متعدّدة، مثل:

١- **تعليم الفتيات في أوساط قبائل البيضان، خصوصًا في منطقة «تنيكَي» جنوب غربي موريتانيا، حيث يقول:** «كان في تنيكَي أكثر من ثلاثمائة شويبة فارقة، كل واحدة منهن تحفظ موطأ مالك».[١٨] وفي موضع آخر «ومن كثرة علمهم [اللمثونيين] سبعون عذراء من بناتهم، تدرس المدوّنة على رواية هذا المخبر، واستمرّوا على ذلك زمنا طويلا».[١٩]

٢- **وعادات ومعتقدات القبائل الصحراوية، مثل:** ملوك «الترارزه» الذين اشتهروا بارتداء السراويل البيضاء،[٢٠] وقبائل «أورُرْبَ» الفلّانية التي يمكث المختتنون فيها ثلاث سنين، يضفرون رؤوسهم من القفا إلى الوجه، ومن الوجه على القفا، بأضفار رقاق متخالفة من وسط الرأس، ويسمى هذا الضفر عند «فلب جيرا» من «أورُرْبَ»: «لّق»، ويسمى هذا الضفر عند البياضين: «تبيس». ومن المعتقدات التي سادت عند «أورُرْبَ»، تبرّكهم بلبن عنزة تسمى «داگا»، حمراء العنق أو سوداءه، كما كان شائعًا فيهم معتقد مفاده أنهم «إذا تمسحوا بلبنها وقاتلوا يغلبون».[٢١]

٣- ومن العادات التي ميّزت القبائل العربية المغافرية، وخصوصًا رؤساؤهم، أنهم «لا يقتنون المال، ويعيبون من فعله، وإنما عيشهم مغارم اللحمة، والسودان، والنهب، ونحو ذلك».[٢٢] كما ألمح المؤلّف لبعض التحولات التي طرأت على بعض فروع صنهاجة، من التخلّي عن التلثّم، وحلق الرأس، والانتقال من الانتساب الأموسي (الأمومي): (الانتساب إلى الأم)، إلى تقليد النسب الأبيسي (الأبوي): (الانتساب للأب).[٢٣]

٤- **وثقافيًّا:** ذكر المؤلّف بعض أسماء الخيول عند البياضين: كالجريبات، وكريكيبات، ثم دفينجات، وحمامات، وغزالات، وأصل هذه الخيول من اجريبات، ومن خيولهم أيضًا: مخلول، وقسري، ومْعاش، وأمْراص، والأصل أم راص لكبر رؤوسها.[٢٤]

٥- **واقتصاديًّا:** ألمح الشيخ موسى لبعض الأنشطة الفلاحية لقبائل الفلاّن، الذين «غرسوا فيها الحدائق، وعمروها، وحرثوا فيها القمح والشعير».[٢٥] كما نقل عن السيد الفقيه محمد فال الكور بن أغلال، اهتمام قبائل «مشظوف» بالرعي «وبلغ سائر من الكثرة، وكثرة الخيل والإبل وسائر الماشية، ما لم تبلغه قبيلة من قبائل هذه الصحارى».[٢٦]

وإجمالًا، يعدّ هذا العمل من المؤلفات المهمة في تاريخ قبائل صحراء موريتانيا، بما يقدّمه من سرد لأحداث فاصلة، وتراجم مفيدة، وإن كانت مختصرة، وأنساب مفصّلة، إضافة إلى معطيات، قد تشكّل مادة مصدرية للتأريخ لقضايا سياسية، وأنثروبولوجية، واجتماعية.

الهوامش والإحالات

(١) ولد الشيخ موسى كمرا في الشمال الشرقي للسنغال سنة ١٨٦٤م، حيث تعلّم القرآن، كما درس في موريتانيا وقضى حوالي ٣٠ سنة في طلب العلوم القرآنية والفقهية، وقد ألّف في حياته عدة كتب في مجالات متعددة أهمها: العلوم الشرعية والتاريخ.

انظر: علي يعقوب، «الشيخ موسى كمرا (١٨٦٤ - ١٩٤٥م): مؤرخ غرب إفريقيا في العصر الحديث،» مجلة قراءات إفريقية، ع ٢٩ (لندن: مركز أبحاث جنوب الصحراء، ٢٠١٦م)، ١١٤-١٢١.

(٢) مؤرّخ وأستاذ في قسم التاريخ بجامعة نواكشط، له رصيد مهم من المؤلّفات والأعمال المحقّقة حول تاريخ القبائل بالصحراء الكبرى.

(٣) يُستخدم حاليًّا في دول شمال إفريقيا مصطلح مرادف له هو: الأصل الأمازيغي، وذلك بعد جدال تاريخي ولغوي لم ينته بعد.

(٤) الشيخ موسى كَمَرا، «تاريخ قبائل البيضان عرب الصحراء الكبرى،» تحقيق: حماه الله ولد السّالم، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٩م)، ٧١-٧٢.

(٥) يعقوب، «الشيخ موسى كمرا (١٨٦٤ - ١٩٤٥م): مؤرخ غرب إفريقيا في العصر الحديث،» ١٢١.

(٦) يعقوب، ١٠٢.

(٧) يعقوب، ١٢٩ و ١٣٠.

(٨) يعقوب، ١٠٥.

(٩) يعقوب، ١١٧.

(١٠) يعقوب، ٨٢.

(١١) يعقوب، ٦٧.

(١٢) يعقوب، ٧٩.

(١٣) يعقوب، ٧٧.

(١٤) يعقوب، ١٠٠.

(١٥) يعقوب، ١٠٦.

(١٦) يعقوب، ١١٨.

(١٧) يعقوب، ١٥٦.

(١٨) يعقوب، ١٢٥.

(١٩) يعقوب، ٨٦.

(٢٠) يعقوب، ١٠٤.

(٢١) يعقوب، ٩٤.

(٢٢) يعقوب، ١١٢.

(٢٣) يعقوب، ٦٥ و ٦٧.

(٢٤) يعقوب، ٩٠.

(٢٥) يعقوب، ٩٣.

(٢٦) يعقوب، ١١٦.

الهجرات المغاربية نحو المشرق العربي

إبراهيم باجس عبد المجيد المقدسي، تاريخ الجزائريين في بيت المقدس وفلسطين، ط١ (عمان: دار المكاتب الوطنية، ٢٠٢٤م)، ٢٧٠ ص.

أ. د. جمعة بن زروال، أستاذة التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة باتنة ١، باتنة.

كثيرًا ما كتب عن الهجرات العربية المشرقية نحو المغرب العربي، سواء زمن الفتوحات الإسلامية، أو قبلها، أو بعدها بمدة طويلة. لكن نادرًا ما يتم التأريخ لهجرات فردية أو جماعية من شمالي إفريقيا إلى الحجاز، أو إلى الأقطار المشرقية، مثل: الشام، ومصر، ولا سيّما في زمن الاستعمار الغربي، الذي استهدف دول المغرب العربي. وجاء هذا الكتاب للتأريخ لهجرة الجزائريين، واستقرارهم في فلسطين. ونتناول عرض الكتاب من خلال المحاور الآتية:

١ - الهجرات الجزائرية إلى بلاد الشام وفلسطين

يحتوي فهرس الكتاب على عدة فصول؛ إذ قسم المؤلف الكتاب إلى عدة عناوين رئيسة، وأهمها مبحث هجرة الجزائريين إلى فلسطين؛ فتناول الجذور التاريخية للهجرات، ثم ركّز على هجرات الجزائريين بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر عام ١٨٣٠م، والتي قسّمها إلى عدة أسباب، ومنها:

١- الأسباب السياسية الاستعمارية

تعدّ الأسباب السياسية دافعًا رئيسًا في ظهور حركة الهجرة الجزائرية نحو الخارج، وكانت المراسيم والقوانين تصدر عن الاستعمار الفرنسي بغرض تحقيق الأهداف الاستيطانية في الجزائر. ويعتبر قانون ١٩ ديسمبر ١٩٠٠م من بين القوانين الزجرية، التي تهضم حقوق الجزائريين المسلمين، وتدعم استيطان الأوروبيين في الجزائر.

٢- الأسباب الاقتصادية والاجتماعية

بعد احتلال فرنسا للجزائر، شجعت فرنسا الهجرة الأوروبية والفرنسية للاستيطان في الجزائر، بهدف الاستغلال الاقتصادي؛ إذ يتطلب الهدف من استعمار الجزائر ربطها بالآلة الاقتصادية الفرنسية، وهذا الربط لن يحقّقه الجزائريون، ولا العسكريون الفرنسيون، وإنما يحققه رأس المال الفرنسي، والمدنيون الفرنسيون؛ إذ أكد الجنرال بيجو[٣] في خطابه ضرورة تأسيس مقاطعة فرنسية في الجزائر،

يسيطر عليها المستوطنون الفرنسيون، وبهذا برزت ظاهرة الهجرة والاستيطان الفرنسي والأوروبي في الجزائر. وذكر مؤلف الكتاب، أن من الأسباب الدينية والثقافية للهجرة الجزائرية إلى فلسطين ما يأتي:

أ- الحج إلى بيت المقدس، باعتبارها أرضًا مقدّسة للمسلمين، وثاني القبلتين؛ فكل حاج من شمالي إفريقيا، يمرّ على بيت المقدس في أثناء عودته من بلاد الحجاز، وهناك من الحجاج الجزائريين من يستقر في بيت المقدس.

ب- هجرة علمية طلبًا للعلم في بيت المقدس، باعتبارها مركزًا ثقافيًّا، ودينيًّا، وتعليميًّا في المشرق العربي؛ ممّا حمل العديد من طلبة العلم الجزائريين إلى الهجرة إلى فلسطين.

ج- الاستفادة من أوقاف المغاربة في بيت المقدس؛ إذ هاجر العديد من أبناء بلاد المغرب وفقرائهم إلى بيت المقدس، التي كانت مقصدًا للمهاجرين الجزائريين، للاستفادة من أوقاف المغاربة، وخاصة أوقاف زاوية أبي مدين شعيب الغوث، التي كانت تملك العديد من المدارس والمنازل للجالية المغاربية.

٢ - الهجرة الجزائرية إلى الخارج

بسبب مصادرة أراضي الجزائريين، وسياسة التوسع الاستيطاني الفرنسي في الجزائر؛ فقد هاجر الآلاف من الجزائريين في أواخر القرن ١٩ وبداية القرن ٢٠ إلى الخارج، وقد ظهر نوعان من المهاجرين:

النوع الأول: يتمثل في الذين رفضوا الخضوع للقوانين الفرنسية، وقانون الخدمة العسكرية الإجبارية، وبسبب مصادرة أراضيهم وأملاكهم، وتتمثل في هجرة الأسر الغنية من الأعيان والمتعلمين من الطبقة المثقفة، كهجرة عائلة الأمير عبد القادر الجزائري.[٤]

النوع الثاني: ويتمثل في هجرة العائلات الجزائرية إلى الخارج، هروبًا من سوء الأوضاع الاقتصادية، وبسبب الفقر والمجاعة، وانتشار الأمراض والأوبئة، وقلة الغذاء، ومصادرة الأراضي، والعقوبات الفرنسية على بعض القبائل؛ فهاجرت العديد من القبائل نحو الخارج، مثل: هجرة سكان تلمسان سنة ١٩١٢م؛ إذ خرجت ٨٠٠ عائلة من تلمسان نحو بلاد الشام، بسبب قانون التجنيد الإجباري.[٥] وهاجر في السنة نفسها ٥٠٠٠ شخص من منطقة القبائل نحو بلاد الشام، وازدادت الهجرة بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤- ١٩١٨م.

٣ - قرى الجزائريين في فلسطين

تمركز المهاجرون الجزائريون في عدة مدن في فلسطين وقراها من الجليل، على الحدود السورية واللبنانية في الشمال، إلى قطاع غزة في الجنوب الفلسطيني. وأسّسوا في الشمال الفلسطيني كثيرًا من القرى، وقد بلغ عدد تلك القرى ١٤ قرية، منها: عولم، صفد، طبرية، معذر، عكا، سَمَخ، كفر سبت، وديشوم... وقد عرَّف

المؤلف بتلك القرى، وتحدث عن دور أهلها الجزائريين في الحفاظ على الأراضي الفلسطينية، والدفاع عنها، إلى أن جرى تهجيرهم منها بعد نكبة عام ١٩٤٨م.

٤ - أوقاف الجزائريين في فلسطين

وينتقل الباحث بعد ذلك للحديث عن الأوقاف، التي وقفها الجزائريون في بيت المقدس وفلسطين، والتي انتفع بها عموم المغاربة، وليس الجزائريون فقط، وقد كانت هذه الأوقاف على نوعين: أوقاف علمية ثقافية؛ مثل: زاوية المغاربة، وزاوية أبي مدين الغوث، وكلاهما في مدينة القدس، وزاوية الأشراف المغاربة في مدينة الخليل. والنوع الثاني هو الأراضي الزراعية والعقارات السكنية، وهي كثيرة، وفي مدن فلسطينية عديدة، كغزة ويافا وغيرهما.

٥ - المهاجرون الجزائريون وصراع الهُوية

وفي مبحث (المهاجرون الجزائريون وصراع الهُوية)، ركّز المؤلف على المعاناة التي عاشها المهاجرون الجزائريون في فلسطين، منذ منتصف القرن التاسع عشر، وصراع الهوية؛ فهم جزائريون بالانتماء والأصل، بينما تعتبرهم فرنسا من رعاياها وتابعيها، ويحملون جنسيتها، رغم أنها لا تمنحهم حقوق الرعايا الفرنسيين، ثم أصبحوا في فلسطين تحت حكم الاستعمار البريطاني، الذي أذاقهم العذاب، مثلهم مثل إخوانهم من أهل فلسطين، إلى أن جرى تهجيرهم بعد نكبة ١٩٤٨م من المدن والقرى الفلسطينية التي سكنوها، أو أنشؤوها، واستقروا في المخيمات في الأردن وسوريا ولبنان.

٦ - أعلام الجزائر في فلسطين

تناول المؤلف نماذج لأعلام جزائريين في بيت المقدس وفلسطين، قديمًا وحديثًا، فيذكر منهم: الشيخ أبو مدين شعيب بن الحسن التلمساني، والشيخ شهاب الدين أبو العباس الحريري قاضي المالكية في بيت المقدس عام ١٤٦٨م، والشيخ ابن يلس التلمساني، ورضي الدين بن عمر القسنطيني إمام بالقدس، والمجاهد أحمد صديق العيساوي، والباحث والمؤرخ سهيل الخالدي،[٦] وسهيل زرقين الخالدي. ومن النساء الجزائريات المناضلة الشهيدة دلال المغربي، (ذات الأصول الجزائرية التلمسانية).

٧ - الحياة الاجتماعية للجزائريين في فلسطين

ينتقل الباحث إلى الحديث عن الحياة الاجتماعية للجزائريين في فلسطين، ويذكر أنهم حافظوا على هويتهم

الاجتماعية بمختلف صورها، ويذكر الكاتب من مظاهر حفاظ الجزائريين على هُويتهم الاجتماعية، ذاك الترابط القوي فيما بينهم، من خلال الزواج والمصاهرة، أو رعاية القُصَّر غير البالغين والأيتام منهم، والوصاية عليهم، وتأسيس الجمعيات الخيرية التي تعتني بشؤون الجزائريين، وكان من مظاهر الحفاظ على الهوية الجزائرية أيضًا: الحفاظ على اللهجة الجزائرية.

٨ - مهن الجزائريين في فلسطين

يتحدث المؤلف عن المهن والوظائف التي عمل بها الجزائريون، والتي كان البعض منها حِكرًا عليهم، أو على المغاربة عمومًا، دون غيرهم، ويذكر أسماء بعض من تولوا هذه المهن أو الوظائف، ومنها: وظيفة شيخ المغاربة، ومن الوظائف أيضًا: النظر على أوقاف المغاربة، ومهنة حراسة الأسواق، وسعاية البريد. وكذلك الوظائف الشرعية من إفتاء وقضاء، والوظائف العلمية من تعليم ونسخ كتب، إضافة إلى الوظائف الإدارية، ومهن الزراعة، وتربية الماشية، وغيرها.

٩ - جهاد الجزائريين في فلسطين

ركّز المؤلف في هذا المبحث على جهاد الجزائريين في فلسطين؛ فيذكر دورهم البطولي في مواجهة الاحتلال البريطاني والإسرائيلي للأراضي الفلسطينية، وذلك منذ مشاركتهم في تحرير بيت المقدس مع صلاح الدين الأيوبي، حتى مشاركتهم في الثورات الفلسطينية المتعاقبة، ومقاومتهم للجماعات الصهيونية، وإسهامهم في تأسيس بعض الفصائل الفلسطينية، التي كانت النواة الأولى لتأسيس العمل الفدائي الفلسطيني، ويذكر أعلامًا ومجاهدين بارزين شاركوا في ثورة ١٩٢٧- ١٩٢٩، و ١٩٣٦ و ١٩٣٩م.

١٠ - إسهام الجزائريين الفلسطينيين في الحركة الوطنية الجزائرية

ويذكر الكاتب أن جهاد الجزائريين الفلسطينيين ونضالهم على أرض فلسطين، لم يشغلهم عن النضال في وطنهم الأم، فيتحدث عن إسهامهم في الحركة الوطنية الجزائرية، ومناصرتهم لها بالمال والسلاح والرجال، من خلال التواصل مع قيادات الثورة الجزائرية، والتنسيق معها. بل إن من رموز الجزائريين في فلسطين مَن كان يطوف بالقرى الجزائرية في الشمال الفلسطيني، شارحًا القضيتين الجزائرية والفلسطينية على حد سواء.

١١- الأحزاب والجمعيات الجزائرية والقضية الفلسطينية

في مبحث الأحزاب والجمعيات، وعلاقة الجزائريين بالقضية الفلسطينية، يتحدث المؤلف عن علاقة الأحزاب

الجزائرية بهذه القضية الخالدة، وأن تلك الأحزاب أو الجمعيات، على اختلاف أفكارها وتوجهاتها، أولت القضية الفلسطينية اهتمامًا بالغًا وخاصًّا. وكان هذا الاهتمام في مختلف الجوانب، السياسية منها، والإعلامية، والمالية، والعسكرية، وغير ذلك. ويذكر من تلك الأحزاب والهيئات: الحركة الاستقلالية، وحزب الشعب، وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين. ومن أبرز المناصرين للقضية الفلسطينية الأمير سعيد الجزائري، والكاتب الفضيل الورتلاني، والشيخ البشير الإبراهيمي، وغيرهم.[٧]

١٢ - القضية الفلسطينية في الدراسات الأكاديمية والجامعية الجزائرية

وليس بعيدًا عن الاهتمام الجزائري بالقضية الفلسطينية، يُفرد المؤلف مبحثًا خاصًّا، يتحدث فيه عن القضية الفلسطينية في الدراسات الأكاديمية والجامعية الجزائرية. ومع أنه لم يتعمّد الاستقصاء والحصر في ذلك، إلَّا أنَّه أورد قرابة ٢٠٠ عنوان لأطروحات جامعية، كلها تتحدث عن فلسطين وقضيتها، ودعا الطلاب والباحثين الجزائريين، إلى استقصاء ما كُتب عن فلسطين في الرسائل والأبحاث الأكاديمية العلمية في الجزائر.

١٣- مبحث الفلسطينيين والقضية الجزائرية

يذكر المؤلف علاقة الفلسطينيين بالثورة الجزائرية، وموقفهم الداعم لها في عدة مجالات، كالدعم المالي عن طريق تبرعات الفلسطينيين، وجمعهم الأموال لصالح القضية الجزائرية؛ إذ كانوا يجوبون القرى الفلسطينية التي يوجد فيها الجزائريون، لجمع التبرعات.

خاتمة

من خلال هذا البحث، نستنتج أن الجالية الجزائرية المهاجرة إلى فلسطين، كان لها دور كبير في العمل العسكري، منذ فترة الحروب الصليبية، التي تزعّمها المتصوف الجزائري التلمساني أبو مدين شعيب، في فترة حكم السلطان صلاح الدين الأيوبي لبيت المقدس، ومنذ هذا التاريخ، أصبح للوجود المغاربي الجزائري في بيت المقدس وفلسطين دور مهم، عبر الهجرات المتتالية من المغرب نحو بيت المقدس، بسبب وجود أوقاف مغاربية للمهاجرين، والتي استقرت في حارة المغاربة، وكوّنت مجتمعًا خاصًّا بها في المدن والقرى الفلسطينية. وساهمت الجالية الجزائرية في النشاط الاجتماعي عبر المصاهرة مع الفلسطينيين، وشاركت الثورات ضد الاحتلال البريطاني والإسرائيلي. كما شارك الجزائريون في النشاط الثقافي والعلمي والأدبي في فلسطين وبلاد الشام، وظهر ت عدة شخصيات فكرية وسياسية ودينية.

الهوامش والإحالات

١) الشيخ محمد بن يلس التلمساني: قصد الشيخ محمد بن يلس بلاد الشام في ٢٠ من رمضان ١٣٢٩هـ الموافق لـ ١٤ سبتمبر عام ١٩١١م، مارًّا بطنجة برًّا، ثم إلى مرسيليا بحرًا، ثم إلى الشام بحرًا كذلك، فأصبح بذلك ممثل الطريقة الشاذلية الدرقاوية. وسبب هجرته إلى الشام، وكذا محمد بن الهاشمي، الذي كان من أتباعه، هو تأهب فرنسا آنذاك لاحتلال المغرب الأقصى، والحظر على الأهالي في الجزائر ألَّا يجتمعوا بالعلماء؛ سواء بالجزائر أو بالمغرب؛ حيث كان التنقل حرًّا بين هذين البلدين، فعزم الكثير من أهل العلم والصلاح على الهجرة إلى المشرق، وقد سميت هذه المرحلة من التاريخ الجزائري بفترة الفارِّين بدينهم أو هجرة التلمسانيين، توفي -رحمه الله- يوم الثلاثاء ٢٦ ديسمبر ١٩٢٧م، الموافق لـ ١١ من جمادى الآخرة ١٣٤٦هـ بدمشق ببلاد الشام.

٢) أبو مدين شعيب الغوث: والمعروف باسم سيدي بومدين، أو أبو مدين التلمساني، ويلقب بـ«شيخ الشيوخ» ولقّبه ابن عربي بـ«معلم المعلمين»: (٥٠٩ هـ/ ١١١٥ م - ٥٩٤ هـ/ ١١٩٨ م) فقيه ومتصوف وشاعر أندلسي، يعدّ مؤسس أحد أهم مدارس التصوف في بلاد المغرب الكبير والأندلس، تعلم في إشبيلية وفاس، وقضى أغلب حياته في بجاية، وكثر أتباعه هناك، واشتهر أمره، فوشى به بعضهم عند يعقوب المنصور الموحدي بمراكش، فبعث إليه الخليفة للقدوم عليه، لينظر في مزاعم حول خطورته على الدولة الموحدية، وفي طريقه مرض وتوفي نواحي تلمسان، وبنى سلاطين بني مرين بضريحه مسجدًا ومدرسة.. ولأبي مدين شعيب مؤلفات كثيرة في التصوف، وديوان في الشعر الصوفي، وكذلك تصانيف من بينها: «أنس الوحيد ونزهة المريد» في التوحيد.

٣) الجنرال بيجو: جنرال فرنسي، تولى الحكم في الجزائر سنة ١٨٣٤م، عاصرت فترته مقاومة الأمير عبدالقادر وأحمد باي، عرف عهده بسياسة الأرض المحروقة، وعقد عدة معاهدات مع الأمير عبدالقادر، مثل معاهدة التافنة، وتميز عهده بالقضاء على مقاومة أحمد باي، والتوسع نحو الشرق الجزائري.

٤) الأمير عبدالقادر الجزائري: هو قائد سياسي وعسكري، مجاهد ومقاوم وشاعر، بايعه الجزائريون سنة ١٨٣٢م أميرًا لمقاومة المستعمر الفرنسي، مرت حياته بـ ٣ مراحل أساسية، الأولى قضاها في طلب العلم، والتعرف على أوضاع البلدان العربية في طريق الحج، والثانية عاشها في الجهاد ومقاومة المستعمر، وقضى الثالثة أسيرًا في فرنسا ثم مناضلًا مغتربًا في دمشق .

٥) قانون التجنيد الإجباري عام ١٩١٢م: جاء قانون التجنيد الإجباري، ليمثل فرصة سانحة للنخبة الاندماجية في الجزائر، والمتأثرة قلبًا وقالبًا بالثقافة الفرنسية، لتعرب عن حجم ولائها لفرنسا، بدعوة الجزائريين للانخراط الجماعي في الجيش الفرنسي، والدفاع عن فرنسا باعتبارها الوطن الأم، التي يجب الدفاع عنها.

٦) سهيل الخالدي: من مواليد ١٩٤٢بسمخ بفلسطين، لأسرة جزائرية مهاجرة من وادي البردي ولاية البويرة الجزائر، من مؤلفاته: ١- تاريخ الزواوة – تحقيق. ٢-الإشعاع المغربي في المشرق. ٣- دور الجزائريين في حركة التحرر العربي، الجزائر وبلاد الشام صفحات من النضال المشترك.

٧) الشيخ البشير الإبراهيمي: (١٨٨٩-١٩٦٥م) رائد من رواد الإصلاح في الجزائر، وعلم من أعلام اللغة والأدب في القرن العشرين، وهو بمعية الشيخ عبدالحميد بن باديس، وعصبة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، رجال كلمة، وفرسان جهاد، في سبيل نشر اللغة العربية، والدين، والقومية العربية، والروح الإسلامية، في بلد أراد له الاستعمار طريقًا غير الذي درج عليه، من أجل نهبه، واستعباد شعبه، وتكريس تخلفه وتبعيته وذلته. تلك الجمعية الشهيرة، التي رأسها عبد الحميد بن باديس أول الأمر عام ١٩٣١م، وجعلت شعارها «الجزائر وطننا، والعربية لغتنا، والإسلام ديننا»، ثم آلت رئاسة الجمعية إلى البشير الإبراهيمي بعد وفاة ابن باديس عام ١٩٤٠م، وقد اضطلع الإبراهيمي بالمهمة خير اضطلاع، جامعًا بين المهام الوطنية والدينية والأسرية.

٨) قانون كريمي عام١٨٧٠م، وهو مرسوم فرنسي، يمنح اليهود الجزائريين الجنسية الفرنسية، ولهم كل الحقوق مثل الفرنسيين المستوطنين في الجزائر.

التصوف المغربي وامتداداته الإفريقية

مؤلف جماعي، التصوف المغاربي وامتداداته الافريقية ط١، (الرباط: مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة، بنارفريكان ايفنت المغرب، ٢٠٢٢م)، ١٩٠ص.

د. رشيد أثر رحمة الله، باحث في التاريخ، جامعة ابن زهر، أكادير.

يشكِّل التصوّف المغربي إحدى الركائز الأساسية للهوية الروحية والدينية في إفريقيا؛ حيث قامت طرقه الصوفية، مثل: التيجانية والقادرية، بدور بارز في نشر الإسلام، وتعزيز القيم الروحية، في العديد من المناطق، خصوصًا في غرب إفريقيا. وتميّز هذا الامتداد الصوفي بنشر الإسلام المعتدل، وترسيخ قيم التسامح، ممّا أسهم في محاربة كل أشكال التطرف الديني، وتعزيز الاستقرار الروحي في المجتمعات الإفريقية.

وفي هذا السياق، احتضن قصر الشعب في «كوناكري» يومي ٥ و٦ مايو عام ٢٠١٨م ندوة علمية، جمعت نخبة من الباحثين والمشايخ والأئمة، إلى جانب شخصيات رسمية، لمناقشة امتداد التصوف المغربي في إفريقيا جنوب الصحراء. وقد شهدت الندوة مداخلات متنوعة، ناقشت الجذور الفكرية والفقهية للتصوف المغربي، وسبل انتشاره نحو غرب إفريقيا، مع إبراز التجربة الصوفية في غينيا كوناكري أنموذجًا لذلك.

ويهدف هذا النص إلى عرض وتحليل أعمال هذه الندوة العلمية، ويغطي العرض أربعة محاور رئيسة على النحو الآتي:

١- الأسس النظرية للتصوف المغربي.

٢- التصوف المغربي وامتداده في جنوب غرب إفريقيا.

٣- الحركة الصوفية في جمهورية غينيا كوناكري.

٤- التصوف كجسر ثقافي بين المغرب وإفريقيا.

١- الأسس النظرية للتصوف المغربي

افتتح الدكتور حميد لحمر عروض اليوم الأول بمداخلة حول التأسيس لعلم السلوك في التراث الفقهي المالكي بالمغرب،[١] حيث ركّز على اهتمام الفقهاء المالكية بالتصوف منذ العصور الوسطى. وأشار إلى أن

هذا الاهتمام لم يكن مجرد توجه نظري، وإنما انعكس على العديد من المصنفات الفقهية، التي خصّصت أبوابًا لعلم السلوك والتصوف. وقد نُظمت المداخلة في محورين أساسيين، هما:

أ- دور الفقهاء المالكية في التأسيس لعلم السلوك والتصوف.

ب- التصوف المالكي كرافد أساسي في التكوين الديني المغربي والإفريقي.

أ- دور الفقهاء المالكية في التأسيس لعِلم السلوك والتصوف.

في سياق الحديث عن أسبقية الإمام مالك إلى علم السلوك، تطرّق الباحث إلى الفائدتين اللتين من أجلهما صُنِّف في هذا العلم، منطلقًا من قول القاضي ابن العربي المعافري:

«هذا كتاب اخترعه مالك رحمه الله، في التصنيف لفائدتين، إحداهما: أنه خارج عن رسم التكليف المتعلق بالأحكام، التي صنفها أبوابا، ورتبها أنواعا. والثانية: أنه لما لحظ الشريعة وأنواعها، ورآها منقسمة إلى أمر ونهي، وإلى عبادة ومعاملة، وإلى جنايات وعبادات، نظمها أسلاكا، وربط كل نوع بجنسه، (...) فجمعها أشتاتا، وسمّى نظامها: «كتاب الجامع»، فطرق للمؤلفين ما لم يكونوا قبل ذلك به عالِمين».[٢]

وهذا التفسير يُظهر وعي الإمام مالك بأهمية الأخلاق والسلوك؛ فخصّص لها بابًا مستقلًّا في نهاية الموطَّأ، وفتح من خلالها المجال أمام فقهاء المالكية، لاتخاذها منهجًا سلوكيًّا، والانشغال في النهاية بالجوانب التربوية والروحية، بدل الانكباب على فروع المذهب، والأحكام الفقهية. لذلك تطرّق الدكتور لحمر إلى جملة من الفقهاء، الذين لم يكتفوا بإدراج التصوف ضمن مؤلفاتهم الفقهية فحسب، وإنما قدموا في موضوعاته مؤلفات مستقلة عديدة، تشهد عليها فهارس المكتبات المغربية والإفريقية، التي تحوي مئات العناوين. ومن بين هؤلاء الفقهاء:

١- القاضي ابن العربي الإشبيلي، الذي جمع أصول التصوف في كتابين، هما: سراج المهتدين،[٣] وسراج المريدين.[٤]

٢- الإمام شهاب الدين القرافي (ت: ٦٨٤هـ) أحد أعلام الفقه المالكي في مصر في العصر المملوكي، والذي رغم كونه ليس صوفيًّا بالمعنى الطُّرقي، إلَّا أنّه أولى عناية خاصة بالأخلاق والسلوك، وكان صلة وصل بين المشرق والمغرب في مذهب مالك.[٥] كما كان لمؤلفاته الأثر الواضح في فقهاء المالكية في المغرب والأندلس، كأبي عبدالله المقَّري[٦] (ت: ٧٥٩هـ)، والونشَريسي[٧] (ت: ٩١٤هـ)، ومَيَّارة الفاسي[٨] (ت: ١٠٧٤هـ).

ومن بين المؤلفات التي اشتغلت بموضوع التصوف بوجه مستقل، وذكرها الباحث على وجه الاستدلال، ما يأتي:

١- التلخيص المفيد على رسالة ابن أبي زيد القيرواني، للشيخ محمد الأمين بن عبدالوهاب الجكني،[٩] وهو كتاب يبرز التصوف السني، الذي يركز على تزكية النفس وتهذيب الأخلاق.

٢- مواهب المنان بما يتأكد على المعلمين تعليمه للصبيان،[١٠] للسلطان سيدي محمد بن عبد الله، وهو كتاب اهتم بالتصوف كجزء من التربية والتعليم.

٣- فتح الوهاب في بيان ألفاظ هداية الطلاب، للشيخ سيدي المختار الكنتي،[١١] وهو مثال على التصوف التعليمي في غرب إفريقيا.

ب- التصوف المالكي: رافد أساس في التكوين الديني المغربي والإفريقي

أكد الباحث أن التصوف في الفقه المالكي لم يكن مجرد بعد روحي، وإنما كان عاملًا أساسيًّا في تشكيل الشخصية الدينية المغربية والإفريقية، وأصبح فيما بعد جزءًا لا يتجزأ من التكوين العلمي والروحي للفقهاء والعلماء؛ حيث جمعوا بين فقه العبادات والمعاملات، وفقه المجاهدة والسلوك.

وعلى ما يبدو، فإنَّ التصوّف المالكي قد أسهم في بناء منظومة أخلاقية وتربوية، أثّرت في المجتمعات المغربية والإفريقية، وأسهم كذلك في ترسيخ التصوف السني، كمرجعية دينية وروحية، وبفضل هذين الإسهامين، أصبح التصوف عنصرًا مهمًّا في تكوين العلماء، وإعداد الفقهاء والدعاة، بعد أن تبنّته المدارس العلمية، والزوايا الصوفية، وعملت على نشره في المغرب وإفريقيا.

لذلك، لم تقتصر دراسات التصوف المالكي على كونه جزءًا من الفقه أو علم السلوك، بل تجاوزت ذلك، ليصبح رافدًا أساسيًّا في فهم طبيعة العلاقات الروحية والثقافية بين المغرب وغرب إفريقيا، ممّا يستدعي مزيدًا من البحث والتعمق في دوره وتأثيره، في الحاضر والمستقبل.

٢- التصوف المغربي وامتداده في جنوب غرب إفريقيا

ركّزت مداخلتا: الدكتور إبراهيم القادري بوتشيش، والحسين جاليو على امتداد التصوف المغربي نحو غرب إفريقيا، ويمكن قراءة مساهمتهما من خلال محورين أساسيين، هما: خصوصيات التصوف المغربي الممتد إلى غرب إفريقيا، ومظاهر انتشار التصوف المغربي بغرب إفريقيا.

أ- خصوصيات التصوف المغربي الممتد إلى غرب إفريقيا

تناول الباحثان خصوصيات التصوف المغربي، وأثره في بلدان غرب إفريقيا، والذي يأتي في مقدمته، كونه تصوفًا سنيًّا معتدلًا، عكس التصوف في المشرق العربي، الذي اتجه اتجاهًا فلسفيًّا غارقًا في التجريد.[١٢]

وباعتباره تصوفًا أخلاقيًّا في المقام الأول، يروم تقديم المعتقد في قالب بسيط غير معقد؛ فقد سهّل ذلك انتقاله إلى غرب إفريقيا، عبر منهج وسطي إسلامي سني، مبني على ثلاثة أصول، وهي: الاعتماد على النصوص الشرعية من الكتاب والسنة، والإجماع، وفقه النصوص وفق القواعد الشرعية، المستمدة من الشريعة ومقاصدها. ثم التفريق بين الأصول والفروع، والمحكم والمتشابه،[١٣] لضمان التوازن بين الفهم والتطبيق.

لقد تميّز التصوف المغربي بارتباطه الوثيق بالفقه المالكي، حيث لا تصوف بدون فقه، ولا فقه بدون تصوف، وفي هذا السياق، يقول الشيخ زروق: «الفقه والتصوف شقيقان في الدلالة على أحكام الله وحقوقه؛ فلهما حكم الأصل الواحد في الكمال والنقص، إذ ليس أحدهما بأولى من الآخر في مدلوله».[١٤]كما ينسب إلى الإمام مالك قوله: «من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن جمع بينهما فقد تحقق».[١٥]

وانطلاقًا ممّا سبق، فإن فكرة التكامل بين الفقه والتصوف تؤكد أن الاقتصار على الفقه دون التصوف قد يؤدي إلى التشدد والجفاف الروحي، بينما التصوف دون فقه قد يقود إلى الانحراف عن الشريعة، أمّا الجمع بينهما فيمثل الاعتدال، والتحقق بالدين في بُعديه: الظاهري والباطني. ويشير الحسين جاليو إلى أن التصوف المغربي يتميز بالجمع بين الفقه الشرعي، والسلوك الخلقي، ممّا جعله تصوفًا جامعًا بين الشريعة والحقيقة، خاصة وأن أي «حقيقة لا تشهد لها شريعة، سرابٌ بقيعة، وشريعة لا تضمن حسن السلوك، حجتها داحضة».[١٦]

وبفضل هذه الخصائص، انتشر التصوف المغربي في غرب إفريقيا، عبر الطرق الصوفية الكبرى، مثل: الشاذلية، والقادرية، والسنوسية، والتيجانية، وهذه الأخيرة، استمدت أصولها من التصوف المغربي، وجعلت المذهب السني المعتدل قاسمًا مشتركًا بينهما.

اتسم التصوف المغربي بواقعيته، ويظهر هذا حسب قول إبراهيم القادري بوتشيش في انتشار الطريقتين: القادرية والتيجانية في غينيا كوناكري،[١٧] وفي باقي غرب إفريقيا، ممّا أسهم في تشكيل الهوية الدينية بالمنطقة، وقد كان الحاج عمر الفوتي التيجاني، منذ نزوله منطقةَ «فوتا جالون» في غينيا رجلًا عمليًّا، حيث ألّف عدّة كتب في التصوف، تميّزت كلها بالواقعية، والتصوف العملي، ومن المفاهيم التي لقنها لتلاميذه في كتبه، ككتاب «الرِّماح»[١٨] على سبيل المثال: جهاد النفس كجزء أساس من التصوف. والتصور الدينامي للزهد، الذي لا يعني الانعزال، بل العمل لخدمة الدين والمجتمع، ودور الشيخ المربي في تقويم السلوك وتوجيه المريدين.[١٩] أمّا الشيخ عثمان بن فودي فقد رأى أن السلوك الصوفي ينضوي تحت باب الإحسان، وهو الذي يتطلب التربية والتعليم والمجاهدة، مع الالتزام بالقدوة الحسنة في إطار الطريقة الصوفية.[٢٠]

ب- مظاهر انتشار التصوف المغربي بغرب إفريقيا

ترجع البدايات الأولى لانتشار الإسلام في غرب إفريقيا إلى التجربة المرابطية؛ حيث أسهم الدعاة وزعماء الحركات الإصلاحية، مثل: عبدالله بن ياسين إسهامًا كبيرًا في نشر الإسلام وفق المذهب المالكي، وقد أدّى العلماء المغاربة دورًا بارزًا في هذا الإسهام، كالذي قام به أبو بكر الحضرمي المرادي، وأبو عبدالله بن وانسول السجلماسي، وكدور محمد بن الفقيه الجزولي، وعلي الزدوتي المراكشي،[٢١] اللذَين ذكرهما ابن بطوطة في رحلته مع علماء آخرين.

وإلى جانب نشر المذهب المالكي في غرب إفريقيا، فقد برز التصوف كرافد ديني وروحي مهم، خاصة من خلال الطريقتين: الشاذلية والتيجانية، اللّتَين اكتسبتا طابعًا مغربيًّا،[٢٢] وعلى خط التوازي، كانت الطريقة القادرية قد نشأت في بغداد، ووصلت إلى غرب إفريقيا عبر العلماء المغاربة، وبرزت بوضوح على يد شيوخ الأسرة الكنتية، الذين يأتي في مقدمتهم الشيخ المختار بن أحمد الكنتي (ت: ١٨١١م)، وابنه أحمد البكاي (ت: ١٨٦٥م). وقد أصبحت زاويتهم، المعروفة بـ«الزاوية الكنتية بأزواد»، مركزًا مهمًّا للأنشطة الدينية والعلمية، بل تجاوزت ذلك إلى الأدوار الاقتصادية والسياسية.[٢٣]

ويؤكد الدكتور الحسين جاليو أن المشيخة المغربية شكّلت رافدًا أساسيًّا في بناء أسانيد التلقين الصوفي في غرب إفريقيا، وأسهمت في نقل العديد من العلوم، يشهد على ذلك ما أورده محمد بن أبي الصديق البرتلي في كتابه: «فتح الشكور»،[٢٤] حيث ذكر أسانيد ومشيخة العلماء المغاربة، الذين لقنوا التصوف للمريدين الأفارقة.

لقد ناقشت المداخلتان أهمية الطرق الصوفية الوافدة إلى غرب إفريقيا، مع التركيز على خصوصيات كل طريقة، ولا سيّما الطريقة التيجانية، التي تعدّ الأكثر انتشارًا في غرب إفريقيا، وبخاصة في غينيا كوناكري. وقد حاول كل من الباحثين الاثنين تتبّع تاريخ ظهور هذه الطريقة، على يد الشيخ أحمد التيجاني، بعد تأسيس زاويته بفاس، وظروف انتقال هذه الأخيرة إلى غرب إفريقيا، من خلال العلماء والمريدين الشناقطة، خصوصًا من قبيلة إدّ أُوعْلِ، مثل: محمد الحافظ العلوي الشنقيطي. وقد تعزز انتشار التيجانية وتوطد نفوذها على يد الحاج عمر الفوتي، الذي وضع مشروعًا إصلاحيًّا وسياسيًّا طموحًا، واجه من خلاله الاحتلال الفرنسي، وبعض الزعماء المحليين.

ولهذا، استعرض الدكتور إبراهيم القادري بوتشيش عددًا من السمات، التي تميّزت بها الطريقة التيجانية، مثل: الاعتدال، والالتزام بالكتاب والسنة، إلى جانب دورها في التربية الأخلاقية، ومحاربة التطرف الديني،[٢٥] واكتسابها لرصيد روحي وتاريخي مهم، جعلها واحدة من أهم المؤسسات الصوفية، المؤهلة للإسهام في معالجة المشكلات الدينية والاجتماعية، في غرب إفريقيا.[٢٦]

وفي ختام دراسته، أورد الدكتور الحسين جاليو ملحقًا، حول علاقة علماء فوتا جالون بالحاج عمر الفوتي، وخاصة إدريس جالو، وابنه الشيخ ألفا باكر. وقد لعبت هذه الأسرة، التي ينحدر منها الباحث، دورًا محوريّا في نشر الطريقة التيجانية في غينيا، حيث استمر إشعاعها في تلقين الأوراد، وتعليم العلوم الدينية، ممّا جسد التمسك بالإسلام السني والسلوك الصوفي إلى اليوم.[٢٧]

يتّضح من خلال دراستَي: إبراهيم القادري بوتشيش، والحسين جاليو، أن التصوف لم يكن مجرد ظاهرة دينية محلية، بل تحول إلى قوة روحية عابرة للحدود؛ ففي غرب إفريقيا، أسهمت الطرق الصوفية المغربية في نشر الإسلام، وترسيخ المذهب المالكي، بينما في غينيا كوناكري، ترسخت الطريقة التيجانية بعمق، مع احتفاظها بروابطها الوثيقة بالمغرب.

٣ - الحركة الصوفية في جمهورية غينيا كوناكري

سلطت مداخلتا الدكتور محمد غالي جكني،[٢٨] والدكتور ألفا محمد ووري فادي[٢٩] الضوء على التصوف في غينيا كوناكري، موضحتين كيفية امتداده داخل البلاد، والتفاعل التاريخي بين التصوف الغيني، والتصوف المغربي. وأبرز الباحثان أن التصوف في غينيا لم يكن ظاهرة محلية فحسب، بل تأثر منذ نشأته بالنماذج المغربية، لا سيّما عبر الطريقة التيجانية، التي أصبحت الأكثر انتشارًا. ويعدّ التصوف عنصرًا أساسيًّا في الحياة الدينية والاجتماعية في غينيا، حيث تؤدي الزوايا الصوفية دورًا محوريًّا في التربية الروحية، والتعليم الديني.

أ- البنية الصوفية في غينيا كوناكري ودور الزوايا الصوفية

سلّط الباحث محمد غزالي عمر جكني الضوء على مفهوم التصوف، وسياق ظهوره، ثم انتقل إلى إشكالية وصول الإسلام إلى غرب إفريقيا، مشيرًا إلى أنّ المصادر التاريخية تحدّثت عن دور لفاعلين عدة في نشر الإسلام، ومن بينهم: الدعاة، والتجار، والمعلمون من قبائل صنهاجة، بالإضافة إلى الزهاد والمتصوفة. وقد أسهم هؤلاء في انتشار الإسلام في غينيا كوناكري،[٣٠] حيث لعبت الزوايا والرباطات التي أسّسها شيوخ الطرق الصوفية دورًا أساسيًّا في نشر الإسلام، وعقد حلقات الذكر ومجالس العلم. وأسفر هذا عن ترسيخ ثلاثة ثوابت أساسية بين المسلمين في غينيا، وفي غرب إفريقيا عمومًا، وهي: العقيدة الأشعرية، والمذهب المالكي، والتصوف السني.[٣١]

وبناء على ذلك، أولى الباحث اهتمامًا خاصًّا بتاريخ التصوف في غينيا كوناكري، موضحًا أن جذوره تعود إلى التفاعل مع الموجات الصوفية، القادمة من شمال إفريقيا، كما استعرض الدور الكبير للطرق الصوفية في نشر الإسلام، وتعزيز التماسك الاجتماعي في البلاد.

وركّز الباحث على الطريقة القادرية؛ فعرف بشيخها المؤسس عبدالقادر الجيلاني، ومنهجه في التربية والسلوك،[٣٢] قبل أن ينتقل إلى عرض تاريخي للطريقة التيجانية، ومؤسسها الشيخ أحمد التيجاني. وفي محور آخر، استعرض الباحث أثر التصوف القادري والتيجاني في بعض القبائل الغينية، وخاصة قبيلة جاخا، والقبيلة الفلانية، وهذا تعريف موجز بهما:

أولًا- قبيلة جاخا

يعود تأسيس قبيلة جاخا إلى الشيخ سالم بن يوسف بن عبدالله بن محمد السُّواري،[٣٣] أحد أبرز علماء التصوف في السودان الغربي، الذي عاش خلال القرن الخامس الهجري بمنطقة ماسنا،[٣٤] وتميّزت هذه القبيلة بقدم اعتناقها للإسلام، ممّا أدّى إلى بروز عدد من الفقهاء والعلماء فيها، فأسهموا في نشر الإسلام. وقد امتدت جذور هذه القبيلة إلى عدة بلدان، ومنها: مالي، والنيجر، ونيجيريا، والسنغال، وفولتا العليا (بوركينا فاسو)، وغينيا.

اشتهر أبناء قبيلة جاخا بإتقانهم للغة العربية والعلوم الشرعية، ممّا فتح لهم المجال للتميز في التصوف.[٣٥] ومنذ وصول التصوف القادري إلى السودان الغربي، كان فقهاء القبيلة من أوائل الذين اتصلوا بالشيخ المختار الكنتي، فانخرطوا في الطريقة الكنتية، وظلوا أوفياء لها، رغم التحديات التي فرضتها الطرق الصوفية الأخرى، مثل: الطريقة التيجانية، التي انتشرت في عهد الحاج عمر الفوتي.

وقد أسّس أبناء القبيلة عددًا من الزوايا في غينيا، من بينها: زاوية طوبى، وزاوية كومبيا، وزاوية كنديا،[٣٦] وهي التي تحوّلت إلى مراكز تعليمية، استقطبت آلاف الطلاب من مختلف مناطق السودان الغربي. ورغم تمسك أهل جاخا بالطريقة القادرية، فإنهم لم يكونوا متعصبين لها، بل حافظوا على علاقات ودية مع أتباع الطرق الأخرى، ممّا جعلهم أنموذجًا في التعايش الديني والانفتاح.

ثانيًا- القبيلة الفُلَّانية

تميّزت القبيلة الفلانية في غينيا بسبق اعتناقها للإسلام، وكان منها عدد من الدعاة الذين أسهموا في نشر الإسلام، وتعليم اللغة العربية في السودان الغربي. وبالمقارنة مع قبيلة جاخا، فقد كان الفولاني أكثر ارتباطًا بالطريقة التيجانية؛ حيث تأثروا بالحركة العمرية، التي أسهمت في انتشار الطريقة في غينيا، وفي عموم غرب إفريقيا.

ويرى «محمد غزالي عمر جكني»، أن انتشار الطريقة التيجانية بين الفولاني، يعود إلى عوامل عدة، أبرزها: تنظيمها المحكم، وقرب شيوخها من المجتمع، ودورهم الفاعل في الحياة الدينية. كما أن الطريقة التيجانية قامت بدور محوريّ في بناء مجتمع روحي متماسك، وهو ما عزّز مكانتها في أوساط القبائل الغينية. وفي ختام مقاله، قدم الباحث وصفًا لمزايا الذكر الصوفي، مسلّطًا الضوء على القيم والمبادئ التي يمكن استلهامها منه.

ب- اتحاد الزوايا التيجانية ودوره في تعزيز التصوف المعتدل

تطرّق الباحث ألفا محمد ووري فادي إلى البنية الصوفية في غينيا كوناكري،[٣٧] مع التركيز على دور الشيوخ المحليين في نشر التصوف. وأكد أن التصوف التجاني هو الأكثر انتشارًا في البلاد، منذ وصول الطريقة التيجانية إلى غرب إفريقيا على يد العلماء الشناقطة. غير أن انتشارها الفعلي في غينيا، كان بفضل جهود الحاج عمر الفوتي، الذي سبق الحديث عنه.

وسلّط الباحث الضوء على اتحاد الزوايا التيجانية في فوتا جالون، والذي تأسس منذ عشر سنوات، وحظي باعتراف رسمي من الدولة الغينية. وقد أصبح هذا الاتحاد منبرًا للدفاع عن التصوف السني المعتدل، في مواجهة التطرف الديني،[٣٨]وأسهم في حماية الطريقة التيجانية وانتشارها. ويرى الباحث، أن أحد أهم أسباب نجاح التيجانية في غينيا يكمن في الأخلاق الصوفية، التي تحلّى بها شيوخها، مثل: التواضع، والتسامح، والصبر، والكرم، والإنفاق، ممّا جعلها أكثر قربًا من المجتمع، وأسرع انتشارًا.

يبرز من خلال مداخلتَي كل من: محمد غالي جكني، وألفا محمد ووري فادي، أن التصوف في غينيا كوناكري، لم يكن مجرد مكون ديني معزول، بل أصبح عنصرًا أساسيًّا في بنية المجتمع الديني والاجتماعي. وقد شكّلت الطريقة القادرية، والطريقة التيجانية، ركيزتين أساسيتين في نشر الإسلام، وتعزيز التماسك الروحي، مع تميز التيجانية بحضور أقوى، وانتشار أوسع. كما أن اتحاد الزوايا التيجانية في فوتا جالون، أسهم في تثبيت التصوف المعتدل، وحماية الموروث الديني من التأثيرات المتطرفة.

ومن الواضح كذلك، أن علاقة هذه الزوايا مع المغرب، كانت عميقة ومستدامة؛ حيث قام المغرب بدور مركزيّ في تكوين الشيوخ الغينيين، ومنحهم الإجازات الصوفية؛ ممّا عزّز أواصر الصلة بين البلدين على المستويين: الروحي والعلمي.

٤- التصوف كجسر ثقافي مع إفريقيا

اختتمت الجلسات العلمية خلال اليومين الأول والثاني بنقاشات معمقة، أغناها الحاضرون بمداخلاتهم الثرية، وانتهت بكلمات معبرة. وقد شكلت هذه الندوة فضاء فكريًّا خصبًا، لاستعراض رُؤى النخب الدينية والسياسية.

واستنادًا إلى النقاشات العلمية، والمداخلات التي شهدتها الندوة، يمكن اقتراح التوصيات الآتية، لتعزيز الروابط الصوفية بين المغرب وإفريقيا:

١- توسيع البحث العلمي: وتشجيع الدراسات الأكاديمية حول التصوف، ودوره في توطيد العلاقات الثقافية والروحية.

٢- تعزيز التبادل العلمي :ودعم برامج التكوين والتبادل بين المؤسسات الدينية والعلمية في المغرب وإفريقيا، لتعزيز المعرفة الصوفية، وتبادل التجارب.
٣- إحياء التراث الصوفي المشترك: والعمل على توثيق ونشر المخطوطات والدراسات التاريخية حول التصوف في المنطقة، وإتاحتها للباحثين والمهتمين.
٤- استخدام الوسائل الحديثة :وتوظيف الوسائط الرقمية والإعلامية لنشر الفكر المعتدل، وتعريف الأجيال الجديدة بالإرث المشترك.

خاتمة

يعكس التفاعل بين التصوف المغربي والإفريقي امتدادًا تاريخيًّا، يعزز التواصل الروحي بين المنطقتين؛ حيث أسهمت الطرق الصوفية كالقادرية، والتيجانية، والشاذلية، في نشر تعاليمها وتقاليدها التربوية، فيما أثرى التصوف الإفريقي التجربة الصوفية المغربية عبر شبكات العلماء والمريدين.

لقد شكّلت هذه الدراسة محاولة لاستكشاف هذا الامتداد الصوفي، وتسليط الضوء على آلياته، لكنها تظل خطوة أولى، تتطلب تعميق البحث في انتشار التصوف، ومظاهر تفاعله مع السياقات المحلية الإفريقية. ويظل من الضروري إنجاز دراسات ميدانية لرصد الطرق الصوفية، وفهم تحديات استمراريتها، في ظل التحولات الراهنة. كما يمكن أن تثري المقارنة بين التجارب الصوفية في غرب إفريقيا، فهم طبيعة التأثير المتبادل، وأبعاده المختلفة.

وفي الختام، يبقى التصوف عنصرًا أساسيًّا في دراسة العلاقات المغربية الإفريقية، ممّا يستدعي مزيدًا من البحث، لتعميق الفهم حول دوره في تشكيل الهوية الدينية المشتركة. إن تعزيز الجهود العلمية في هذا المجال، سيسهم في توثيق هذا التراث الروحي، وترسيخ أسس التواصل الثقافي بين المغرب العربي وإفريقيا، بما يفتح آفاقًا جديدة، لفهم أعمق لهذه الظاهرة، في سياقاتها التاريخية والمعاصرة.

الهوامش والإحالات

(١) حميد لحمر، «الـتأسيس لعلم السلوك والتصوف في مؤلفات فقهاء المالكية»، التصوف المغربي وامتداداته في جنوب غرب إفريقيا، ط١، سلسلة أعمال الندوات العلمية لفروع مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة فرع جمهورية غينيا كوناكري، (فاس: منشورات مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة، ٢٠٢٢م).

(٢) أبو بكر بن العربي المعافري، القبس في شرح موطأ الإمام مالك، ج١، تحقيق: د. محمد عبد الله ولد كريم، ط١، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٢م)، ١٠٨٢.

(٣) أبو بكر بن العربي المعافري، سراج المهتدين في آداب الصالحين، تحقيق: محمد بن الأمين بوخبزة الحسني، ط١، (بيروت: دار ابن الحزم للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٩م).

(٤) أبو بكر بن العربي المعافري، سراج المريدين في سبيل الدين، ٤ أجزاء، ضبط نصه وخرج أحاديثه ووثق نقوله: عبد الله التوراتي، سلسلة مؤلفات الإمام أبي بكر بن العربي، ط١، (طنجة: منشورات دار الحديث الكتانية، ٢٠١٧م).

(٥) الصغير بن عبد السلام الوكيلي، الإمام الشهاب القرافي، صلة وصل بين المشرق والمغرب في مذهب مالك خلال القرن السابع، جزآن، ط١، (الرباط: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٩٩٦م).

(٦) أبو عبد الله محمد المقري، قواعد الفقه، تحقيق محمد الدار، دبي، ط١، (الرباط: دار الأمان، ٢٠١٢م).

(٧) أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، خرجه جماعة من الفقهاء تحث إشراف محمد حجي، ط١، (الرباط: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٩٨١م).

(٨) محمد بن أحمد بن محمد الفاسي، الإتقان والإحكام في شرح تُحفة الحُكام في نُكَتِ العقود الأحكام، جزآن، تحقيق: محمد عبد السلام محمد سالم، ط١، (القاهرة: دار الحديث، ٢٠١١م).

(٩) محمد الأمين بن عبد الوهاب الجكني، التلخيص المفيد على رسالة الإمام ابن أبي زيد، تحقيق: سيدي محمد الشيخ أحمد أبي المعالي،» (أطروحة دكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد بن عبد الله، ٢٠١٥م).

(١٠) السلطان سيدي محمد بن عبد الله العلوي، مواهب المنان بما يتأكد على المعلمين تعليمه للصبيان، قابله وصححه أحمد العلوي عبد اللوي، ط١، (الرباط: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٩٩٦م).

(١١) الشيخ سيدي المختار الكنتي، فتح الوهاب في بيان ألفاظ هداية الطلاب، تحقيق: الدي بن محمد أيوه وأباي محمد محمود، ط١، (بيروت: دار ابن حزم، ٢٠٢٤م).

(١٢) إبراهيم القادري بوتشيش، «امتداد التصوف المغربي نحو جنوب غرب إفريقيا: غينيا نموذجا،» التصوف المغربي وامتداداته في جنوب غرب إفريقيا، ط١، سلسلة أعمال الندوات العلمية لفروع مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة فرع جمهورية غينيا كوناكري، (فاس: منشورات مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة، ٢٠٢٢م)، ٦٢.

(١٣) إبراهيم القادري بوتشيش، «ثقافة الوسطية في التصوف السني بالمغرب،» التصوف السني في تاريخ المغرب نسق نموذجي للوسطية والاعتدال، منشورات الزمن، سلسلة شرفات رقم ٢٧، (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، ٢٠١٠م).

(١٤) زروق أحمد، قواعد التصوف، تحقيق: عبد المجيد خيالي، (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣م)، ٢٩.

(١٥) هناك اختلاف حول نسب هذه القولة، حيث تنسب إلى الإمام الغزالي في مصادر، وفي مصادر أخرى إلى الإمام مالك بن أنس.

(١٦) الحسين جاليو، «امتداد التصوف المغربي نحو جنوب غرب إفريقيا،» التصوف المغربي وامتداداته في جنوب غرب إفريقيا، ٨٨.

(١٧) إبراهيم القادري بوتشيش، «امتداد التصوف المغربي،» ٦٤.

(١٨) عمر بن سعيد الفوتي، رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرجيم، هامش كتاب جواهر المعاني، ط١، (الدار البيضاء: دار الرشاد الحديثة، ٢٠٠٢م).

(١٩) بوتشيش، «امتداد التصوف المغربي...،» ٦٥.

(٢٠) الحسين جاليو، «امتداد التصوف المغربي،» ٨٩.

(٢١) أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي، رحلة ابن بطوطة المسماة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق: عبدالهادي التازي، ط١، ج٤، (الرباط: مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، ١٩٩٧م)، ٢٧٣.

(٢٢) بوتشيش،» امتداد التصوف،» ٦٧.

(٢٣) بوتشيش،» امتداد التصوف،» ٧٩.

(٢٤) محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي الولاتي، فتح الشكور في معرفة أعيان التكرور، تحقيق: محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، ط١، (بيروت: منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة النشر، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨١م)، ١٥-١٦.

(٢٥) بوتشيش، « امتداد التصوف،» ٧٤.

(٢٦) بوتشيش، ٧٥.

(٢٧) الحسين جاليو، «امتداد التصوف المغربي،» ٩٩-١٠٠.

(٢٨) محمد غزالي عمر جكني، «الحركة الصوفية في جمهورية غينيا والاستمداد المغربي»، التصوف المغربي وامتداداته في جنوب غرب إفريقيا، ١٠٧-١٢٧.

(٢٩) ألفا محمد ووري فادي، «الطريقة التجانية وتاريخ دخولها إلى غينيا»، التصوف المغربي ...، ١٣١-١٣٥.

(٣٠) محمد غزالي، «الحركة الصوفية في جمهورية غينيا والاستمداد المغربي»، التصوف المغربي ...، ١١١.

(٣١) محمد غزالي، «الحركة الصوفية في جمهورية غينيا والاستمداد المغربي»، التصوف المغربي ...، ١١٢.

(٣٢) محمد غزالي، ١١٤.

(٣٣) غزالي، ص: ١١٨.

(٣٤) حاليًّا هي منطقة بدولة مالي.

(٣٥) محمد غزالي، «الحركة الصوفية....» ص: ١١٩.

(٣٦) محمد غزالي، «الحركة الصوفية....» التصوف المغربي ...، ١٢٠-١٢٢.

(٣٧) ألفا محمد ووري فادي، «الطريقة التيجانية وتاريخ دخولها إلى غينيا،» التصوف المغربي ...، ١٣١-١٣٤.

(٣٨) ألفا محمد، «الطريقة التيجانية....» التصوف المغربي...، ١٣٤.